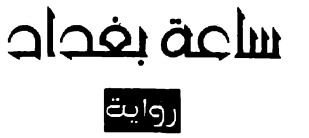


شهد الراوي

ساعة بغداد

رواية

دار الحكمة
لندن


ساعة بغداد
رواية

ساعة بغداد

رواية

شهد الراوي

دار الحكمة
لندن



إلـــى:

سعـد وأحــلام

إلـــى:

شمس وشذر

دخلت إلى حلمها بقرة، دخلت دراجة هوائية، دخل جسر، دخلت سيارة عسكرية، دخلت غيمة، دخل غراب، دخلت شجرة، دخل طفل، دخلت طائرة، دخل بيت مهجور، دخلت قطة، دخل خزان مياه، دخل شارع، دخلت زرافة، دخلت صورة فوتوغرافية، دخلت أغنية، دخلت ساعة جدارية، دخلت سفينة... وهكذا راحت الأشياء تدخل تباعًا وهي تستعد لتأليف حلم جديد.

تحركت البقرة بعد أن أصابها الملل، تحرك الخروف، تحرك الحصان، تحركت الدراجة الهوائية ثم تحركت الأشياء كلها في دورة من الفوضى ليس لها نهاية...

هل هذا حلم؟!

دخلت أنا إلى حلمها، ركبت الدراجة الهوائية وطاردت الأشياء المتبقية، طردت كل شيء من رأسها، نظفت حلمها وتركت فيه الساعة الجدارية وخرجتُ.

تشاركت معها الأحلام لأنني لا أحلم في الأصل، لا أعرف لماذا يحلم الناس، وما حاجتهم إلى هذه الأحلام؟!.

الكتاب الأول
طفولة الأشياء الواضحة

(١)

قبل أن تنهي حكايتها، قاطعتها ونهضت من مكاني وذهبت إلى أمي أسألها:

ـ ماما، ليش عيوني مو خضر مثل عيون نادية؟

ـ مِنْ تكبرين تصيرين مثلها.

عدت إلى مكاني أجلس بالقرب من نادية وقلت لها:

ـ من أصير كبيرة راح تصير عيوني خضر.

ـ لا متصير، لأن أمك عيونها مو خضر.

ـ بس أني أطول منك.

وقفت هي على طولها ووقفت أنا إلى جانبها، وضعت كتفي لصق كتفها وسألنا أمها:

ـ منو أطول؟

قالت أمها:

ـ أنتِ.

جلسنا على الأرض مرة أخرى، صرت أحبها وصارت تحبني، حكيت لها عن بيت جدتي البعيد فقالت لي:

- لماذا تحبين جدتك؟!

قلت لها:

- لأنني ابنتها.

ضحكت كثيرًا غير مصدقة كلامي ولا هي تعرف ماذا تقول لي. عندما جاء وقت النوم، نامت إلى جانبي على البساط الذي حملناه معنا من البيت. خلعت عنها أمها حذاءها الأسود وجواربها البيض الطويلة وغطتنا سويًّا وخفضت من ضوء الفانوس وأبعدته عنا.

قبل أن أغمض عينيّ، رأيتها تبتسم وهي نائمة، تحرك شفتيها ببطء كأنها تتحدث مع نفسها. اقتربت منها وأنا مندهشة ووضعت وجهي مباشرة أمام وجهها، شاهدت أطيافًا ملونة تتحرك حول جبينها، خيالات لم أر مثلها من قبل تظهر وتختفي ثم تعود، كنت في هذه اللحظة أرى أحلامها، وهذه أول مرة في حياتي أدخل فيها إلى أحلام أحدهم.

في هذا الوقت، كانت تحلم بي أنا.

أمسكت بيدي وطارت بي عاليًا فوق بيوت بغداد القديمة، رحنا نرتفع في الهواء، ونرتفع ونرتفع حتى صرنا مثل نحلتين صغيرتين لا يراهما أحد.

(٢)

في الليلة الثانية، قبل أن تغيب الشمس بقليل، جئنا مع أهلنا من البيت إلى الملجأ، وقبل أن ندخل رحنا نلعب سويًّا على درجات السلم الصغير الذي يقودنا إلى داخل المكان. قفزتُ أنا من الدرجة الثانية في الهواء إلى الأرض، صعدت هي وقفزتْ من الدرجة الثالثة في الهواء إلى الأرض، قفزتُ أنا من الدرجة الثالثة، وقفت هي على حافة الدرجة الرابعة وترددت، غيرت رأيها ونزلت من على السلّم لأنها لا تستطيع القفز من مكان مرتفع. جاء الأولاد الذين كانوا يلعبون قريبًا من الباب، صعدوا السلّم الواحد بعد الآخر وراحوا يتقافزون وهم يضحكون.

في هذه الأثناء، دوّت صفارة الإنذار التي لا أحب صوتها، ولا يحب صوتها أحد من الناس. أمسكت بيدها وهربنا نحو المكان الذي تجلس فيه أمي وأمها، تعثرت قدماها بالفانوس الكبير الذي يتوسط أرض الملجأ وانكسرت زجاجته، سال النفط على البلاطات، ومشت النار خطوات على الأرض الرطبة، تجمدنا في مكاننا وسط الظلام، في حين كان وهج الضوء يحرك ظلالنا على الجدار الإسمنتي في الجهة المقابلة.

بعد قليل، سمعنا أصوات القصف الشديدة التي أعقبت صفارة الإنذار، انفجارات عنيفة تقترب منا شيئًا فشيئًا ثم تعود لتبتعد، تقترب مرة أخرى وتبتعد، تموجت الأرض بنا مثل بساط خفيف. في هذا الوقت، انشغلت أمهاتنا مع أنفسهن بقراءة الأدعية وترتيل سور من

القرآن وفكرت أنا أن أختفي من هذا العالم، نهضت أمشي في الظلام واقتربت من أمي:

ـ ماما؟

ـ نعم يا حبيبتي.

ـ تعرفين ماذا أريد منك؟

ـ ماذا تريدين؟

ـ أريد أن لا أكون موجودة في هذا العالم.

قبل أن أعود إلى مكاني، أشعل أحدهم سيجارته بعود ثقاب، شاهدت ظلي يتحرك على الجدار ثم راح يكبر ويتمدد على سقف الملجأ ويتلاشى، بقيت واقفة في مكاني أفكر في ظلي.... إلى أين ذهب في هذا الوقت؟! أين تختفي ظلالنا من هذه الحياة؟! هل أنا في الحقيقة ظل نفسي؟

إن روحي تعيش فيه وهي تختفي معه لأنها لا تحب أن تكون موجودة في هذا العالم.

كنت أتمنى أن يشعل أحدهم عود ثقاب آخر، لكي يعود ظلي وأتحدث إليه، أحببت أن أسأله: كيف يستطيع أن يختفي من دون أن نراه؟ لكنني تذكرت أن الظلال ليس لها صوت، فعدت إلى مكاني أقترب من نادية ببطء، لم أكن أراها بسبب شدة الظلام، لكنني كنت أعرف أنها موجودة في مكانها.

ذهبت الطائرات بعيدًا، ذهب معها الخوف وجاء وقت النوم. تمددت على بساطنا الصغير بخطوطه الملونة وحشرت هي نفسها إلى جانبي ونامت. كانت الأرض باردة تنخر عظامنا، وضعت أمي فوق جسدينا غطاء ثقيلًا ودثرت أقدامنا جيدًا وشعرت لحظتها بالدفء. لم أنم هذه الليلة أيضًا، كنت أراقب حلمها، إنها لعبة مسلية أن تراقب أحلام أحدهم وهو غارق في النوم. في الصباح حكيت لها عن الحلم فاستغربت مني وقالت:

ـ يا مكروهة ليش تبوگين أحلامي؟

ـ لأن آني ما أعرف أحلم.

حاولت كثيرًا في حياتي أن أنسخ أحلامها الجميلة وألصقها في نومي، لكنني فشلت. اكتفيت بمراقبة هذه الأحلام، وعندما أجدها تحلم أحلامًا مزعجة، أنظف رأسها وأطرد الأشياء التي لا تحبها.

في بطن هذا الملجأ الذي يشبه حوتًا كونكريتيًّا كبيرًا تتحرك على جدرانه خيالاتنا، في المكان الرطب المحصن ضد الحرب، تعرفت إلى نادية في كانون الثاني عام ١٩٩١ حين كانت سماء بغداد تحترق بالطائرات والصواريخ.

قضينا أكثر من عشرين ليلة في الملجأ، عشنا خلالها الخوف، والبرد، والترقب، واللهو، واللعب، والأحلام، لم نكن نعرف وقتها ماذا كان يجري من حولنا، لم نفهم ساعتها ماذا كانت تعني الحرب.

مرة، وقبل أن نجلس على بساطنا، جاء عمو شوكت يمشي نحونا وهو يبتسم، هو هكذا يبتسم كل الوقت، قرص نادية من أذنها قرصة

خفيفة، تناول معصمها الأيسر وطبع عليه بأسنانه ساعة صغيرة، ثم أخذ يدي اليسرى وفعل الشيء نفسه. اقتربت منهُ زوجته باجي نادرة وهي تقول له:

ـ لا تفعل هذا.

قبلتنا باجي نادرة بحنان واعتذرت منا، كنا نبتسم لها وفي الوقت نفسه، ننظر إلى الساعة المطبوعة على الجلد وهي تختفي تدريجًا. عاد عمو شوكت إلى مكانه وجلس مع مجموعة من الرجال حول راديو صغير يبث وشوشات بعيدة. ذهبت زوجته وجلست بين أمي وأم نادية.

بعد قليل، اقتربت منهنّ نساء كثيرات وجلسن معهن يتحدثن عن الحرب. جاءت بنات صغيرات وجلسن معنا، أتذكر مروة، وبيداء، ووجدان، وريتا، وملائكة التي تسميها نادية الشيطانة من دون سبب أعرفه:

ـ آني مو شيطانة.

ـ لا إنتِ شيطانة.

بكت ملائكة وراحت تجلس قريبًا من أمها وهي تؤشر نحونا بأصبعها وتقول لها كلمات لا نسمعها.

نهضنا أنا ونادية من مكاننا نتجول في زوايا الملجأ، نعد الوجوه في ضوء الفوانيس، كنا نريد أن نعرف الناس الذين نعيش بقربهم في محلة واحدة، هذه أم ريتا، هذا أبو مناف، وهذا مناف وهذه أخته منال، وهذا أخوه الصغير غسان ينام في حضن أمه. هذه أم مروة، وهذا أخوها

مروان. هذه هند، وذاك أبوها وتلك أمها. هذا نزار وهذا أبوه وتلك أمه. هذه ميادة وأهلها وهذه أم علي وبناتها الكبيرات، أم علي ليست لديها بنت صغيرة تجلس معنا. هؤلاء بيت أم سالي. هذه وجدان وهذه أمها وأخواتها. هذا فاروق وأمه وأبوه. هذه أم ملائكة واسمها هيفاء وهذا هو أبوها واسمه أسامة وهذا هو جدها، أما جدتها فهي نائمة كل الوقت وتغطي وجهها بعباءتها السوداء. هذا أحمد وأمه، أبوه لم يأت معهما لأنه شهيد.

(٣)

في خيالي، أعدت الناس الذين شاهدتهم في الملجأ إلى بيوتهم في شارعنا، رتبت تلك البيوت في خطوط مستقيمة ورسمت منها سفينة كبيرة تشبه المحلة التي ولدنا فيها، ثم رسمت دخانًا أبيض يصعد ببطء نحو الغيوم.

صرتُ أعرف كل البيوت، أعرف الآباء والأمهات والأبناء والبنات، صارت المحلة في رأسي عالمًا هندسيًّا من الخطوط، والمربعات، والمستطيلات. بمجرد أن يسألني أحدهم عن أي بيت، أقول له بسرعة وأنا أغمضُ عيني:

- إن هذا البيت، هو رابع بيت من الجهة المقابلة.

لم تعد المحلة بعد هذا الوقت، ذلك الشيء الذي كنت أتخيله فضاء واسعًا بحدود لانهائية، صارت واضحة وصغيرة. فنحن عندما نعرف الأشياء، تفقد هذه الأشياء حجمها وتصير صغيرة. لكي أوضح

لكم هذه الفكرة، سأضرب لكم مثلًا على ذلك: عندما تصبحون في المدرسة وتعرفون حجم المجرات فإن الكرة الأرضية تصبح في نظركم كرة صغيرة. حتى القمر، حتى الشمس، كلها تصبح في نظركم أشياء صغيرة، أليس هذا صحيحًا؟ الأشياء الكبيرة هي الأشياء التي عندما لا نعرف حدودها ونتخيلها.

هل أصبحت فكرتي واضحة؟ بعض الأفكار تحتاج إلى توضيح، لأننا في البداية نفكر فيها لوحدنا. تولد الفكرة في أول الأمر من خيالنا وعندما نريد أن نتحدث عنها للآخرين، لا نعرف كيف نجعلهم يعرفونها تمامًا مثلما نعرفها نحن، لذلك نحن نحتاج إلى توضيحها ونستخدم لهذا الغرض أمثلة بسيطة. فمثلًا، هناك شخص يريد أن يصنع دراجة هوائية، لنفرض أنه أول من صنع دراجة هوائية. في البداية ولدت هذه الفكرة في رأسه ثم رسمها في خياله وقال في نفسه: إذا لم تتحرك هذه الدراجة ستسقط على الأرض. شرح هذه الفكرة لصديقه لكن صديقه لم يستوعبها وقال له: أنا واقف لكنني لا أسقط، لا أحتاج يا صديقي أن أتحرك لكي لا أسقط، فرد عليه صديقه الذي صنع الدراجة: هذا صحيح، ولكن هل تستطيع أن تجعل العجلة واقفة من دون أن تسقط؟ العجلة لا تسقط عندما تتحرك، فرد عليه صديقه: الآن فهمت فكرتك، وهكذا نحن دائمًا نحتاج أن نوضح الأفكار للآخرين.

عندما انتهت الحرب، لم نعد نذهب إلى الملجأ في كل مساء، صرتُ أقضي بعض الوقت في بيت نادية، أو تأتي هي إلى بيتنا لنلعب سويًا. مرات نخرج إلى الشارع لوحدنا لكننا لا نذهب بعيدًا. نعد البيوت بيتًا بيتًا ونشخبط على جدرانها بالطباشير، نرسم وجوهًا بيضوية

كبيرة ونرسم معها أطرافًا صغيرة وأصابع ملونة. رسمنا عمو شوكت يجلس على الأريكة وهو يلبس نظارته وإلى جانبه تجلس باجي نادرة وهي تضحك، رسمنا فوق رأسهم عصفورًا صغيرًا من دون قفص، رسمنا أم ريتا وهي تربط ساعدها المكسورة إلى عنقها، رسمنا قطة بيت أم مناف وهي تنظر إلينا، رسمنا أبا أحمد يطير بين الغيوم على الرغم من أننا لم نره من قبل.

في يوم من الأيام، كان ذلك على الأغلب يوم جمعة من شهر نيسان، ذهبت مع أهلي إلى حديقة الزوراء، كان معنا أهل نادية وبيداء وأمها، ولا أتذكر ما إذا كان أبوها معنا. جلسنا على العشب نتناول طعامنا الذي جلبناه من البيت. بعد قليل تركنا أهلنا يجلسون وركضنا نحن الثلاث بين الأشجار نصطاد الدعاسيق، وعندما أصبحنا قريبين من حديقة الحيوانات رمينا بعض الطعام إلى الزرافات الجائعة التي تعيش في أقفاص كبيرة.

قالت بيداء وهي تشير بإصبعها نحو بناية دائرية عالية:

ـ هذا برج الزوراء.

قلت لها:

ـ لكنه أصغر من برج المأمون.

ـ أجابت نادية وهي متأكدة من كلامها: برج المأمون يكبر كل يوم.

في العيد، ذهبت نادية عند بيت خالتها وذهبت أنا مع أهلي عند بيت عمتي، عادت هي تحكي لي قصصًا سمعتها من خالتها وأحكي لها

قصصًا من رأسي. عندما جاء الشتاء ونزل المطر ذهبنا إلى المدرسة، رفعت يدي وقلت للمعلمة:

ـ ست أريد أگعد يم نادية بنفس الرحلة.

سألتني المعلمة:

ـ نادية أم العيون الخضر؟

ـ نعم ست هي صديقتي، وآني من أكبر هم تصير عيوني خضر مثلها.

ضحكت المعلمة لكنني لم أضحك. المعلمات أحيانًا يضحكن بلا سبب. ذهبت وجلست مع نادية في رحلة واحدة، كانت هذه الرحلة قريبة من نافذة يدخل منها الهواء البارد. أفرك يدي بقوة من شدة البرد وتفرك نادية أصابعها. محوت أخطائي الإملائية وأنا أستخدم ممحاتها الملونة التي كلما محوت بها الحروف غير الصحيحة تخرج منها رائحة أحبها، أنا أحب الأخطاء كثيرًا لأنني أستطيع أن أمحوها.

نادية دائمًا تنسى وأنا دائمًا أتذكر، عندما تسرح أحيانًا أقول لها انتبهي، وعندما أنام على الرحلة تقول لي: لا تنامي.

كنا في شهر تشرين الثاني، حين خرجنا مرة من المدرسة إلى البيت وأنا أريد أن أختفي من شدة البرد، عثرت نادية فوق الرصيف على قطة عمياء صغيرة وبيضاء اللون، كانت مبللة وترتجف، ناولتني نادية حقيبتها وحملت القطة في حضنها.

أما كيف عرفنا أنها عمياء، فهذه مسألة ليست معقدة، إذا وجدت قطة صغيرة وحركت أصبعك أمام عينيها ولم تلتفت يمينًا ويسارًا فهذا يعني أنها لا ترى.

في الحديقة، بنينا لها كوخًا صغيرًا تحت شجرة الزيتون وتركناها تنام فيه. كانت أم نادية تراقبنا من النافذة، نادت علينا ودخلنا بيتهم.

ـ شعدگم بالحديقة والدنيا باردة؟

ـ عدنا بزونة راح تموت من البرد.

أعطتنا طعامًا لقطتنا وضعناه أمامها وجلسنا نراقبها ونحن مازلنا نرتجف من شدة البرد. شمت القطة الطعام وأدارت وجهها بعيدًا منه، دفعنا الصحن قريبًا من فمها مرة أخرى لكنها لم تأكل منه شيئًا.

بعد قليل، جاءت أمي تبحث عني فوجدتني ألعب في حديقتهم، كانت خائفة لأنني تأخرت على موعد وصولي إلى البيت، استغربت أنا لحظتها:

كيف عرفت أمي أنني تأخرت هذا اليوم؟!

لم أكن أعرف من الوقت سوى الساعة السابعة والنصف حين يدق جرس المدرسة في بداية الدوام. أعرف الساعة الواحدة أيضًا حين يدق مرة ثانية في نهاية الدوام لنخرج إلى البيت. كان هناك وقت آخر لا أعرفه، وقت طويل جدًا، يبدأ بعد الواحدة ظهرًا حتى الساعة السابعة والنصف صباحًا. الكبار يستخدمون وقتًا آخر نحن لا نعرفه.

أخذتني أمي من يدي وهي غاضبة مني وأنا أبكي من الخوف، هذه أول مرة أخاف فيها من أمي. تبعتني نادية وهي تركض وراءنا، وعندما شاهدت دموعي بكت هي الأخرى. كانت أم مناف تقف بباب بيتها وتراقبنا، أم مناف دائمًا تقف في باب بيتها وتراقب الجيران، حتى عندما أذهب إلى المدرسة في الصباح أراها واقفة في باب البيت تراقب الناس. خجلت أمي من هذا الموقف، دخلنا بيتنا وغيرت ملابسي في الحال، وعندما تناولت الغداء أخذتني ثانية إلى بيت نادية وتركتني عندهم. لعبنا أنا وهي في حديقتهم حتى المساء، حملنا خرقًا كثيرة وبعضًا من قطع الكارتون السميكة وغطينا كوخ القطة العمياء وقلنا لها: نامي فنامت.

في تلك الليلة، حلمت نادية بأنني صرت قطة بيضاء مبللة وأرتجف من البرد. في الصباح، اكتشفت أن قطتها اختفت من بيتها الصغير الذي بنيناه لها بالأمس ولم تعثر عليها بعد ذلك اليوم.

كيف يمكن لقطة صغيرة وعمياء أن تهرب في الظلام؟! هل تصدقونني عندما أقول لكم إن هذا الشيء قد حصل معنا؟

أغمضت عيني لأرى العالم مثلما تراه قطة عمياء، رأيت فراغًا هائلًا يحيطه غشاء أصفر خفيف تتحرك فيه خيالات من ضوء خافت ترسم دوائر تبدأ صغيرة ثم تتسع وتتسع وتختفي. القطة العمياء، تعيش في عالم من الدوائر التي تتسع ثم تتسع ثم تختفي.

كانت أحلام نادية في تلك الأيام تشبه الرسوم المتحركة، في كل

مرة تجد نفسها متورطة في أماكن عالية ولا تستطيع أن تحرك قدميها، تنادي على أمها بأعلى صوتها لكن أمها لا تسمعها، تنظر نحو الهاوية العميقة من حولها وتسقط لكنها لا تموت.

في بعض أحلامها، يتغير لون عينيها الخضراوين، هي تحب كثيرًا لون عينيها ولا تحب أن يتغير. عندما تستيقظ من النوم كل صباح تذهب إلى المرآة لتتأكد من أنهما خضراوان كما كانا قبل أن تذهب إلى السرير فتضحك مع نفسها.

كنت أدخل أحلامها كما أخبرتكم في البداية، أعيش فيها من دون أن يراني أحد، حتى لو ناديت عليهم بأعلى صوتي أو مسكت بيد أحدهم فهم لا يرونني. فقط مرة واحدة حدث معي ما لم أكن أتوقعه، كانت ملائكة الشيطانة تجلس في أحد الأحلام قريبًا من سياج بيتهم، وعندما اقتربت منها صفعتني على خدي من دون أن أشعر بأي ألم.

عندما أحاول أن أتذكر تلك الأيام، فأنا أتذكر منها الأيام الشديدة البرد أو الأيام التي ينزل فيها المطر، أما أيام الصيف فأتذكر منها فقط الليالي التي كنا ننام فيها فوق سطح البيت. أتذكر كل تلك الليالي كأنها ليلة واحدة، ليلة أعد فيها النجوم البعيدة، وعندما أنام، تسقط هذه النجوم في الحديقة، لذلك سيكون المطر كثيفًا في حكايتي وكأن شمس الصيف الحارقة لم تكن موجودة.

في بيت جدتي البعيد، كانت النجوم أقرب من النجوم التي فوق بيتنا، ذهبنا إلى هذا البيت، قبل أن تبدأ الحرب بثمانية أيام، كان ذلك أيضًا في كانون الثاني ١٩٩١ . كنا نخاف من الحرب وقرر أبي أن نذهب

عندها لنحتمي من الصواريخ لأن جدتي لا تخاف من الحرب والحرب لا تراها.

بيت جدتي واسع تحيط به أشجار عالية تجري بينها سواقٍ صغيرة تتقافز فيها ضفادع خضر. في البركة الصغيرة التي وراء السياج تسبح بطتان بيضاوان يتبعهما صغارهما الأربعة أو الخمسة. أنا لا أتذكر عدد البطات الصغيرة، لكنني أتذكر أنها تمشي فوق الماء ولا تتبلل.

على حافة البركة، كانت تجلس قطة رمادية اللون ليست عمياء وليست مبللة، تراقب صغار البط وتمد لسانها في الماء البارد، عندما أقترب منها تهرب بين الأشجار وتختفي.

حتى إذا كانت الدنيا باردة جدًّا، تنهض جدتي فجر كل يوم وتصلي في الظلام لأن الله يستطيع أن يراها وهي تصلي في الظلام. تتحدث جدتي مع النجوم وعندما تصعد الشمس وراء نخلاتها الأربع، تدخل المطبخ وتعد لنا الفطور، كان فطورها شهيًّا ولذيذًا، لم أتذوق مثل طعمه في حياتي كلها.

جدتي تحبني، وتدللني، وتهتم بي كثيرًا. كنت أتمنى أن تكون هي أمي وفرحت كثيرًا عندما أخبرتني سرًّا بقي بيننا إلى الآن:

- حملتك في بطني هذا، قبل أن تولد أمك منه.

في الليل، أنام معها على سريرها العريض وهو يسبح بنا في الفراغ. لم أكن أرى أحلامها، جدتي لا تحلم، عيناها ليستا خضراوين. عندما تغفو ويدها تحت خدها فهي لا تبتسم ولا تتحدث مع نفسها، هي فقط

تنام لكي تدخل النجوم من نافذتها وتدور حول صورة جدي المعلقة على الجدار لكي تحرسنا من اللصوص. أنا لا أعرف جدي وهو لا يعرفني على الرغم من أنني أحبه وأتمنى أن أراه ويراني، لكنه موجود في الصورة منذ زمن بعيد وبقي فيها وهو ينظر إلينا من دون أن يقول كلمة واحدة. في أول مرة رأيت فيها صورته، قلت لجدتي من هذا؟ قالت لي: هذا هارون الرشيد، فضحكت خالتي، وضحك أبي، وضحكت أمي، ولم أضحك أنا؛ بعد قليل قال لي أبي: هذا جدك.

بعيدًا من البيت، في الجانب الآخر من البستان، تدور ساعات خشبية كبيرة اسمها النواعير، تأخذ الماء من النهر وتسكبه في السواقي. النواعير قريبة من النهر، لكنني لم أر النهر، على الرغم من أنه كان قريبًا من البيت. في الليل تأتيني من النهر رائحة الأسماك الصغيرة وأغاني الناس الذين غرقوا في قديم الزمان.

نادية أيضًا، لم تر النهر في حياتها. مرة كنا أنا وهي نركض في الساحة الداخلية للمدرسة وكانت تغني:

ـ عبرت الشط على مودك.

جاءت صديقتنا مروة وقالت لنا:

ـ الشط يعني النهر.

بعد أيام، ذهبت نادية مع أهلها إلى بيت أقاربها في جانب الرصافة من مدينة بغداد، عبرت سيارتهم فوق النهر، شاهدت جسورًا ميتة قتلتها الطائرات، شاهدت الموجات والسمكات والقوارب الصغيرة، تنفست

رائحة النهر وأحبتها. في تلك الليلة، حلمت أن حقيبتها سقطت في الماء وأخذتها الموجات بعيدًا فجاء طائر أبيض وسرقها، قالت لها مروة في ساحة المدرسة:

- أنت تكذبين، الطيور لا تسرق الحقائب لأنها لا تقرأ ولا تكتب.

- نادية لا تكذب، أنا شاهدت ذلك أيضًا في حلمها.

- كيف تشاهدين حلمها؟ أنت الأخرى تكذبين مثلها.

(٤)

في الصف الرابع الابتدائي صرت طويلة، أطول من نادية، لكن عينيّ ليستا خضراوين، بقي لونهما كما كان حين كنت صغيرة، لم تكن أمي تكذب حينها، لقد كبرت أنا وتركتهما كما هما، أمي لم تكن تكذب، أنا غيرت رأيي، لا أريد أن تكون عيناي خضراوين. الأعين الخضر ترى العالم كما نراه نحن، نادية لا ترى كل شيء أخضر، أنا لست خضراء، بيتنا ليس أخضر، السماء ليست خضراء لكن الأشجار خضر والعشب أخضر.

أنا أطول من نادية، أرى الأشياء من بعيد، والأشياء التي لا أراها أتخيلها، وإذا أردتم الحقيقة، أنا أحب الأشياء التي أتخيلها أكثر من الأشياء التي أراها، وعندما قررت في أحد الأيام أن أرى نهر دجلة، صعدت سلم البيت إلى السطح لأن النهر كان بعيدًا، فنحن عندما نصعد

فوق سطح البيت نرى الأشياء البعيدة. وقفت فوق خزان المياه في الطابق الثاني، درت في كل الاتجاهات لكنني لم أر نهر دجلة ولا أي نهر آخر، رأيت جسورًا كثيرة وبنايات وأشجارًا عالية وطيورًا تحلق في السماء.

قبل أن أنسى، دعوني أصف لكم ما رأيت أيضًا في ذلك المساء، رأيت محيطًا هائلًا من الفراغ ليس له نهاية، في هذا المحيط الشاسع من الآفاق المترامية الأطراف تحت شمس الغروب شاهدت محلتنا كأنها سفينة ترسو عند شاطئ المحيط، سفينة عملاقة يتوسطها برج المأمون مثل شراعها العالي وساعة بغداد كانت تشبه المرساة الملقاة على رصيف الميناء وبرج الزوراء هو مثل قمرة قيادة هذه السفينة.

فكرت مع نفسي: في يوم ما، عندما تتحرك هذه السفينة من مكانها وتنفث بخارها الأبيض في السماء، ستجأر محركاتها العملاقة، ثم تدوّي في أرجائها إشارة الانطلاق، ويصعد الجميع على متنها في رحلة طويلة نحو جزيرة الأمان، نحو مرافئ لم يصلها أحد من قبل. ستبتعد هذه السفينة وتبتعد وتبتعد حتى يتلاشى أثرها وراء ضباب كثيف من النسيان.

نسيت أن أخبركم عن أمر آخر، أنني وقبل أيام، كنت أخرج من باب المدرسة بعد نهاية الدوام، كان ذلك في شهر شباط، عندما سمعت موسيقى عالية تنطلق في السماء، موسيقى أتصور أن أغلبكم كان يسمعها في تلك الأيام من التلفزيون أو من الراديو.

- تن تن تنْ تنْ... تن تن تن تن.

هل تتذكرونها؟ أنا أتذكرها، أنا لا أعرف كم هو عمركم الآن، ولكن إذا كنتم في بغداد عام ١٩٩٤ ستتذكرونها، كل من كان في بغداد عام ١٩٩٤ سيتذكرها.

بعد أسبوع أو أكثر، أخذونا من المدرسة في رحلة إلى بناية الساعة الجديدة التي اسمها (ساعة بغداد)، تجولنا في القاعات والحدائق، ثم أخذونا إلى المتحف الذي فيه واجهات زجاجية نظيفة، يعرضون فيها هدايا يقدمها الناس إلى رئيس الجمهورية، يقدمون إليه سيوفًا تراثية وبنادق قديمة ولوحات فنية ويكتبون له قصائد عن سيرته. شاهدنا منحوتات وأختامًا صغيرة من الطين تحكي قصصًا عن الناس القدماء الذين عاشوا قبلنا بآلاف السنين في العراق.

أحدهم رسم صورة كبيرة للرئيس ومعها صورة أكبر لهارون الرشيد، قلت للمعلمة: هارون الرشيد جدي، قالت المعلمة: أعرف ذلك، إنه يشبهك، وضحكت من كل قلبها.

بعض النساء الفقيرات، ليس لديهن ما يقدمنه هدية إلى الرئيس، قصصن ضفائرهن وكتبن عليها أسماءهن ووضعنها في المتحف، أنا لا أعرف ماذا يفعل الرئيس بضفائر النساء.

دقت الساعة العاشرة صباحًا، وكان صوتها عاليًا هذه المرة:

بين الشعب وبينك... عهد وشفته بعينك.

وقفنا في حديقتها الأمامية صفًّا واحدًا نلتقط صورة تذكارية تحت الساعة العاشرة وعشر دقائق. هذه الصورة، ستبقى هي الصورة الوحيدة

التي تجمعنا بالترتيب، أنا ونادية وأحمد وفاروق وبيداء ومروة ووجدان وريتا ومناف مع بقية طلاب صفنا.

إلى يمين الصورة، كانت ست نجاح تقف بشعرها الأشقر وقميصها الأحمر وهي تضع كفها على كتفي وتبتسم للكاميرا، كم أحب ست نجاح، وأحب أن تضع يدها على كتفي دائمًا، هي معلمة طيبة تحبنا كلنا وتضحك معنا، وعندما يأتي زوجها الذي يلبس ملابس الطيارين بسيارته البيضاء وينتظرها عند باب المدرسة، نسلم عليه فيضحك هو الآخر معنا.

حلمت نادية أنها تركض في حديقة ساعة بغداد، تعثرت قدمها وسقطت على العشب وانخدشت ساقها، جاء أحمد نحوها، أخرج منديله من جيبه وجلس يشد المنديل على مكان الجرح، هل كان ذلك حلمًا أم أنه حقيقة ونسيتها أنا؟

في يوم من الأيام، كنا نذهب إلى المدرسة وكان ذلك في شهر شباط أيضًا، شاهدنا فاروق وهو يرتدي بنطالًا من الجينز وقميصًا أبيض وحذاءً رياضيًّا من دون أن يحمل معه حقيبة المدرسة، كان منظره هذا غريبًا بعض الشيء، قال لنا إنه سيأخذ هذا اليوم إجازة من المدرسة، أبوه سيسافر بعيدًا.

جاء أحمد بعد قليل على دراجته وهو يبتسم ويغني مع نفسه، التفت إلى نادية وقال لها:

ـ عندي قطة عيونها خضر.

ـ كذاب ما عندك.

أخرجت نادية طبشورًا من حقيبتها وكتبت على جدار المدرسة بحروف كبيرة:

سَرَقَ أحمدُ قِطَتَنا.

بعد سنوات من الآن، سنمر أنا ونادية بهذا المكان، إلى جانب هذا الجدار نفسه، ونقرأ اسم أحمد، سنتذكره ونضحك. الكلمات التي نكتبها على حائط المدرسة بالطباشير تبقى إلى الأبد لكي نتذكرها ونضحك.

في هذا اليوم نفسه، جاءت ست نجاح إلى صفنا ووزعت بيننا صورتنا الجماعية أمام ساعة بغداد، ضحكنا من مروة، لأنها تظهر خلف كتف أحمد مثل ياسمينة في مسلسل السندباد، اكتشفنا في هذه الصورة، أن الساعة كانت تبتسم لنا، قالت بيداء: إنها تضحك علينا، فضحكت ست نجاح أيضًا.

(٥)

في الليل وقبل أن أنام، فكرت مع نفسي في ساعة بغداد، كيف تقف لوحدها في هذا الظلام من دون أن تخاف؟ تخيلتها وهي تحني رقبتها على كتفها وتغفو، ولكن على أيّ جهة كانت تنام؟ متى تستيقظ؟ هل تشعر بالتعب مثلنا؟ هل لديها أوقات فراغ؟

نام أهلي وأطفئت الأنوار في البيت، نهضت من سريري، ارتديت معطفًا طويلًا من خزانة أمي، مشيت على أطراف أصابعي حتى باب

البيت الخارجي، سبقتني قطة بيضاء ليست عمياء وليست مبللة نطت من فوق الباب نحو الرصيف، تجاهلتها وفتحت الباب بهدوء وخرجت إلى الشارع.

عندما وصلت إلى رأس الشارع، سمعت صوت سيارة تقترب مني يسبقها ضوء مصابيحها الأمامية، لصقت جسدي على الفور بجدار الدكان، تجاوزتني السيارة وهي تنعطف في الطريق المحاذي لمدرستنا، الطريق نفسه الذي وجدنا فيه أنا ونادية القطة العمياء المبللة.

بعدها بلحظات، ساد صمت عميق في كل الاتجاهات، تقدمت نحو جهة الشارع العام من الجانب الآخر ومشيت باتجاه بناية الساعة.

في منتصف الطريق ترددت، قررت أن أعود إلى البيت وأنام، لكنني لا أدري لماذا واصلت سيري في هذا الظلام وأنا لوحدي. بعض الأحيان نفكر في شيء ما ونتصرف عكسه تمامًا.

وصلت إلى بناية الساعة، في الليل تكون الساعة أجمل مما هي عليه في النهار، وعندما ندور حولها نستطيع أن نراها من كل مكان، لأنها في الحقيقة ليست ساعة واحدة، هي أربع ساعات مربعة الشكل، كل واحدة منها في جهة، لا أدري لماذا لا يسمونها (ساعات بغداد) ما داموا يضعون أمام كل واحدة مصباحًا كبيرًا على الأرض.

كان العقرب القصير عند الرقم (١) والعقرب الطويل عند الرقم (٩)، في هذا الوقت، كانت نادية تحلم، هي في العادة تحلم في هذا

الوقت، كنت أتمنى أن أحمل الساعة وأدخلها في حلمها لكن الحلم كان قصيرًا والساعة طويلة.

مشيت قريبًا من البناية، التي تشكل نجمة بثمانية أضلاع، ويقف فوقها البرج الطويل الذي نشاهده من بعيد، تراجعت إلى الوراء وجلست على الأرض، جلست خلف المصابيح الكبيرة التي يصدر عنها الضوء.

- تك، تك، تك، تك، تك.

ما فائدة الوقت إن لم يسمع أحدهم صوت حركة بندول الثواني؟ كنت أحب أن أتحدث إلى هذا العقرب النحيف الذي يتراجع نصف خطوة للوراء، ثم يتقدم خطوة نحو الأمام وهو سعيد بذلك.

قلت مع نفسي، لماذا يعد الثواني الصغيرة التي لا يستخدمها الناس؟ ثم سألته:

- من يهتم للثواني في هذا الوقت والناس ينامون وأنت لا تتعب؟

- سأتعب يومًا ما وأتوقف إلى الأبد.

- متى يكون ذلك؟

- عندما لن تعود هناك سفينة ترسو في هذا المحيط الواسع من الظلام.

بقي عقرب الساعة الصغير متوقفًا عند الرقم (١) والكبير صار عند الرقم (١٢)، نهضت من مكاني، نظفت ملابسي من بقايا آثار

العشب الرطب، تلفت من حولي، ثم ركضت مسرعة نحو الشارع العام تطاردني أضواء خافتة لسيارة بعيدة، دارت السيارة فجأة نحو اليسار وعاد الظلام يغطي العالم. رأيت جنديًا يحمل بندقية ويحرس المكان لكنه كان ينظر في الجهة الأخرى ولم يرني.

وأنا في طريق العودة، رأيت أمامي مقدمة سفينة عملاقة يتوسطها برج المأمون مثل سارية طويت أشرعتها، من فتحة صغيرة في جانبها، دخلت ممراتها المظلمة وتجولت فيها بحثًا عن أقصر الطرق نحو الحافة المحاذية للمياه، التي يصلني صوت تدافع أمواجها ويصيبني بدوار شديد يكاد يفقدني توازني ويلقيني على الأرض. أنا أسمع صوت الأمواج ويجب أن يصدقني الجميع عندما أحكي لهم عن رحلتي داخل السفينة.

أنا لا أكذب، سأقول لكم ما أراه أو ما أتخيله. لما كنت أتجول في السفينة كنت أفكر مع نفسي، هل عليّ أن أخبركم في ما كنت أفكر؟ لأن أغلب الناس يصدقون فقط الأشياء التي تدخل عقولهم، هم لا يعرفون الأشياء التي لا تدخل عقولهم.

جاء القبطان، وكان شبه نائم في هذه الساعة وسألني:

ـ ماذا تفعلين هنا في مثل هذا الوقت؟

قلت له:

ـ أنا أحب أن أركب السفينة وأسافر بعيدًا.

ـ لكنك ولدت عليها وإذا أحببت أن تسافري يجب أن تنزلي منها، قال ذلك ثم ذهب باتجاه غرفة القيادة لينام، ركضت خلفه وناديت عليه:

ـ من أنت؟ أنا لم أرك من قبل في محلتنا ولا أعرفك شخصيًّا مع أنني أعرف كل الناس في هذا المكان، أشار إليّ بيده أن أنتظره ودخل غرفة القيادة ثم خرج ومعه إبريق من الشاي، أدار لي كوبًا صغيرًا وأدار لنفسه واحدًا آخر وجلس إلى مصطبة صغيرة ونظر في وجهي وهو يقول: أين نحن الآن؟

قلت له: نحن على ظهر السفينة.

فقال لي: هل هناك سفينة من دون قبطان.

قلت له: لا أعرف.

فقال لي: هل هناك سيارة تمشي من دون سائق؟

فقلت له: لا.

فقال لي: أنا السائق، أنا من يقود هذه السفينة.

قلت له: لكن هذه السفينة لا تتحرك.

ضحك وقال لي: أنا سائق السفينة التي لا تتحرك، مهمتي الوحيدة هي أن أجعلها لا تتحرك.

فقلت له: ما فائدة السفينة التي لا تتحرك.

شرب شايه وأدار قدحًا جديدًا لنفسه وقال: إنها متوقفة هنا لكي ينزل منها المسافرون.

قلت له: وأين ستذهب أنت إذا نزل منها الجميع.

وقف يحمل قدح الشاي وراح يتكئ على حافة السفينة وهو ينظر نحو ظلام المحيط الذي ليس له نهاية وقال كأنه يتحدث إلى شخص آخر:

- اسمعي يا عزيزتي، السفينة فكرة في رأسك وأنا فكرة في رأس السفينة، الأفكار الصغيرة غالبًا ما تكون لديها أجنحة خفيفة وعندما تفقد جدواها على الأرض تطير في الفضاء، العالم الذي نعيش فيه هو مجرد فكرة صنعها خيال مبدع خلاق وعندما وجدها فكرة معقدة راح يشرحها من خلال أفكار أخرى لكنها أفكار صغيرة، وهكذا بعد ملايين السنين امتلأت السماء بالأفكار التي تطير بأجنحة خفيفة، إن كل ما تقع عليه أعيننا هو مجرد فكرة، لا شيء حقيقيًا في الواقع، كلنا مسجونون في خيالنا وأن تجاربنا على أرض الواقع هي عبارة عن أفكار فقط، الوجود كله مجموعة من الأفكار، هذه هي الحقيقة الوحيدة، لا تصدقي غيرها ولا تخبري أحدًا بها، لأن الناس لا يصدقون الأشياء التي لا تدخل عقولهم وهم لا يعرفون أين تقع عقولهم، لم يسألوا أنفسهم يومًا هل هم حقًا يمتلكون شيئًا اسمه العقل؟ كيف شكله؟ ما لونه؟ العقل يا صغيرتي هو الآخر فكرة، فكرة معقدة تجعل من الأفكار الأخرى كأنها حقائق.

لم أفهم كلام القبطان، على الرغم من أنه كان يتحدث إليّ بصدق،

أنا بطبيعتي أعرف الناس الذين يقولون الصدق، أحيانًا هناك كلام لا نفهمه، لكننا نعرف المعنى ليس من خلال الكلمات، بل لأن المعنى موجود في داخلنا قبل أن يحدثنا عنه الآخرون. بعض المعاني موجودة في داخلنا لكنها نائمة لأننا لم نوقظها من قبل، فتأتي الكلمات التي لا نفهمها وتوقظها.

في كثير من الأوقات، عندما أكون لوحدي على سريري قبل النوم، أقول في نفسي: لماذا لا أحلم مثل نادية؟ ثم أفكر قليلًا وأعود لأقول: ربما أنا أحلم أيضًا لكنني لا أدري أنني أحلم، ربما أنا حلم طويل في رأس أحدهم نام ولم يستيقظ، إنه يحلم حياتي كلها.

هل أنا حلم أم فكرة كما يقول القبطان؟ وما الفرق بين الحلم والفكرة، هل يجب أن أفرح إذا كانت حياتي مجرد حلم في رأس أحدهم؟

تركت القبطان من دون أن أودعه لأنه تجاهلني واستمر ينظر نحو ظلام المحيط الذي ليس له نهاية ويتحدث من دون أن يلتفت إليّ.

في نهاية الممر الطويل، شاهدت أمامي الملجأ الذي كنا ننام في داخله هربًا من الحرب في كانون الثاني ١٩٩١، فكرت أن أدخل إليه، لكنني تراجعت عن فكرتي، شعرت بالخوف وبدأ قلبي يخفق بقوة.

ركضت مسرعة نحو شارعنا، دفعت بابنا ودخلت البيت بهدوء أمشي على أطراف أصابعي، قفزت القطة البيضاء أمامي ثانية وتوارت بين الأشجار الكثيفة في الزاوية البعيدة من الحديقة، تركت الباب

الداخلي نصف مفتوح، صعدت السلّم إلى غرفتي، جلست على سريري أقود السفينة نحو البعيد مثل قبطان شجاع تواجهها عواصف ممطرة وتعبث بأشرعتها رياح عاتية، عندما أشرقت الشمس من النافذة، كانت العواصف قد هدأت، وتراجعت الأمواج إلى الوراء وتوقفت السفينة في الميناء، وكان ذلك بسبب قيادة القبطان الحكيمة.

(٦)

يكون الهواء في الربيع منعشًا ويصبح النهار أطول قليلًا، نتخلص من الملابس الثقيلة ونشعر أننا صرنا خفيفين. يخرج الأولاد بدراجاتهم الهوائية التي ينطلقون بها بسرعة للسباق، ويطلقون بمرح أصوات أجراس المنبهات الصغيرة المثبتة على مقود الدراجات.

تخرج الأمهات والآباء إلى الحدائق ونخرج نحن نلعب على الرصيف.

يرش أبو بيداء حديقة البيت بالماء فينتشر عبق الروائح المنعشة في كل مكان. ترش أم ريتا عتبة بابهم لتصعد رائحة الأرض وتهب عليها نسائم آخر الربيع، أنا مثلكم أحب رائحة التراب حين تنزل عليه قطرات الماء، وأنا مثلكم أيضًا لا أعرف لماذا أحبها.

من وراء الشبابيك تأتي رائحة الشواء، أو طهو البطاطا المقلية بالدهن من بيت أم سالي فنشعر بشيء من الجوع.

فجأة، تنطلق الموسيقى من بيت أم مناف فنركض على إيقاعها وننسى أننا شعرنا بالجوع، ندخل في مهرجان الألوان التي ترتديها الفتيات وهن يرقصن في حفلة عقد قران منال، توزع أمها حلوى المهر المغلفة بمكعبات زجاجية ويرتفع صوت الأغاني وتفوح العطور في كل مكان:

عيني يا عيني عليها، يا منولة

تبجي والحنة بديها، يا منولة.

أقف بعيدًا من البنات الصغيرات، أدس رأسي الصغير بين أجساد النساء الكبيرات لأراقب نادية وهي ترقص في وسط الحديقة قريبًا من منال. الجميع يحب نادية حين ترقص ويصفقون لها، تسحبها منال إلى حضنها وتقبّلها، أنا أحسدها من كل قلبي وأقول في نفسي: كيف تعلمت أن ترقص مثل الكبيرات؟ لماذا لا تخجل منهن كما لو أنها ترقص لنفسها؟

يتعالى تصفيق البنات لها ويرتفع صوت الأغاني كثيرًا. يتسلق الأولاد سياج البيت ينظرون إلى نادية من دون أن تدري بهم، يطلق أحدهم تعليقًا وقحًا بصوت عال، تتوقف عن الرقص ويهرب الولد بعيدًا تتبعه شلة الأصدقاء، نخرج أنا وهي من الحديقة وقد أحمر خداها من الخجل.

نسمع مرة أخرى صوت أغنية جديدة تنطلق من الحديقة، نادية ترفض أن نعود إليهم ثانية، تخرج أم منال إلى باب البيت وتنادي عليها، لكنها تركض نحو بيتهم ولم تخرج في ذلك المساء.

كما أخبرتكم، أنني سأقول لكم الحقيقة، أنا أغار من نادية قليلًا، وربما كثيرًا، لأن الناس يحبونها ويهتمون بها، ونحن نحب أن يهتم الناس بنا، وإذا لم يهتم بنا أحد فإننا نكون غير موجودين. أحيانًا، عندما يتجاهلني الناس أبكي، أدخل غرفتي وأبكي. ثم أخرج وأعمل أشياء غريبة لكي ينتبه إلـيّ الآخرون. هل تعرفون ما هذه الأشياء الغريبة؟ عندما أتذكرها سأقولها لكم لأنني الآن نسيتها.

في هذا الهواء المنعش، الذي يهب على طفولتنا من الحدائق، كنت أعيش أيامي في محلتنا الصغيرة، في شوارعها ودرابينها، في حدائقها وأرصفتها.

رسمت على جدار بيت عمو شوكت قاربًا صغيرًا ونسيت أن أرسم له شراعًا، لم أكن قد رأيت في حياتي بحرًا أو محيطًا ولم أصعد في حياتي قاربًا، رأيت الغروب من فوق خزان مياه بيتنا كما أخبرتكم، مثل محيط هائل يمتد بعيدًا جدًّا حتى أبعد من بيت جدتي. في التلفزيون شاهدت السندباد ورأيت السفينة تصارع الأمواج في البحار العميقة، يضحك السندباد وتضحك ياسمينة من كل قلوبهما وهما سعيدان بوصولهما إلى الميناء.

ـ لقد وصلنا إلى الجزيرة العائمة.

في اليوم التالي، أخفيت في جيبي قطعة طباشير صغيرة، ذهبت إلى نادية وقلت لها: تعالي نرسم شراعًا للقارب الصغير.

قالت نادية:

ـ أنا أرسم الميناء والنوارس.

قلت لها:

ـ أنا أرسم الشراع.

وصلنا إلى الجدار، وقبل أن نخط عليه بالطباشير، خرج إلينا عمو شوكت وأمسك بنا ونحن نحاول أن نشخبط على حائط بيته النظيف، قرص نادية من أذنها قرصة خفيفة وطبع بأسنانه على معصمها ساعة عميقة تألمت منها قليلًا، أوشكت نادية على البكاء، اختلط الألم مع الخجل فلمعت في عينيها دمعة صغيرة، حزن هو لهذا الموقف الذي لم يكن يتوقعه.....

أخذنا من أيدينا وأدخلنا بيته يمسح دموعها، تقدمت منه باجي نادرة تلومه وتبتسم في وجهينا وهي تعتذر. في كل مرة نشاهدهما معًا، هو يعض معاصمنا وهي تلومه وتعتذر.

أنا لا أتذكر، وحتى نادية لا تتذكر، وأهلي لا يتذكرون، وأهلها لا يتذكرون متى سكن عمو شوكت مع باجي نادرة هذا البيت. البيوت التي تولد قبلنا والأشجار التي تنمو قبل أن نرى العالم، ليس لها تاريخ يتذكره الناس.

لبيتهما سياج واطئ تتسلق عليه أشجار الياس وتعلوه أغصان الشبوي لتحجب الحديقة الأمامية عن التداخل مع الشارع. ينفتح الباب الرئيسي على كراج سيارته الفولكس واغن الصفراء اللون. عند نهاية الكراج، فسحة مبلطة بالموزاييك ومفتوحة على الممر الجانبي وعلى الحديقة في الوقت نفسه. لهذا البيت وحده رائحة ذكرى مختلفة، فهو أول بيت يأتي في خيالي عندما أحاول أن أتذكر المحلة.

يربي عمو شوكت وزوجته في الحديقة الخلفية زوجين من طائر القبج، جلبتهما هي من كردستان، وعلى أحد أغصان شجرة الرمان، يتدلى قفص صغير لطائر البلبل الذي يغرد كل صباح، وأحيانًا يغرد وقت المساء، لكنه في الليل ينام. أثاث بيتهما يشبهُ تقريبًا أثاث بيوت المحلة، إلا إن الفراغات بينها مريحة.

على الجدار الموازي لطاولة الطعام، صورتهما وهما شابان أنيقان يقضيان شهر العسل في مصائف كردستان، حيث يظهر في خلفية الصورة شلال (گلي علي بيگ). المياه تتدفق من الشلال وتحفر نهرًا صغيرًا بين الصخور، النهر الصغير يجري لمسافات طويلة بين الوديان ويرمي نفسه في نهر دجلة. تحت شلال (گلي علي بيگ) كانا يبتسمان ابتسامة منعشة تذوب منها الثلوج في أعلى الجبال ويتدفق صدى أغنية تتوه في الوديان السحيقة. صورتهما الفوتوغرافية شلال من الذكرى يتدفق نحو اللانهاية بصمت.

في هذه المملكة الأليفة يعيشان، وعلى هذه الأريكة نفسها، التي جلسنا عليها أنا ونادية بعد أن مسحت دموعها وتناولنا قطعًا من الحلوى، يجلسان هما في المساء ويشاهدان برامج التلفزيون.

على الرغم من مرور مدة طويلة على زواجهما فإنهما يعيشان من دون أطفال، لم تنجب باجي نادرة طفلة تلعب معنا. أنا ونادية وكل أطفال المحلة أطفالهما، جميعنا دخلنا بيتهما وأكلنا من مطبخ باجي التي نحبها وهي تفرح بنا، تحكي لنا بلكنتها الكردية قصصًا خيالية عن الجبال الشاهقة، عن مامند وحبيبته التي سرقها وهرب بها الى قمة

الجبل وعاشا هناك بقية حياتهما، تحكي لنا عن السناجب والفلاحين وقصصًا أخرى....

«كان هناك فلاح وابنه، وكان سمع كليهما ثقيلًا، ذات صباح استيقظ الابن باكرًا، ولبس ثياب العمل، فشاهده والده وسأله: هل ستذهب لحراثة الأرض يا ولدي؟ فأجابه الابن: لا يا أبي، أنا ذاهب كي أحرث الأرض، فقال الأب: ليكن يا ولدي، فقد ظننتك ذاهبًا لتحرث الأرض!!»

ضحكنا أنا ونادية من هذه القصة الجميلة وقلنا لها باجي نريد قصة ثانية، رفعت رأسها تنظر إلى السقف لكي تتذكر:

«كانت هناك قرية صغيرة تقع على سفح جبل كبير اسمه «ايره مگرون» في هذه القرية تعيش فتاة جميلة مع أهلها، تحلم كل يوم بشاب وسيم يأتي إليها من النافذة ويحدثها وعندما تستيقظ في الصباح لا تراه، في يوم من الأيام، نزل الثلج وغطى الأرض كلها، خرجت الفتاة التي اسمها جوانا من البيت، وتسلقت سفح الجبل حتى تعبت، وجلست تفكر في هذا الشاب الذي لا تراه إلا في أحلامها، وقالت لنفسها: بما أنني لم أره في الواقع، لماذا لا أصنع له تمثالًا من الثلج، راحت تجمع الثلج من حولها حتى أصبح لديها كومة كافية، فجلست تصنع منها فتى أحلامها، بعد ساعة من العمل، صار لديها صديق له عينان كبيرتان وشعر أشقر، تمامًا مثلما كانت تراه في أحلامها، وقفت أمامه تنظر في عينيه فقال لها: أنا أحبك، خجلت جوانا وأحمر خداها وقالت له: ما اسمك، فقال لها: اسمي ماندو، فقالت له: لماذا أنت نحيف؟ فقال لها:

لأنني جائع، ابتسمت له وقالت: سوف أذهب إلى البيت وأجلب لك شيئًا من الطعام، فابتسم لها وشكرها. أسرعت جوانا تهرول فوق الثلج باتجاه بيتهم، لكنها تاهت في الطريق، لأن الثلج غطى آثار أقدامها. في هذه الأثناء أشرقت الشمس من بين الغيوم، وعندما وصلت جوانا البيت، حملت بعض الطعام وعادت تركض نحو صديقها وهي فرحة بالطعام الذي جلبته له، لكنها لم تجد أي أثر لماندو، لأن الشمس قد أذابته بحرارتها. حزنت جوانا كثيرًا وراحت تبكي ورمت الطعام على الأرض، فجاءت العصافير تأكل منه، ومنذ ذلك اليوم، تنهض جوانا كل صباح وتحمل الطعام وترميه للعصافير في المكان نفسه. لم تعد هذه الفتاة الجميلة تحب الشمس لأنها أخذت منها ماندو، في يوم من الأيام وبينما هي تحمل الطعام إلى العصافير، شاهدت الشمس تنزل قريبًا من السفح، فقالت لها: لماذا أخذت ماندو أيتها الشمس؟ فقالت لها الشمس: أنا لم آخذ ماندو، لكنه كان يحبك كثيرًا حتى ذاب من الحب وصار جدولًا»

حزنًا أنا ونادية على جوانا وماندو وحزنت معنا باجي نادرة لكنها قالت لنا: في المرة المقبلة سأحكي لكم نهاية القصة السعيدة لهذه الفتاة وهي تلتقي فتى أحلامها من جديد.

في السنوات الأخيرة، لم يعد عمو شوكت أنيقًا مثلما كان مظهره حين كنت صغيرة، حين كانت بذلته جديدة وقميصه أبيض وفوقه ربطة عنق زرقاء، لم يعد في هذه الأيام يهتم كثيرًا بملابسه، حتى ربطة عنقه أصبحت قديمة ولونها أصبح باهتًا، لم يعد يبتسم لنا كثيرًا، وعندما نلقي عليه التحية، يردها علينا ببرود من دون أن ينظر في وجوهنا.

تركت باجي نادرة وظيفتها وتفرغت للاهتمام ببيتها وزوجها، وهي تحرص كثيرًا على نظافة باب بيتها، ونظافة الرصيف والشبابيك، وتعتني بنباتات حديقتها وطيورها. أنا أحب ملابسها الكردية بألوانها الجميلة، أحب رقصاتها وأغانيها في الأفراح:

نرجس نرجس نرجس... نرجس زينار جوانا

أوي نرجس نرجس نرجس... سرك ألوني إيفانا.

بعد أيام عدة من دخولنا بيتهما أنا ونادية، استيقظت باجي مبكرًا ذات صباح، حملت حقيبتها وسافرت إلى بيت أهلها في قريتهم الجبلية، انقطعت أخبارها بعد تلك الزيارة. عندما يسأل أحد من المحلة عمو شوكت عن سبب غيابها، أحيانًا يقول إنها مريضة، وأحيانًا يقول إن أمها ماتت. ومع مرور الوقت، صار يعرف كيف يعيش لوحده، وتعود الناس على أن ينسوا باجي نادرة.

لكي أكون صادقة معكم، الناس لم ينسوها، لكنهم تعودوا على نسيانهم لغيابها، وليس على نسيانها هي شخصيًّا، هناك ناس في محلتنا وحتى في كل مكان من العالم، نسيانهم يعني أننا نتذكر غيابهم، الذي يحل محل وجودهم في حياتنا، وباجي نادرة من الناس الذين لا يمكن أن ينساهم أحد حتى إن نادية قبل أيام حلمت بها وهي تحكي لنا قصة جديدة سأرويها لكم عندما يكون الوقت مناسبًا.

(٧)

مثلما كنت أحب مدرستي في النهار، كنت أخاف من أشباحها في الليل. الأطفال كلهم يخافون من بناية المدرسة في الليل، وفي النهار يخافون من المديرة.

ذات مساء، كنا نلعب في ضوء مصباح عمود الكهرباء في شارعنا، كان ذلك في أواخر شهر حزيران، كنا على وشك أن نذهب إلى بيوتنا، عندما قالت بيداء تعالوا نذهب إلى المدرسة ونتسلق سياجها، بدت لنا هذه الفكرة غريبة في أول الأمر، لكن نادية قالت: تعالوا نذهب إلى الأولاد الذين كانوا يلعبون كرة القدم، ونخبرهم أن نتائج الامتحانات الوزارية معلقة في لوحة الإعلانات عند باب الإدارة منذ ظهر هذا اليوم، ثم نراقبهم وهم يتسلقون الجدار، نتركهم هناك ونهرب.

لم يصدق الأولاد أنفسهم حين طلبنا منهم القيام بعمل بطولي، تركوا ملعبهم الصغير وركضوا أمامنا في الحال وتقافزوا الواحد بعد الآخر فوق السياج، ثم نطوا داخل بناية المدرسة المظلمة، تركناهم وهربنا ونحن نكاد نموت من الضحك، غير أن هؤلاء الأولاد الشياطين أفسدوا علينا ضحكتنا، فقد عادوا بعد قليل، بعد أن اكتشفوا مقلبنا وهم يحملون بأيديهم أوراقًا لإعلانات قديمة رفعوها من اللوحة وقالوا لنا:

ـ هذه نتائج الامتحانات.

اندهشنا كلنا، عندما وجدنا كذبتنا ظهرت كحقيقة وانقلب الأمر ضدنا، ورحنا نتوسل إليهم أن يقولوا لنا ماذا في هذه الأوراق؟

إنها مجرد أوراق بيض فارغة! كنا نقول لهم لكنهم أصروا على أنها النتائج الوزارية، قالوا لي على سبيل المثال: أنت مكملة بدرس اللغة الإنكليزية، وقالوا لنادية أنت راسبة، ولبيداء مبروك لقد نجحت يا شاطرة، ثم قالوا لمروة نتيجتك لم تظهر لحد الآن.

توسلنا إليهم مرة بعد أخرى، أن نرى بأعيننا النتائج لكنهم رفضوا ذلك بقوة، ثم هربوا بعيدًا منا، عدنا إلى البيت والقلق يمنعنا من النوم في تلك الليلة الطويلة، يا إلهي هل حقًا أنا مكملة في درس اللغة الإنكليزية؟! حاولت أن أستذكر الأسئلة وإجاباتي عنها، لكن ذاكرتي تشوشت ونسيت كل شيء عن الامتحان، حتى إنني نسيت ما إذا كنت قد امتحنت في مادة اللغة الإنكليزية أم لا، لكنني أتذكر جيدًا، أنني امتحنت في كل المواد ولم أغب يومًا في حياتي كلها عن المدرسة.

كنت أقول لنفسي في كل مرة يملأ فيها الخوف قلبي: إنهم يكذبون، أنا لا أنسى، أنا كنت شاطرة في كل الدروس وخصوصًا درس اللغة الإنكليزية، فأنا أحفظ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف، فكيف أكون قد رسبت في هذه المادة السهلة؟! ثم كيف تكون نادية راسبة وهي من أشطر الطالبات في المدرسة؟! ولماذا لم تظهر نتيجة مروة والامتحانات كانت وزارية؟!

كنت أريد أن أنهض من سريري وأخرج إلى الشارع، لقد اختنقت من هذا الهواء الجاف الذي يحرمني من النوم، كانت الكهرباء قد انقطعت في هذه اللحظة، في هذه الأيام صارت الكهرباء تنقطع كثيرًا، نهضت من سريري وذهبت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة وشربت الكثير

من الماء، ولما عدت إلى السرير نمت في الحال من دون أن أفكر ثانية في النتائج.

طرقت نادية باب بيتنا في صباح اليوم التالي وهي ترتدي زي المدرسة، وقالت لأمي: إن النتائج ظهرت ويجب أن نذهب لتسلمها، قالت لها أمي: أنت تحلمين، ليس هذا وقت ظهور النتائج الوزارية، سمعت ذلك الحديث بينهما من وراء الباب وعدت إلى نومي، لكن أمي لم تستطع العودة إلى النوم، أعدت لنا الفطور وقبل أن توقظنا، ذهبت إلى المدرسة بنفسها وعادت وهي تنادي علـيّ: انهضي أيتها الكسولة النائمة، لقد نجحت بمعدل ٩٣ في المئة، ظننت حينها أنها تمزح، ولكن بعد أن تأكدت، قفزت إليها من سريري أقبل وجهها ثم نهض أبي وقبلني، كانت هذه أول مرة يقبلني فيها أبي بمناسبة النجاح من دون أن يحملني بيديه من الفرح، لقد أصبحت كبيرة ويداه نحيفتان. لماذا يا أبي؟ أنا لم أكبر بعد، حتى لو كبرت أريدك أن تحملني وتدور بي في الصالة، أريدك أن ترميني في الهواء وأبقى حياتي كلها معلقة في الفراغ تنتظرني يداك وتحميني من السقوط على الأرض، أنا زعلت كثيرًا منك، لكنني لم أقل لك ذلك حينها، كنت أخجل أن أقولها أمامك، لأنك كنت تحسبني صرت كبيرة. بين يديك يا أبي أنا صغيرة حتى عندما أكون في الثلاثين من عمري، أنا دائمًا صغيرة ومعلقة في الهواء قريبة من يديك.

لقد نجحت، ونجحت نادية، ونجحت بيداء ومروة، التقينا في حديقة بيت بيداء ونحن نضحك من الأولاد الذين كانوا نائمين إلى هذه الساعة، ولم يعرفوا بعد أن النتائج الوزارية قد ظهرت حقًا، بعد قليل،

خرجنا وطرقنا باب بيت أحمد وقلنا له لقد نجحنا، أما أنت فاذهب إلى المدرسة، وسترى من الذي رسب بدرس الإنكليزي يا شاطر، وفعلنا ذلك مع فاروق ونزار ومناف وباقي الأولاد، بعد ساعة امتلأت المحلة بالفرح، لقد نجح الجميع.

كان ذلك النهار نهارًا مميزًا لا يمكن أن أنساه، للأسف الشديد، اجتمع فيه الفرح والحزن. الأفراح في محلتنا لا تدوم طويلًا. في هذا اليوم نفسه، بعد أن تسلم نزار نتيجة الامتحان، كانت تقف في بابهم سيارة كبيرة سوداء اللون نوع شوفرليه، سنتعود عليها في ما بعد، إنهم في هذه الساعة يتركون بيتهم، ويهاجرون إلى خارج العراق ولن نراهم بعد هذا اليوم.

لم أكن أعرف وقتها معنى أن تهاجر عائلة من المحلة، لم نكن قد تعودنا على مثل ذلك، لم يكن الحصار قاسيًا بالدرجة التي سيكون عليها بعد سنوات من الآن.

أمس، سمعت أمي بالمصادفة تتحدث إلى أم نادية عن الحصار، لكنني لم أصغ إليهما جيدًا، لقد سمعت كثيرًا هذه الأيام كلمة الحصار وكرهتها، بسبب هذه الكلمة وحدها يجب ألّا نطلب من أهلنا الكثير، وأن نتحمل مزاجهم. بسبب الحصار فقدت أمي الراحة التي تعودت عليها وصارت تشكو الملل، ولا تحب أن نطلب منها شيئًا، حتى إذا كان ذلك الشيء بسيطًا ولا يكلفها سوى كلمة واحدة، تخيلوا أن أمي صارت تتعب حتى من كلمة واحدة. أصبح أبي كثير الصمت ويسرح في أغلب الأوقات وهو يتأمل سقف الصالة كأنه يشاهد المروحة للمرة

الأولى. صار خروجنا من البيت قليلًا، لم نذهب في هذا الصيف إلى بحيرة الحبانية، ولم نخرج في نزهات بعيدة.

تحركت السيارة السوداء، بقي بيت أبو نزار فارغًا وسريعًا ما علاه الغبار وأصبحت أشجارهم كئيبة، على باب بيتهم تلتف سلسلة حديدية طويلة يسبب منظرها الحزن. لقد هاجروا بالفعل، ففي إمكانك أن تعرف أنهم لن يعودوا، فقط من منظر الأشجار وكآبة الجدران.

خلال أيام قليلة، صار البيت قديمًا تتحرك فيه أشباح مخيفة، حتى نحن صرنا نخاف أن نقترب منه، لكن القطط لا تخاف، فهي تقفز فوق السياج ثم تنزل وتتجول في البيت بحريتها، لقد أصبح بيت أم نزار بيتًا للقطط الغريبة والأشباح.

في العطلة الصيفية نفسها، ليس بيت أم نزار وحده من هاجر من المحلة، بيت أم علي وبيت أم سالي هاجرا أيضًا، ثم تبعهم بيت أم ريتا، أصبح مشهد الدموع والتوديع عاديًا، في كل مرة، نقف نودع صديقة تسافر مع أهلها من دون أمل في أن نراها ثانية.

إنه الموت من نوع آخر تقول أمي: أن يختفي أحد ما من حياتك وليس لديك أمل في اللقاء به ثانية، وهذا يعني من وجهة نظرها أن أحدكم بالنسبة إلى الآخر قد مات. أمي دائمًا تجعل الأمور أكثر تعقيدًا وكل شيء عندها مرتبط بالموت.

الموت هو الغياب الطويل الذي لا لقاء بعده، قد يذهب الميت إلى الجنة لكن الذي يهاجر من بلده فإن الجحيم تذهب وراءه.

في بداية الأمر، كانت الأمهات يجلسن عند الأبواب في ساعة حزن رهيبة عندما تترك عائلة من المحلة بيتها في هجرة طويلة، فيتذكرن الجيران الذين غادروا، منذ أول يوم لوجودهم في الشارع، حتى آخر لحظة صعدوا فيها السيارة، لكننا الآن أصبحنا معتادين على ذلك.

عندما نشاهد عائلة تصعد سيارة الشوفرليه السوداء الكبيرة، نعرف أنها مهاجرة من منظر الحقائب التي ترزم فوق سقف هذه السيارة، يتوقف الجميع لوداعهم وينتهي كل شيء. إن الناس يتعودون بسرعة على التكيف مع الأشياء الحزينة إذا تكررت وأصبحت عادة طبيعية متوقعة، الحزن الشديد يأتي من الأشياء التي لا نتوقعها، لذلك كان الحزن في البداية شديدًا على الذين هاجروا أولًا، لكن هذا لا يعني أننا عندما نمر على البيوت المهجورة ونتذكر أهلها لا نحزن، على العكس تمامًا، يكون الحزن أكثر عمقًا وألمًا، وحتى أكثر دموعًا من لحظة الوداع نفسها، ليس لأننا نفتقد الناس الذين نحبهم، بل نتألم لمنظر بيوتهم الجميلة وقد أصبحت غابات صغيرة من الدخان.

كنا في شهر تشرين الأول، في السنة الأولى من الثانوية، لقد تغيرت أمور كثيرة في حياتنا، يجب أن تكون هناك مسافة مناسبة بيننا وبين الأولاد الذين كبرنا معهم، ويجب ألّا نضحك بصوت مسموع في الشارع، ولا نكتب على الجدران، كنا نمر أنا ونادية أمام بيوت الجيران الذين هاجروا، وعندما نرى أوراق الأشجار اليابسة في حديقتهم نشعر بالألم، تتمنى كل واحدة منا، أن تتحول إلى غيمة كبيرة وتنزل مطرًا نظيفًا يغسل هذه الأوراق من الغبار.

أحيانًا، تدفعني رغبة عميقة، أقترب من بيت أم سالي وأطرق الباب، أعرف أنهم لم يعودوا في بيتهم، لكنني أحب أن أطرق الباب، هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله كي أتذكرهم وأشعر أنهم لم يغيبوا من حياتي، أنظر من فتحة الباب إلى كراج البيت، أتخيل خطواتهم في المَمرات وأسمع أصواتهم وهي جامدة على الجدران، أرى ابتساماتهم تلتصق بالنوافذ وأفرح بها، أرى آثار إطارات سيارتهم مطبوعة على البلاط، وأسمع صوت أزيز المحرك وهو ينفث بخارًا أبيض ثم يدوي.

لمّا كنت صغيرة وكان أبي بعيدًا من البيت، وقعت مرة من السلم، وسال الدم من أنفي، حملتني أمي وهي تجري مسرعة نحو المستوصف الحكومي في المحلة المجاورة، خرج أبو سالي من بيتهم وشاهدها تبكي، دخل بسرعة وأدار محرك سيارته، وانطلق في أثرنا وأخذنا إلى الطبيب، كم أتمنى في هذه اللحظة، أن ينخدش أنفي مرة أخرى، أريد أن يأخذني أبو سالي إلى الطبيب وهو يحملني بين يديه، لقد اشتقت إليهم، اشتقت إلى أم سالي وسالي وسندس وسوسن وسهير وسولاف، اشتقت إلى أن ينخدش أنفي مرة أخرى.

مثلما قلت لكم، أنا أحب أن يهتم الآخرون بي حتى لو انخدش أنفي وسال منه الدم.

نزلت دمعتي في باب بيتهم، وواصلت طريقي من دون أن أتحدث إلى نادية بكلمة واحدة، في اللحظات التي أكون فيها حزينة، لا أحب أن أتحدث إلى أحد، نادية تعرف هذا ولا تزعل مني.

لم يستمر صمتي طويلًا، جاءت ملائكة، الشيطانة كما كانت نادية تسميها حين كانت معنا في الملجأ عام ١٩٩١، اقتربت منا ومن دون مقدمات قالت لنا:

ـ آني تركت المدرسة.

ـ ليش؟!

سألتها أنا ونادية في الوقت نفسه.

ـ تركت المدرسة، هذا آخر يوم لي فيها، سأحرق كتبي ودفاتري في التنور، أمي تطلقت البارحة، طردها أبي من البيت، سنبقى أنا وأختي الصغيرة معه.

ـ لماذا لم تذهبا أنت وأختك مع ماما؟ سألتها نادية.

ـ أمي شريرة، أجابت بشهقة عميقة وراحت تبكي.

ـ كيف تقولين هذا عن أمك؟!

ـ لأن أبي طيب ومسكين ولا يعرف عنها شيئًا، وواصلت البكاء.

وقفنا أنا ونادية مستغربتين من هذا الكلام، نظرت إلينا الشيطانة وهي تتهيأ لتقول شيئًا آخر فكرت فيه جيدًا في رأسها:

ـ أعرف أنكما تكرهانني منذ تلك الساعة التي رأيتكما فيها في الملجأ، أنتما سعيدتان لأن أمي تخون أبي مع رجل غريب، لكنني أكرهكما أيضًا.

ثم تركتنا وهي تردد بصوت عالٍ:

ـ آني شيطانة مو؟ آني أكره كل الجيران، كلكم شياطين.

(٨)

في أحد أيام الشتاء، لا أتذكر بالضبط في أي شهر، وفي أيّ سنة حدث ذلك، لكننا على الأغلب كنا في الصف الرابع الثانوي، بعد ليلة شديدة المطر، انبسط الضباب الكثيف على محلتنا في الصباح، وصار مثل شال نظيف يمنع رؤية الأشياء، تتمرأى خلفه البيوت والأشجار، وتتحرك عليه العصافير وهي تشبه نقاطًا صغيرة من الحبر.

ظهر أمامنا أحمد وهو يقف على دراجته في رأس الشارع، لما اقتربنا منه على بعد خطوات قليلة، تقدم إلى نادية بخجل وفي عينيه نعاس ثقيل من دون أن يقول لنا صباح الخير، وضع بين يديها ورقة مطوية بعناية، أدار دراجته في الاتجاه الآخر وانطلق بها مسرعًا وهو يختفي في الضباب.

لم تكن نادية تتوقع هذه المفاجأة، أو ربما كانت تتوقعها وأنا لا أعرف ذلك.

فتحت الورقة وراحت تشم عطرها وتقرؤها بهمس لنفسها ثم التفتت إليّ وقالت:

ـ هذا أحمد مجنون!

ـ ليش مجنون؟!

ـ يگول آني أحبك من أيام الابتدائية.

عاشت يومها هذا وهي تفقد شعورها تدريجًا بثقل العالم من

حولها، صارت تسرح عني ولا تنتبه إلى ما أقوله، حتى لو كنت أتحدث في أمر مهم.

هذه أول مرة تشعر فيها نادية أن طفولتها أصبحت تختفي وراء جدار كثيف من الضباب، تغيرت هذا اليوم كثيرًا، كما لو أنها نادية أخرى لا أعرفها، كنت أريد أن أدخل قلبها وأجرب الحب، ولكن لا يمكننا أن نستعمل قلوب غيرنا لنحب بها.

قرأت رسالة أحمد مرات عدة ونحن في الطريق، قربتها من أنفها وهي تتنفس عطرها، حاولت غير مرة أن تمزقها، لكنها كانت تغير رأيها في اللحظة الأخيرة.

في البيت، عندما رجعنا من المدرسة، قبل أن تغير ملابسها وتتناول طعام الغداء مع أهلها، وقفت أمام المرآة الطويلة في غرفة نوم الأم وتحسست جسدها بسرية من دون أن يراها أحد.

خرجت إلى الحديقة تجلس لوحدها تحت شمس الشتاء اللذيذة وهي تبتسم، هبت عليها نسائم رقيقة وحركت أوراق الأشجار فتدحرجت منها قطرات المطر العالقة فوقها منذ الليلة الماضية، نهضت من مكانها وقطفت وردة جوري حمراء اللون ونثرت أوراقها في الهواء، تخيلت وجه أحمد الطفولي وعينيه الصفراوين وأنفه المدبب، تنفست عطره الذي تركه على الورقة وتصاعدت أنفاسها، امتلأ صدرها بهواء منعش ولطيف، دخلت البيت ووقفت أمام المرآة ثانية وهي تبتسم.

أصبحت في هذا الوقت، تخاف من جسدها، تخاف من اكتشافها المبكر لأنوثتها، قالت في نفسها، إن حاجبيها جميلان، بل هما أجمل

حاجبين تراهما عين في هذا العالم، وإن رموشها طويلة تجعل من لون عينيها قصة سحرية من الخيال، تأكدت أن خديها ورديان وأن شفتيها شهيتان، رفعت خصلة شعرها عن جبينها ثم تركتها تتهدل بنعومة، ابتعدت قليلًا عن المرآة، لفت قميصها حول خصرها ثم تركته بسرعة، كما لو أنها انتبهت إلى أنها ارتكبت خطأ غير مسموح به.

في الليل جلست تكتب لأحمد رسالة طويلة، هذه أول مرة تكتب فيها رسالة، نادية لا تحب كتابة الرسائل، حتى في درس اللغة الإنكليزية، عندما تطلب منا المدرسة كتابة رسالة لصديقة مجهولة تعيش في بلد أجنبي، تختار بدلًا من كتابة الرسالة أن تكتب عن رحلة وهمية في مدينة لندن.

وضعت رسالة أحمد مفتوحة أمامها وراحت تحاكي عباراته، كتبت له: أنا أحبك، لكنها شخبطت فوقها، حاولت أن تتذكر عبارات من الأغاني ومن المسلسلات التلفزيونية، لكنها لم تتذكر شيئًا يناسب ما كانت تريد أن تقوله بالضبط. ماذا كانت تريد أن تقول له بالضبط؟ هي تريد أن تقول له (أحبك) ولكن من دون أن تكتبها مباشرة، وأخيرًا بعد أن تعبت وشعرت بالنعاس كتبت له:

أنا فرحت كثيرًا برسالتك التي وضعت عليها عطرًا أحببته وقبل أن أنام كنت أفكر فيك، وعندما أستيقظ صباحًا سأفكر فيك أيضًا، أنت تجعلني أفكر فيك، ثم رسمت قلبًا وسهمًا ونامت.

في أول لقاء عابر معه نهار اليوم التالي، رمت عليه الرسالة بسرعة خاطفة وعادت تركض باتجاهي وهي تضحك من كل قلبها.

سحبتني وراء كشك بائع الصحف نراقب أحمد من بعيد وهو يفتح الرسالة ويقرؤها، كانت تمسك بيدي وتقفز من الفرح كلما يفتح الرسالة ويضعها في حقيبته، يتقدم خطوات قليلة إلى الأمام، يتوقف ويخرجها من الحقيبة ويعيد قراءتها، أخذتني من يدي التي كانت تمسك بها وركضنا إلى المدرسة.

في درس الجغرافية، لمحتها إلى جانبي على الرحلة، تخفي رسالته بين أوراق الكتاب وهي تعيد قراءتها مرة أخرى، كانت مشغولة بها، كأنها تكتشف عالمًا جديدًا من الكلمات لم تتعرّفه من قبل.

نظرت إليها نظرة خاطفة، لأتأكد أنها ما زالت نفسها صديقتي التي أحبها، هذه أول مرة يدخل في حياتها شخص آخر، كنت أخاف أن يسرقها الحب مني، أن يحتل أحمد مكاني في قلبها ويتقاسم معها الأحلام.

في الفسحة، وضعت يدي بيدها وتمشينا في الساحة، كانت ساهية عني، مشغولة تنظر في البعيد، لقد احتل هذا الولد روحها وصار يزيحني بعيدًا منها، إنه يشغل تفكيرها كله.

هل أصبح أحمد كل شيء في حياتها؟

قلت لها:

- نادية آني أموت عليك.

- وآنـي هم أموت عليك.

ردت عليّ ببرود، أو هكذا تخيلت أنا، لم أكن أنتظر منها هذا الجواب، كنت أتمنى أن تقول شيئًا آخر، مثلًا أن تقول لي ما مناسبة هذا الكلام؟!

فتحَت الرسالة المحشورة في الكتاب نفسه، أدارت ظهرها عني وقرأتها هذه المرة بهمس، صارت أسرار نادية تخصها وحدها، هي الآن تؤسس عالمها الشخصي بعيدًا مني، قلبها يدق دقات جديدة ورئتاها تتنفسان هواء ليس هو نفسه الهواء الذي نتنفسه سويًّا.

الحب عندما يقترح تاريخه السري يبدأ بحراسة الغموض، يقتلع الإنسان من نفسه، من أهله، من أصدقائه، من كل ما حوله ويحبسه في القلق. ربما أصبح وجودي قريبًا منها وجودًا باهتًا، فقدت خطواتها الانسجام القديم مع خطواتي، صارت مرة تتقدمني، ومرة أخرى تتخلف عني، وعندما فقدنا انسجام خطواتنا كثرت عثراتنا في الطريق.

حايرة والشوك بين عيونك... والسهر ذبل سواد عيونك

خلينا نندل الطريق النمشيه... أوله واضح خلي نعرف تاليه.

في بداية فصل الربيع من هذه السنة، ونحن نخرج من باب المدرسة بعد نهاية الدوام، تصاعدت زخات المطر التي كنا قبل قليل نسمع طرقاتها على زجاج النوافذ، كان أحمد ينتظرنا عند نهاية السياج، كان يرتدي بنطالًا من الجينز وقميصًا أبيض فوقه سترة جلدية قصيرة، تقدم نحو نادية مثل عاشق في قصص الحب التي نشاهدها في التلفزيون، ليُناولها مظلة سوداء ويختفي في الزحام.

ـ أحمد يخاف عليّ حتى من المطر.

نسيت من فرحتها أن تفتح المظلة، كانت ترفعها مطوية وتلوح بها في الهواء كأنها تقول للمطر أحبك.

نادية بالفعل تحب المطر، وتكون سعيدة عندما تنظر إلى السماء وترى الغيوم تتكثف فوقها. فهي تتوقع المطر قبل هطوله، وفي كثير من الأيام المشمسة تقول لي: إنها ستمطر غدًا، وبالفعل تتدافع الغيوم في اليوم التالي في سماء مدرستنا وينزل المطر، ليس هذه فقط، لديها أيضًا نوع من إحساس غريب بالطبيعة وتبدلاتها، فهي تراقب الطيور في السماء وتعرف مواسم الهجرات، وعندما تختفي النوارس، كانت تقول: إنها تلهو فوق سطح النهر، تعرف موسم تزاوج العصافير، وتحدد بدقة مواعيد تفتح الأزهار في الحدائق. تنشغل في كثير من الأوقات في تتبع حياة الحشرات على أوراق الأشجار، وعندما يأتي منتصف شهر آذار تقول: ستأتي الفراشات، فتأتي.

عند باب بيتهم ودعتني وانصرفت، بعد لحظات سمعت وقع خطاها وهي تلهث ورائي، التفت إليها.....

قالت لي بصوت مرتبك مع ابتسامة بلهاء:

-وين أودي المظلة؟

-جيبيها.

أخذتها منها ودخلت بيتنا.

إذا كان أحدكم يرغب في معرفة لماذا أخذت منها المظلة، فالأمر بسيط جدًّا، ولا يستحق التفكير، هو أن نادية ليس لديها جواب لأمها إذا سألتها: من أين لك هذه المظلة؟ أما أنا وفي هذه الحال فسأقول لأمي: أخذتها من نادية.

(٩)

مثلما أخبرتكم في المرة السابقة، نحن لم ننسَ باجي نادرة قطّ، لكن المطر نزل ذات مرة ومسحها من على الجدار الذي رسمتها عليه هي وعمو شوكت يجلسان على أريكة وفوقهما عصفور، عندما مررت قرب هذا الجدار بكيت كثيرًا، بكيت لأنني رأيت عمو شوكت يجلس لوحده، بينما يرفرف فوق رأسه جناح عصفور مسجون بالطباشير على الحائط، لم أتألم من أجل باجي نفسها، تألمت من شيء آخر، ربما هو الوحدة.

بعد أن اختفت من حياته لم ينسها، أو أنه ربما لم يحاول ذلك، أو حتى لم يفكر فيه، لكنه تعلم أن يعيش وحيدًا، وهو لا يهتم كثيرًا لأنه يعيش وحيدًا، لأنه تعود على ذلك...

- إنه يخاف أن يموت وحيدًا.

تقول أمي وهي تتحدث عنه أمام أبي ثم تواصل:

- من الصعب أن يموت الإنسان وحيدًا وغريبًا.

سكت أبي وراح يفكر في نفسه من دون رغبة في مواصلة الحديث معها لأن أمي دائمًا تجعل الأمور أكثر تعقيدًا وكل شيء لديها مرتبط بالموت.

أنا لم أفهم ذلك، صدقوني، لا أفهم لماذا من الصعب أن يموت الإنسان وحيدًا، بل على العكس، أنا أرى من الصعب أن يعيش الإنسان وحيدًا، لأنه عندما يموت لا يحتاج إلى أصدقاء.

في كل يوم جمعة، يستيقظ عمو شوكت من النوم متأخرًا، أحيانًا يستيقظ في التاسعة صباحًا، وأحيانًا أخرى يستيقظ في الحادية عشرة صباحًا، فمنذ أن مسحت الأمطار صورة زوجته التي رسمتها على الجدار صار وحيدًا، يتناول فطوره وحيدًا، يتمدد على الأريكة ويشاهد التلفزيون وحيدًا، وبعد دقائق يعود ويغلقه وهو وحيد، هو لا يحب أن يشاهد البرامج التي كانت تحبها باجي، لقد تغيرت حياته منذ رحيلها، حتى صورتهما المعلقة على حائط الصالة وهما تحت شلال (گلي علي بيك) لم يعد ينظر إليها حين ينظفها من الغبار، وفي آخر مرة نظر فيها إلى هذه الصورة وجد نفسه وحيدًا.

لوحده صار يجلس على حافة سلم بيته يلمع أحذيته، ثم يقوم ليجمع ملابسه من حبل الغسيل ويكويها، يرتبها في الخزانة بعد أن يختار ملابس الدوام لليوم التالي، بين ملابسه شال وردي يخص باجي نادرة وجده في الغسالة بعد مغادرتها، في كل مرة يغسل فيها ملابسه يضع معها هذا الشال، ينشره معها على حبل الغسيل ثم يكويه ويقوم بترتيبه بعناية ويعيده إلى الغسالة.

بعد أن يفعل ذلك كلّه، يخرج يتفقد حديقته الخلفية، يضع طعامًا للبلبل وطائريَ القبج. انتبه في الأيام الأخيرة إلى أن البلبل أصبح قليل الغناء وأن طائري القبج أصبحا نحيلين، صار يتحدث إليها وهو يطعمها ثم يتجاهلها وفي قلبه غصة، لاشيء يمكنه أن يفعله مع هذه الطيور، هو يعرف في قرارة نفسه أنها تشتاق إلى باجي نادرة.

يترك طعام الغداء على النار ويخرج إلى الشارع ليتفقد واحدًا من بيوت الجيران التي هاجر أهلها، فهو منذ أن غادروها منح نفسه مسؤولية الحفاظ على هذه البيوت من دون أن يشعر بالتعب. كان يدخل إلى هذه البيوت ويتنفس هواء السنوات التي عاشها مع الجيران الذين أحبهم وأصبحوا عائلته الكبيرة. إن بيوت الجيران هي مستودع ذكرياتهم، فعندما يهتم بها فهو يريد أن يقول لكل فرد عاش بين جدرانها: أنا أحبك ومشتاق إليك، هو يشتاق إلى الكبار والصغار بالدرجة نفسها.

يدفع أمامه بإحدى يديه ماكنة قص العشب بفرقعتها المزعجة، وبيده الثانية يحمل صندوقًا للعدّة اليدوية.

هذا النهار، قرر أن يعتني ببيت أم علي، أخرج من الصندوق مجموعة مفاتيح، واختار منها واحدًا وفتح القفل الذي يربط السلسلة الحديدية ودخل البيت، بعد أن قص العشب وقطع الأوراق الذابلة وأجرى الماء في الساقية، فتح الباب الداخلي ودخل إلى الصالة ثم تجول في الغرف والممرات.

في المطبخ، عثر بشكل غير متوقع على كلب أسود، يتمدد منهكًا على الأرض ولا يستطيع الحركة من شدة الجوع والعطش، قبل أن

يسأل نفسه من أين دخل هذا الكلب وكيف تسلل إلى داخل البيت وكل أبوابه ونوافذه مغلقة، حمل دلوًا صغيرًا من الماء ووضعه أمامه، خرج مسرعًا نحو بيته، تناول من ثلاجته بعض قطع اللحم والعظام وعاد ووضعها أمامه فراح يلتهمها بشراهة.

ـ كيف دخلت إلى هذا المكان؟

نظر الكلب في عينيه نظرة تستجدي العطف كأنه يقول له:

ـ لا أعرف.

ـ كنت ستموت وحيدًا لو أنني لم أدخل بالمصادفة إلى هنا.

ـ أنا لا أخاف أن أموت وحيدًا.

تقدم نحوه وربتَ على ظهره ثم حمله برفق إلى البيت، وضعه في طست صغير وراح ينظف جسده بالصابون وهو يترنم لحنًا حزينًا، نشف جسده تحت أشعة الشمس في الحديقة وراح يداعبهُ بحنان والكلب يستعيد عافيته شيئًا فشيئًا وتلمع عيناه وهو يتدحرج مرحًا على العشب.

منذ ذلك اليوم أصبح عمو شوكت لا يُشاهد في الشارع إلا بصحبة هذا الكلب، الذي أحبه وتعود عليه وصار جزءًا من منظره الخارجي، يمشي في الطريق والكلب يتبعه، يتوقف مع وقوفه، ويجلس على مؤخرته عندما ينشغل هو بالحديث مع أحد الجيران.

جاء أحد الأطفال ومسح العصفور الذي رسمته على الجدار، ورسم مكانه بالطباشير الملونة كلبًا صغيرًا يجلس تحت الأريكة التي

يجلس عليها عمو شوكت، الكلب ينظر إلى عمو شوكت وعمو شوكت يضحك (والفرق بين الابتسامة والضحكة هي أنه في الأولى يغلق فمه وفي الثانية يفتحه).

قالت أمي لأبي: لقد عثر أخيرًا على رفيق له، عنده الآن كلب صغير ولن يموت وحيدًا بعد الآن.

ـ وماذا سيفعل الكلب عندما يموت الرجل، هل سيخرج للناس ويقول لهم لقد مات؟

ـ لا... أنت لا تفهمني، الإنسان بطبعه يخاف أن يموت وحيدًا، وعندما يموت عمو شوكت سيكون الكلب موجودًا قريبًا منه وسيراقب روحه عندما تصعد إلى السماء.

ـ وإذا مات الكلب قبله؟

ـ لن يحدث هذا.

الكلب الأسود الذي عثر عليه في بيت أم علي، هو من النوع الذي يتحدث لغة الإشارات ويفهمها، كما لو أنها لغته الفطرية الأولى، استغل عمو شوكت هذه الغريزة وراح يتدرب عليها ليتفاهم مع (برياد) وهذا هو الاسم الذي أطلقه عليه تيمنًا باسم كلب أليف كان يعيش في بيت جده في قريته التركمانية بمدينة كركوك، قبل نصف قرن من الآن.

صار برياد الصغير فردًا من أفراد المحلة، يحبه الجميع ويلاطفونه عند مرورهم من أمامه، يعرف أبناء المحلة فردًا فردًا، ولا ينبح عليهم كما يفعل ذلك مع الغرباء، يركض وراء الأولاد يداعبهم وهم يسرعون

بدراجاتهم، يتقافز مع البنات وهن يلعبن على الرصيف ويستقبل الآباء بفرح عند عودتهم من العمل.

اللافت للنظر، أن قطط المحلة التي ولدت على سطوح البيوت وحدائقها الخلفية، لا تخاف من برياد، ولا تبتعد عنه عندما يعترض طريقها من دون أن يقصد، والأغرب من هذا، أن بعض هذه القطط، أصبحت على علاقة وثيقة به، علاقة بلغت حد التجول معه في الليل بحرية، حتى بتنا لا نعرف على وجه الدقة، ما إذا أصبح برياد قطة بجسد كلب، أم أن القطط صار لها مزاج جراء صغيرة.

من خصائص برياد النفسية التي يعرفها الجميع، أنه يحب أن يتقاسم طعامه مع القطط البيض حصرًا، فكان على الدوام يترك لها بعض العظام حتى لو كان جائعًا، من خصائصه الغريبة أيضًا، التي أريد منكم ألّا تستغربوا منها، أنه يتنبأ ببعض الأحداث قبل وقوعها، فإذا ما ترك بيت عمو شوكت صباحًا، وتوجه ليرفع ساقه ويتبول عند باب أحد الجيران، فإن ذلك يعني لنا شيئًا واحدًا: أن هؤلاء الجيران يستعدون للهجرة قريبًا، فمن خلال تبوله عند هذا الباب أو ذاك، صرنا نعرف من الجار القادم الذي اتخذ قرار الرحيل بلا رجعة.

بالإضافة إلى ذلك، هناك إشارات عدة يجلبها من المستقبل، بعضها سرية بينه وبين عمو شوكت، وبعضها يمنحها برياد لأبناء المحلة وبناتها عن طيب خاطر، فهو إذا ما هرول نحو فتاة وحاول لحس كاحلها، فإن ذلك يعني أنها ستتزوج قريبًا من فتى أحلامها وتعيش معه حياة سعيدة، حدث هذا كثيرًا، تزوجت هند من حيدر بعد

علاقة حب دامت لسنتين، وتزوجت مها من حذيفة وتزوجت منال من محمد بعد أن أعطاهن برياد إشارته المعروفة.

إذا ما قام برياد بعضّ حقيبة أحدهم وهو يمشي إلى مدرسته، فإن ذلك يعني أن هذا الطالب متفوق في دروسه وأن النجاح ينتظره حتمًا، وإذا ما نظر طويلًا في وجه امرأة عجوز، فهذا يعني بلا أدنى شك أن أجلها المحتوم بات قريبًا.

(١٠)

كان منظر مروة وهي تمسك بالبندقية وتطلق الرصاص في الهواء يستفزني شخصيًّا، لا أعرف إن كان ذلك قد أعجبني، أم أنا منزعجة منه، ولولا بعض مظروفات بندقيتها التي كانت تتقافز أمام عيني وتخيفني لما كنت اهتممت بتاتًا بالأمر، يحدث ذلك كل يوم خميس في مراسم تحية العلم التي تجرى في مدرستنا، وفي هذا اليوم، تكون مروة سعيدة وفخورة بشكل لا يصدق، لأنها بعد أن تطلق الرصاص في الهواء، تقف في الساحة مع مجموعة من البنات تشرح لهن قوة رد الفعل في البندقية.

بعد أن تتأكد من أن الجميع فهم معنى قوة رد الفعل، تضيف بغرور وبشيء من الولدنة المفتعلة:

- ليس هناك أي داع للقلق من هذا الموضوع، المسألة جد بسيطة، أنا قوية ويمكنني السيطرة على البندقية وأن مديرة المدرسة

تعرف ذلك ويزداد إعجابها بي بعد كل مرة أطلق فيها الرصاص تحية للعلم.

أنا لا أفهم لماذا يجب أن نطلق الرصاص في كل يوم خميس تحت سارية العلم، لماذا يجب أن يكون مع العلم دائمًا صوت للرصاص، لعلم بلادنا وصوت البنادق علاقة لا نفهمها، من أجل أن نرفعه يطلق الرصاص، وعندما تصيب أحدهم رصاصة في رأسه ينزل العلم من السارية ويلتف حول جسده. من دون العلم لا يصبح الموتى شهداء، وعندما نرسم العلم على خارطة الوطن فهذا يعني أن الوطن شهيد.

كانت مروة طالبة شاطرة في دروسها، لا أحد ينكر ذلك، اختاروها غير مرة قدوة للصف، وهي بالإضافة إلى ذلك كلّه، فتاة جميلة وفاتنة، بصدرها البارز وردفيها المكتنزين وعنقها الطويل البلوري، هي في الحقيقة من أجمل بنات مدرستنا، روحها مرحة ودمها خفيف ولديها قابلية كبيرة على خلق مقالب مضحكة، الطلاب المراهقون في المحلة معجبون بها، ويعاكسونها في الطريق وهي تضحك لهم من دون أن تصد أحدًا منهم، كانوا في كثير من المناسبات، يستغلون الظروف ويتعمدون الاحتكاك بجسدها وينتابهم شعور لا أعرف ماذا أسميه.

كانت هي سعيدة بهذا الشيء، لكنها تحب أحمد بشكل خاص ولا تحب غيره، عندما صادفته مرة وهو يمشي مع نادية في الطريق، صارت تغار من نادية، وقالت لصديقاتها تعالَيْن نتبعهما ونغني بصوت عالٍ من أجل إزعاجهما...

ـ أحبك حب جنوني وأشيلك في عيوني.

التفت إليهن أحمد وحاول أن يقول كلامًا بذيئًا لكنه غيّر رأيه واكتفى بحركة سخيفة بيده، غير أن مروة وصديقاتها لم يهتممن وواصلن الغناء بأعلى أصواتهن.

من أجل أن يتخلص من هذه الورطة، اضطر أحمد لتوديع نادية بسرعة وتغيير اتجاهه، بعد هذه الحادثة لم يعد يحب مروة، وعندما يراها مصادفة في الطريق يدير وجهه عنها، ولم تعد نادية تحب مروة، وعندما تصادفها تغير طريقها.

أنا شخصيًّا أحب مروة، أو على الأقل لا أكرهها، وعندما أصادفها لا أغير طريقي، لكنني أحب نادية وأنحاز إليها، وعندما أكون معها ونصادف مروة وشلّتها أغني بصوت مسموع تقريبًا:

عاندي وسلمي علية خلي لوم الناس إليه

عانديهم.. عانديهم.. خل يفركون بأديهم...

صارت مروة تكرهنا، تكره نادية وتكره أحمد وتكرهني أنا أيضًا، ومن أجل الانتقام لنفسها، ذهبت إلى معاونة المدرسة وأخبرتها أن نادية على علاقة غير صحيحة مع شاب من محلتنا اسمه أحمد، استدعت المعاونة أم نادية للحضور إلى الإدارة في اليوم التالي، لم تقل لها إن ابنتك تحب أحدهم، كانت المعاونة تقدر هذا الشيء المحرج، هي فقط نصحتها بالانتباه إلى سلوك ابنتها في هذه المرحلة من العمر.

بعيدًا من مراقبة مروة وملاحقتها وإزعاجها، صارت نادية تلتقي أحمد في الشوارع الخلفية البعيدة من الأنظار، في الاتجاه المعاكس

للطريق الاعتيادي الذي كنا نسلكه يوميًا من البيت وإليه. هناك دائمًا طرق بديلة نستطيع من خلالها أن نتجنب الناس المزعجين، صحيح أن مروة في بعض الأحيان تصير مزعجة، لكنها ليست شريرة، هي تزعج أحمد لأنها تحبه، وتزعج نادية لأن أحمد يحبها، ونحن دائمًا نستطيع بسهولة أن نزعج الناس الذين نحبهم، حتى ونحن نريد أن نقول لهم إننا نحبهم فإننا أحيانًا نقولها بطريقة تزعجهم، أنا الوحيدة في هذا العالم التي لا تزعج الذين تحبهم ولا حتى الذين لا تحبهم.

في يوم من الأيام، حدثت لي مفاجأة غير متوقعة، كنت أقترب من دكان أبي نبيل لأشتري شيئًا ما عندما جاء فاروق ووقف أمامي وجهًا لوجه وقال لي:

ـ أنا معجب بك.

ولما تلعثمت أمامه من صدمة هذه المفاجأة ولم أتمكن من إيجاد رد مناسب، تشجع وأضاف:

ـ أنا أحبك.

بقيت أنا ساكتة ولا أعرف ماذا أقول له، نسيت حينها لماذا أتيت للدكان في هذا الوقت، حاولت أن أتذكر، لكنني كنت أرتجف وأكاد أبكي، ركضت نحو بيتنا من دون أن أشتري شيئًا ومن دون أن أرد على فاروق.

حقًا، كان حصول هذا الشيء أمرًا غير متوقع. غسلت وجهي ووقفت أمام المرآة، قرصت خدي الأيمن من أجل أن يصبح ورديًا،

بالفعل ظهرت بقعة وردية صغيرة واختفت في الحال، ابتعدت للمرة الأولى عن المرآة لأترك مسافة مناسبة، نظرت إلى جسدي بخجل، ثم التفتُّ يمينًا ويسارًا لأتأكد من أن أحدًا من أهلي لا يراني، بللت شعري بالماء قليلًا وسرحته بيدي ونظرت في المرآة نظرة خاطفة وخرجت إلى باب البيت من دون أن أفكر، رأيت (فاروق) من بعيد وابتسمت له، حاول أن يقترب مني ليقول شيئًا، لكنني تركته ودخلت من دون أن أغلق الباب، كنت لحظتها خائفة وأشعر أن كل الناس يراقبونني من نوافذ بيوتهم أو من شرفات السطوح.

قبل أيام من هذه الحادثة ـ أقصد حادثة أنه قال لي أحبك ـ كان فاروق يقف في باب بيتهم، وكنت أنا أقطع بعض عناقيد العنب التي لم تنضج بعد من قمريتنا، تقدم نحوي وطلب مني شيئًا من العنب الحامض، الذي قال إنه يحب طعمه، قطفت له عنقودًا ووضعته في راحة يده ولامست أصابعي أطراف أصابعه، ابتسم لي ابتسامة لم أفهمها، بعد أن ذهب إلى بيتهم فكرت فيه قليلًا ثم نسيت الأمر.

لم أتمكن تلك الليلة من النوم مبكرًا، تقلبت على فراشي أحاول أن أطرد هذه الفكرة من رأسي، لكنني حتى أكون صادقة معكم، كنت سعيدة في داخلي، بقيت أتخيل (فاروق) وهو يكرر أمامي أنا أحبك... أنا أحبك... حتى نمت.

ليس لفاروق أخوة وأخوات، أبوه سافر للعمل أستاذًا جامعيًا في ليبيا، ثم تزوج هناك من امرأة تونسية ليست جميلة كما تقول أم فاروق، وعاش معها يكتب لزوجته وابنه رسائل قصيرة، يقول فيها إنه بخير،

ويتمنى أن يكونا هما بخير أيضًا، ويبعث لهم بعض الدولارات في رأس كل شهر. كان فاروق مجتهدًا في المدرسة، لكنه يحب كرة القدم بشكل جنوني ويذهب إلى النادي ليتدرب يوميًّا حتى أصبح في ما بعد لاعبًا معروفًا.

لا أعرف لماذا اختارني أنا وقال إنه يحبني، لم أكن قد تحدثت إليه، ولم أكن مهتمة به، لم أفكر في الحب في الأصل، كنت مستمتعة بقصة نادية وأحمد وكان ذلك كافيًا بالنسبة إلـيّ.

رسائل من الغيب..

(١١)

كثر في محلتنا في هذه الأيام، مرور المشعوذين الذين يقولون إنهم يعرفون كل شيء، كان برياد ينبح خلفهم بشدة وهو يحاول منعهم من المرور في شارعنا، وبعد أن نفد صبره من إلحاحهم عض امرأة من ساقها، امرأة سمينة تقول إنها تقرأ الطالع. بعد هذه الحادثة، أصبح من النادر جدًّا مرور أحد من هؤلاء الذين يقولون إنهم يعرفون كل شيء.

فقد برياد بعضًا من معجبيه بسبب هذا السلوك الغريب، لم يعد محبوبًا كما هي الحال في السابق، غالبية نساء شارعنا مولعات بقراءة الطالع وجلب الحظ، وعلى الرغم من أن معظمهن من المتعلمات ويحملن شهادات في الطب والكيمياء والقانون والتاريخ، فإن الفضول في معرفة أحداث المستقبل وقراءة الغيب، ليست سهلة مقاومته من قبل النساء في محلتنا.

في أحد النهارات، مر في شارعنا رجل نحيف طويل القامة، بلحية مشذبة جيدًا وبهندام حسن، يرتدي بذلة رسمية من ثلاث قطع، تتدلى من جيب سترته سلسلة ترتبط بساعة قديمة يضعها في الجيب الصغير الى جهة اليسار، قال لنا إنه يقرأ الطالع، لكنه امتنع عن تقديم أي

مساعدة تتعلق بجلب الحظ، كان الرجل مريبًا بعض الشيء وغريب الأطوار، يتحدث بصوت كأنه يخرج من صدره مباشرة، يمرر يده اليمنى نحو جبينه من وقت إلى آخر ثم يواصل حديثه من حيث انتهى.

من دون أن يرتكب أي خطأ، يعرف هذا الرجل النحيف أسماء أفراد أي عائلة بمجرد أن يذكر أمامه اسم فرد واحد منهم، ثم يذكر سنة ميلادهم واحدًا واحدًا ووظيفة الأب وبعضًا من صفاته وعاداته وحتى يعرف على أي جهة ينام في الليل.

ليست هذه الأشياء وحدها هي التي جعلت الناس يثقون به ويحترمونه، سلوك برياد الغريب معه وعلى غير عادته مع الغرباء هو ما جعل النساء تطمئن إليه كثيرًا، فعندما شاهد برياد هذا الرجل للمرة الأولى، اقترب منه بهدوء يتشمم خطواته وهو يمشي، نظر إلى وجهه كأنه يعرفه منذ زمن طويل ثم ابتعد عنه من غير أن ينبح عليه، بعد أن رأت النساء ذلك استغربن في بداية الأمر لكنهن شكرن برياد لأنه لم يطرده.

في بادئ الأمر، تجرأت أم مناف التي كانت تقف عند باب بيتها لتراقب الناس، تقدمت نحو الرجل الغريب وراحت تتحدث إليه وسط الطريق من دون أن تخجل، فهذا الأمر، وأعني الحديث إلى الرجال الغرباء لا يعد سلوكًا مقبولًا في محلتنا، لكن أم مناف كانت تريد أن تمتحنه وتكتشف بنفسها حقيقته الغامضة، لتتأكد ما إذا كان كذابًا أم أنه يقول الحقيقة.

نظر إليها المشعوذ نظرة سخرية وقال لها:

ـ هذه أول مرة أسمح فيها لأحد ما أن يختبرني، وهي آخر مرة أيضًا.

قرب فمه من أذنها وهو يتحدث إليها عن أمور شخصية جدًّا، تتعلق بأسرار حياتها الزوجية، شهقت وكادت روحها تخرج من فمها من دقة الأشياء التي كان يقولها وكأنه يراقب حياتها على شريط سينمائي.

بعد محاولة أم مناف الجريئة، أصبح لدى النساء الأخريات شجاعة للتقرب من هذا المشعوذ، فتحت له أم نوار باب بيتها ودعته إلى الجلوس في أرجوحة حديقتها، دخلت مطبخها لتأتي له بقدح من العصير، عادت بعد دقائق، فوجدت غالبية نساء شارعنا قد دخلن حديقتها وطوقن الرجل من كل اتجاه ويتوسلن إليه أن يقرأ طالعهن، طلبت منهن الهدوء والجلوس على بساط وضعته على عشب الحديقة، وانتظار أدوارهن واحدة بعد الأخرى، فامتثلن جميعهن لطلبها.

رفع المشعوذ رأسه إلى أمام وهو يمسك بباطن كف شروق التي سبقت الجميع وتقدمت نحوه وهي تتوسل إليه أن يخبرها عن مستقبلها، ضغط على كفها وهو يوزع في الوقت نفسه نظراته الحادة بين وجوه النساء الأخريات ويخيفهن، وضع يده اليمنى على جبينه وبعد دقيقتين من التأمل قال مخاطبًا الجميع:

ـ ليس لأي منكن مستقبل في هذا المكان.

بعد مدة أخرى من الصمت والترقب، كاد معها ينفد صبرهن عليه، أصدر حشرجة من صدره وعاد يواصل كلامه:

ـ عاجلًا أم آجلًا ، ستغرق بكن هذه السفينة.

ـ أيّ سفينة؟!

نزلت هذه الجملة مثل الصاعقة على رؤوسهن وهن يتساءلن عن أيّ سفينة يتحدث هذا المشعوذ، وقبل أن تتجرأ إحداهن وتسأله مزيدًا من التوضيح، قال بعد أن غير نبرة صوته:

ـ الإنسان يولد في هذه الحياة من دون رغبة منه ويسقط رأسه على ظهر السفينة التي صادف أن ولد عليها... في محيط هذا العالم الكبير ترسو سفن صغيرة، كل واحدة منها تحمل على ظهرها مجموعة من الناس ترتبط مصائر بعضهم ببعض، بعض هذه السفن كبيرة بحجم قارة، وبعضها بحجم وطن وأخرى بحجم محلة صغيرة، كلما كانت السفينة كبيرة فسدت العلاقة بين ركابها، والعكس هو الصحيح، محلتكم هذه سفينة صغيرة، عندما تمر في سمائها الطيور تعرف أنها تحلّق فوق سفينة صغيرة، أنتم لا تعرفون ذلك، لأنكم منذ وجودكم على ظهرها وهي ساكنة في مكانها وأن الطفل الرضيع، عندما ينام على سرير ساكن لا يتحرك، يشعر أن حدود هذا السرير هي حدود العالم، أنتم أطفال هذا المركب الذي تعيشون عليه منذ عقود من دون أن يتحرك بكم، الناس قبل آلاف السنين كانوا يعيشون على الأرض من دون أن يشعروا أنها تدور بهم مثل سفينة في فراغ لا حدود له.

صمت قليلًا وأرخى يد شروق من يده، ثم عاد وتمسك بها من جديد:

أريد أن أقول شيئًا مهمًّا فأرجو منكن الانتباه، يعيش الإنسان في

هذه الدنيا بقدرين، الأول قدره الشخصي، والثاني قدره الاجتماعي، هل تفهمنَ ماذا أقصد؟ انتظر قليلًا ولما لم يسمع جوابًا واصل حديثه وهو يرفع رأسه عاليًا كأنه يخاطب المحلة كلها.

منذ هذه اللحظة أنصحكم، منذ هذه اللحظة بالذات، أن تفكروا في قدركم الشخصي فقط، هل تفهمون؟ فكروا في قدركم الشخصي فقط، من أستطاع منكم أن يترجل من السفينة هذه الساعة فليترجل فورًا.

المحيط الذي تمضون فوقه يبدو لكم هادئًا، أليس كذلك؟ كلا يا سادتي... والله ليس هادئًا أبدًا، إن الإعصار يلوح في الأفق، والعواصف قادمة لا محالة، من يريد أن يجرب الغرق فليبقَ، ومن يريد السلامة فليهرب اليوم قبل الغد، اقفزوا إلى قوارب النجاة التي تنتظركم واذهبوا بعيدًا من هذا المكان.

الغربة ليست أمرًا هينًا، أنا أعرف هذا جيدًا، لكن السماء كتبتها عليكم، ولا مفر لكم من هذا القدر، ستعيشون غرباء، سواء أبقيتم هنا في هذه المحلة أم هاجرتم إلى المدن البعيدة، لقد بدأت رحلتكم مع العذاب فاستعدوا لها.

تعالى نحيب النساء ونزلت الدموع تحرق الخدود من هذه الأنباء التعسة التي نزلت على رؤوسهن دفعة واحدة.

صمت المشعوذ لحظة، ثم رفع رأسه يتابع طائرًا صغيرًا يحوم في فضاء الحديقة، وعاد يخاطبهن بعد أن غيّر نبرة صوته مرة أخرى وأخفضه:

أسمعنني، لا تضيعن وقتكن، هذا ليس وقتًا للبكاء، هذا وقت الاستعداد لرحلة طويلة من العذاب، لا تفكّرن ولو لحظة في البقاء هنا، سارعن إلى الهرب لأن الإعصار يقترب بسرعة جنونية.

قال ذلك وهو يمثل دور من يتمايل كما لو أنه على متن قارب تتلاعب به الأمواج: انظروا إليّ، لقد بدأت الأمواج تطوحني يمينًا وشمالًا، هل ترونني؟

اعتدل في وقفته ثم راح يتمشى في الحديقة بهدوء ويقطع بعض الأوراق الذابلة من شجرة البرتقال ثم التفت إليهن وقال بهمس:

ـ أنا لا أتمنى لكم أهل المحلة الغربة، ولا أحب أن أراكم تعانون أهوالها، ليس لدي مصلحة شخصية في بقائكم ورحيلكم. مررت صدفة في شارعكم وقررت أن أقول لكم الحقيقة. والحقيقة مزعجة في معظم الأحيان. بصراحة أنا متحير في أمري، لا أستطيع أن أنصحكم بالبقاء كما ينتابني الحزن عندما أدعوكم للهروب، لأنكم في لحظات عصيبة وقاسية يتساوى فيها ألم اللقاء مع ألم الرحيل ستتذكرونني وتقولون لقد ورطتنا.

ستعيشون غرباء بدموع لا نهاية لها، أنظر إليكم الآن، وأنتم في بلاد الثلوج والشتاءات الحزينة، تتدفئون بالذكرى، ستغدو محلتكم هذه مجرد أناشيد وأغان تنهمر مع ذكراها الدموع، أراكم في دروب موحشة ومظلمة تتلفتون فيها تلفت الغرباء التائهين، يرفع أحدكم رأسه للسماء بقلب ينفطر من الألم ويقول:

ـ ماذا فعلنا أيتها السماء؟ ولا يأتيه الجواب.

قال لهن ذلك، ثم وضع يده على جبينه مرة أخرى، وصمت دقيقتين ريثما تجف الدموع.

ـ هل تعرفن أغنية الطيور والشمس.

ـ إي هاي أغنية يا طيور الطايرة مري بهلي، أجابت أم فاروق.

ـ صحيح... هذه الأغنية ستكون مثل وطنكن للسنوات القادمة، ستغنينها آلاف بل ملايين المرات، عندما تتعبن، ستأتي أغنية أخرى، هل تعرفنها؟ أنا سأقول لكنّ:

ـ غريبة الروح.

هذه الأغنية هي الوطن الجديد لكل منكم، أنتم أهل المحلّة عندما تتقدم الغربة منكم بحياء ثم ترميكم في اللاأمل، تكون (غريبة الروح) هي نشيد الحزن الطويل، عندما تنسون كلماتها سيكون الوطن مجرد ذكرى قديمة تشتاقون إليه، لكنكم لا تفكرون في العودة ثانية، تذكروا هذا أيضًا.

استدار بنظرته العميقة نحو شروق، التي مازال يمسك بكفها وقد أصفر وجهها:

ـ سيتقدم لك شخص طالبًا يدك من أهلك نهاية هذا الشهر.

قبل أن تنفرج أساريرها ابتهاجًا لهذا الخبر السعيد، عاد يحدق في وجهها ثم أضاف:

ـ لا توافقي، ارفضيه على الفور.

ـ وإذا عاد وتقدم لي ثانية؟!

ـ ارفضيه مرة أخرى.

ـ ولكن...

ـ يا ابنتي، أعرف أنه يحبك، والله أعرف ذلك، وأعرف أنك تذوبين فيه حبًا، وأعرف قصتكما كلها، وأعرف إلى جانب ذلك أنه رجل مخلص ووفي وناجح في حياته، وسيم وقوي البنية وسيترك في أحشائك جنينًا منذ الليلة الأولى، ولكن ليست هذه هي القصة كلها، ارفضيه من دون تردد.

ـ ليش؟!!!

قالت ذلك بحرقة وقد بح صوتها وتقطعت الحروف في فمها.

ـ الحقيقة مؤلمة، وافقي وارتاحي إذا كان كلامي لا يعجبك، ماذا يهمني أنا، ماذا يهمني إذا كانت الحياة تعجبك كأرملة، تهتم لأمر صبي يتيم لم ير أباه في حياته.

قال هذه الكلمات متشنجًا ونهض يغادر المكان وسط حيرة شروق وتوسلات النساء إليه للبقاء قليلًا وإخبارهن المزيد عن المجهول الذي ينتظرهن.

من دون أن يعبأ بهذه التوسلات، توجه المشعوذ نحو الباب بخطوات ثابتة، استدار نحو جهة الشارع العام وراح يمشي بسرعة وهو يتعمد إبراز صدره للأمام، تبعه برياد حتى نهاية الزقاق يودعه باحترام، وعاد رافعًا ذيله مهرولًا نحو بيت عمو شوكت يتسلق الجدار نحو الحديقة.

تجمدت أقدام النساء في أماكنهن، وراحت الواحدة منهن تنظر في وجه الأخرى كأنها غير مصدقة أذنها، طلبت منهن صاحبة البيت الجلوس في أماكنهن وراحت تعد لهن الشاي، وقفت أم حسام وتنحنحت ثم قالت بصوت يشبه صوت زوجها:

ـ هذا الرجل جاسوس، لديه أجندة خارجية ويريد أن يخيفنا، إن هدفهم إفراغ البلد من الطبقة الوسطى.

ـ صحيح، أنا أتفق معك أنه يشبه لنكولن، قالت لها واحدة منهن تعمل مدرّسة للتاريخ.

جاءت أم نوار بالشاي وراحت تثرثر معهن، بعد قليل، تداخلت تعليقاتهن من دون انقطاع، ولا يمكن لأحد أن يفهم منها شيئًا، وعندما أعلنت ساعة بغداد الثالثة ظهرًا نهضن من أماكنهن وتفرقن.

كانت شروق قد غادرت قبلهن، وجلست في غرفتها تبكي حظها العاثر مرة وتشتم مرة أخرى هذا المشعوذ الكذاب، الذي ربما أرسلته إحداهن بعد أن دبرت هذه الخطة الشيطانية لإبعادها عن حبيبها، وذلك لغاية في نفسها لا يعلمها إلا الله.

ـ وإلا كيف أفسر هروبه بعد قراءة طالعي الشخصي لوحدي من دون الأخريات؟!

قالت ذلك لنفسها ثم كررت بصوت مسموع وهي تخاطب صورتها في المرآة:

ـ سأوافق حتى لو تزوجت (خليل) ليلة واحدة فقط.

(١٢)

كنت في السابق، أعيش قصة حب نادية وأحمد وأستمتع بها مثل مسلسل تلفزيوني تقع أحداثه مباشرة أمامي، كنت أعرف أنهما يحبان بعضهما، ولكن ما معنى أن يحبا بعضهما؟ كيف يحدث هذا الحب؟ لماذا تتغير ملامحها حين تلتقيه؟ كل هذا لم أكن أعرفه، كنت أعرف الحب من الخارج، من أحداث قصة حب تعيشها صديقتي، وليس من داخل الحب نفسه، ليس من وسط المشاعر السرية التي تولد في الروح وتشغل البال وتجعل القلب ينبض سريعًا.

جاء فاروق وبكل هدوء ووقف أمامي وجهًا لوجه وقال لي:

ـ أنا أحبك.

سلبني راحة البال وأدخل القلق إلى نفسي، رحت أفكر فيه طوال الوقت، صرت أبحث عنه في الطريق وألتفت في كل مرة أمر فيها عند باب بيته، اسمه على طرف لساني وصورته في خيالي، شعرت بالحب مثل تيار كهربائي خفيف يمس روحي، أحببت الأغاني والموسيقى وتعلقت بالتلفزيون، لم تعد تستهويني الرسوم المتحركة، لا عدنان ولينا، ولا السندباد ولا ياسمينة، صار عندي أبطال جدد غيرهم، كاظم الساهر وهيثم يوسف وحاتم العراقي وإسماعيل الفروجي ومهند محسن.

تسأليني ليش أحبج.. ليش أحبج

تسأليني عن عذابي عن جنوني عن حنيني

الناس ما سألوا شمسهم ليش تنطيهم ضوه

الناس ما سألوا گمرهم ليش يجمعهم سوه.

لا أسأل فاروق لماذا يحبني ولا أقول له لماذا أحبه، لأن الناس لا يعرفون لماذا تمنحهم الشمس ضوءها، والحب مثل الشمس، يجب ألّا نسأله لماذا يجعلنا نطير في الهواء، ليس صحيحًا أنه يحبني لأنني قطفت له من قمريتنا عنقودًا من العنب لم ينضج بعد ووضعته بين يديه، إنه يحبني لسبب آخر، هو لا يعرفه، وأنا لا أعرفه أيضًا.

ولكن لماذا لم يكتب لي رسالة ويضع عليها عطرًا، حتى أكتب له أنا رسالة وأضع عليها عطرًا، كيف سأقول له أنا أحبك أيضًا! هذه هي المشكلة، ليس صحيحًا أن تذهب البنت إلى الولد وتقول له أنا أحبك، هذا أمر غير جيد وغير مريح.

عندما قالها لي أمام الدكان تلعثمت أمامه، لكنني ابتسمت له في اليوم نفسه، ابتسمت له ابتسامة فيها معنى، كنت أريد أن أقول له أنا أحبك، لا.... كنت أريد أن أقول له أنا معجبة بك، وعندما يرتبك ويتلعثم أمامي أقول له أنا أحبك.

هل أنا أحبه؟ لماذا لم أكن أشعر بهذا الحب قبل أن يقولها هو؟! هل كان الحب نائمًا واستيقظ فجأة في قلبي؟ أم أننا نحب الحب نفسه، نحب أن نعيش قصة مشوقة ليس مهمًّا من هم أبطالها؟.

اختفى كل شيء من حياتي وبقي هذا الحب يشغلني.

قبل أن أنام، فتحت النافذة ونظرت نحو بيته، كانت غرفته نصف

مضاءة، كان في هذه اللحظة يكتب لي رسالة طويلة، قلت هذا لنفسي ورميت جسدي على السرير.

في الصباح كانت مشاعري فاترة، لقد تغير كل شيء فجأة، لم يعد فاروق يشغل بالي، كنت أفكر في أشياء أخرى، لكنني عندما وجدته ينتظرني قريبًا من باب المدرسة، ارتبكت ثانية وخفت أن أتلعثم أمامه مرة ثانية، ها هو يتقدم نحوي، ماذا سأقول له؟ هل أنا معجبة به أم أنني أحبه؟ أم أن شيئًا من هذا لن يحصل؟

ها هو يقترب مني بهدوء كمن يسدد ضربة جزاء ليباغت بها حارس المرمى، يداي ترتجفان وقلبي يخفق وقبل أن يقول كلمة واحدة، قلت له بهمس: فاروق آني أحبك، وركضت نحو باب المدرسة، كنت سعيدة لأنني تخلصت من ثقل هذه الكلمة، أخرجتها من روحي ورميتها عليه، وفي الوقت نفسه كنت خائفة، هذه أول مرة في حياتي يصير لدي سر خاص، مشاعر خاصة، لا يمكن أن أحكيها لماما وبابا.

بعد ذلك بأيام، صرنا نكتب الرسائل بعضنا إلى بعض ونضع عليها عطورًا، صرنا نلتقي في الخفاء لقاءات سريعة وخاطفة، صارت محلتنا أجمل، أتنفس فيها الهواء بعمق وأشتم عبير الحدائق بنشوة، في المساء أنتظره عند باب البيت، يمر من أمامي، يبتسم لي وأبتسم له، أركض نحو المرآة وأنا أذوب من الحب.

هل أنتم مثلي عندما تقعون في الحب تذوبون؟ لماذا نحن نذوب من الحب؟ من اخترع هذه العبارة الجميلة وجمع كلمة (نذوب) مع

كلمة (نحب)؟ أكيد أن أول من قالها ذاب بعدها من الحب واختفى من هذا العالم، هل تتذكرون قصةماندو الذي ذاب في حب الفتاة الجميلة جوانا وصار جدولًا.

عاشت نادية تفاصيل قصتنا، لكنها كانت غير متحمسة، كانت تكرر أمامي بين مدة وأخرى جملة لا أحبها ولا أعرف كيف أرد عليها:

- إنت تحبين فاروق أكثر من حبي لأحمد.

أنا نفسي لا أعرف، هل حقًّا أنا أحبه أكثر من حبها لأحمد؟! كيف أعرف ذلك؟ هل يمكن قياس الحب بالمسطرة؟

أنا أحبه وأحب بابا وماما ونادية وجدتي ولا أعرف من أحب منهم أكثر، لكنني أفكر في فاروق أكثر مما أفكر فيهم، بل أفكر فيه طوال الوقت، سألت نادية نفس سؤالها كي أعرف الجواب منها:

- إنت تحبين أحمد أكثر لو ماما؟

ضحكت نادية لأنها لا تعرف الجواب، أنا أيضًا لا أعرف الجواب كما قلت لكم، أخذتها من يدها ورحنا نتمشى في شارعنا ولما بلغنا دكان أبي نبيل، توقفت في منتصف الطريق كأنها تذكرت شيئًا مهمًّا وقالت:

- اسمعيني، أنا أحب ماما ولكن لا أكتب لها رسائل سرية، وأحب بابا ولكن لا أشتاق إليه مع كل أغنية، عندما نلتقي أنا وأنت لا يخفق قلبي بقوة، أنا أكتب الرسائل لأحمد وحده، أسمع الأغاني من أجله وحده، عندما ألتقيه أريد أن أطير.

كانت سعيدة لتوصلها لهذه الإجابة، نظرت في وجهي تنتظر دهشتي، كنت أنا حقًّا مندهشة من جوابها، قلت لها مازحة:

ـ نادية إنت فيلسوفة.

رفعت رأسها إلى فوق ورسمت على وجهها علامات الغرور المصطنعة وحاولت أن تقول مزحة أو شيئًا آخر، لكن أحمد مرَّ قريبًا من الدكان وأنساها نفسها في الحال.

(١٣)

عاد عمو شوكت من العمل ولما وصل إلى باب بيته، استغرب عندما شاهد خروج مجموعة من نساء المحلة من بيت أم نوار دفعة واحدة، وهن يتوجهن نحو بيوتهن والدموع تملأ أعينهنّ، وقف في وسط الطريق، وتصاعدت دقات قلبه خوفًا من أن يكون مكروه قد حدث لأحدهم، حيث لم يتعود من قبل، رؤية هذا العدد من النساء يجتمعن في مكان واحد، وفي هذا الوقت من الظهيرة.

حاول أن يفهم الأمر من برياد، لكن الأخير كان يدور حوله من دون أن ينظر في عينيه، خمن عندها مع نفسه، أنهن يودعن عائلة جديدة جاء موعد هجرتها، أو أن أحدًا ما حصل له شر ما لا سامح الله.

لم يطمئن قلبه حتى طرق باب البيت وخرجت له أم نوار وعيناها متورمتان من البكاء:

ـ سلامات أم نوار؟!

ـ سلامتك أبو غايب ماكو شي.

ـ شلون ماكو شي وأنت عيونج ناشفة من الدموع.

ـ لا والله ماكو شي، هذا واحد يقرا الطالع قهرني، يكول راح تغركون.

ـ راح نغرك؟!! أكثر من هذا الغرق وين أكو، المبلل ميخاف من المطر.

ودعها ومشى حزينًا نحو بيته يتبعه برياد، تناول غداءه بعد أن غير ملابسه وحاول أن ينام قيلولته المعتادة، لكنه لم يتمكن من النوم هذه الساعة، نهض وارتدى بدلة العمل وخرج وبرياد يرافقه كظله وهو يحمل أدواته بيده، ويدفع ماكنة قص العشب بالثانية، كان الدور هذا اليوم على بيت أم سالي، مرّ عليه وقت طويل نسبيًّا من دون أن يدخل إليه ويعتني بحديقته.

فتح الباب ودخل الكراج، وضع صندوق العدة جانبًا، دفع ماكنة قص العشب إلى طرف الحديقة وراح يمررها على هيئة خطوط طويلة، تأسف كثيرًا لنمو الأدغال وبعض النباتات الغريبة في السواقي، وسقوط بعض ثمار شجرة النارنج الناضجة على الأرض.

انتهى من قص العشب، ترك الماكنة ممدة في مكانها يلهو فوقها كلبه الصغير، راح يجتث السيقان البرية الطويلة التي نبتت في السواقي، نظف الأرض من الأوراق اليابسة التي سقطت عليها، فتح صنبور ماء الحديقة وراح يغسل الأشجار من الغبار.

عاد وترك الماء يجري في السواقي، ودخل البيت يتفقد المواسير والأسلاك الكهربائية، تأكد من إغلاق المداخل والمخارج، جرب فتح الأبواب المغلقة ليطمئن إلى إغلاقها بإحكام ووجد أن كل شيء على ما يرام، لكنه اتخذ قرارًا لم يكن في وارد حساباته، هو أن يتفقد الطابق العلوي من البيت، صعد السلم بخطوات تعبة، فتح باب الغرفة الأولى ووجده غير مقفل، دفع الباب ودخل إليها، كانت الغرفة فارغة تمامًا من الأثاث وعلى أرضيتها التي يكسوها الغبار، سقطت صورة فوتوغرافية مقلوبة على ظهرها، التقطها ورفعها من على الأرض وقربها من عينيه يتفحصها، كانت صورة عائلية قديمة، يظهر فيها أبو سالي وزوجته يجلسان على أريكة في وسط الحديقة، في حضن الأم تجلس الابنة الصغرى سولاف، وتقف بناتهما الأربع الأخريات خلفهما، في عمق الصورة يقف رجل نحيف بهندام حسن ولحية مشذبة، لم يتعرف عليه، ولم يهتم كثيرًا لوجوده.

نزلت من عينيه دمعة وسقطت على أرض الغرفة، أخرج منديله وجفف مقلتيه وعاد يدقق في ملامح وجوه البنات الواحدة تلو الأخرى، اندهش عندما اكتشف أن أثر الساعات التي طبعها على معاصمهن اليسرى في أيام طفولتهن ما زال واضحًا يشير إلى وقت غير محدد بالضبط.

وضع الصورة في جيب بدلة العمل ونزل السلم، جلس من التعب على إحدى درجاته وهو يحاول حبس دموعه، تذكر في الحال زوجته التي غابت عن عينيه طويلًا، تذكر أنه الآن بلا عائلة، ولا بنات صغيرات يعض على معاصمهن، كان أحوج ما يكون في هذه اللحظة إلى

أن تخرج له من هذه الصورة فتاة صغيرة ونحيفة تشبه باجي نادرة وتقول له:

ـ لا تبكِ يا بابا.

ظلت كلمة بابا ترن في رأسه، فهو في حياته كلها لم يسمع كلمة بابا، أخرج الصورة ثانية من جيبه وتحدث إليها:

ـ حسنًا فعلت أبو سالي، حين ذهبت بيناتك بعيدًا، إن المحلة لم تعد مكانًا مناسبًا للعيش، الحصار والحكومة خربا حياتنا يا صديقي، يومًا بعد يوم تصبح الحياة صعبة في هذا المكان، لقد تغيرت أشياء كثيرة بغيابكم، حتى بيتكم هذا صار مسكنًا للوحشة والألم.

رفع رأسه نحو النافذة التي يدخل منها ضوء الشمس نحو السلم وقال:

ـ هل هذا الغبار الذي يدخل من النوافذ على شكل حزمة عريضة من شعاع الشمس يعود إليكم، هل هو أنفاسكم الثقيلة التي نسيتموها في الفراغ ، أنفاسكم التي نسيت أن تذهب معكم، في كل ذرة غبار هناك ذكرى تريد أن تبقى هنا معلقة في الهواء، هناك حلم لم يفسر بعد، هناك أغنية نسيتها سولاف، وضحكة تركتها سندس، هذا الغبار هو أنتم يا أبا سالي، هذا غبار أرواحكم.

هل تتذكر عندما دعوتني لأول مرة وجلسنا في الحديقة قبل عشرين عامًا ليتعرف بعضنا على بعض؟ منذ ذلك المساء البعيد ونحن إخوة، إخوة نتقاسم الأفراح والهموم ونلتقي كل مساء، ها أنا أجلس

عند دكة مغبرة على سلم بيتك وحيدًا تقطعني الوحشة، لا زوجة تهتم بأمري، ولا فتاة تقول لي لا تبك يا بابا.

سأبكي يا أبا سالي، سأبكي حتى ينشف نهر دموعي، لقد رحل بعدكم جيران آخرون وسيرحل غيرهم، وأنا هنا وحيد، ليس لدي أهل أذهب إليهم، كنتم أهلي وأحبابي وفقدتكم، أنا خائف يا صديقي، خائف أن أموت وحيدًا، هل تعرف وحشة أن تموت وحيدًا؟

ذرفت عيناه دموعًا حارة راح يمسحها بكم قميصه وحاول النهوض والذهاب إلى بيته لكنه شعر بالإعياء والتعب والرغبة مجددًا في البكاء، كان صدره يختنق بالألم:

لا تشغل بالك على بيتك يا صديقي، فأنا أهتم به وأهتم بحديقتك كما أهتم ببيتي وحديقتي، أنا أهتم ببيوتكم كلكم، هذا واجبي يا جار العمر، بعد أيام سأبيع هذا البيت لناس غرباء وأرسل لك ثمنه، سيأتي فيه جيران غيركم، لا أعرفهم ولا أريد أن أعرفهم، لأن عمري لا يسمح بصداقات جديدة، العمر يا جاري العزيز لا يسمح بصداقات جديدة، أنا على أبواب التقاعد، ولا أدري ما الذي عليّ أن أفعله بهذا الوقت الكئيب.

سقطت دموع ساخنة جديدة على السلم، أعاد الصورة إلى جيبه ونهض يهم بالخروج.

أغلق الأبواب الداخلية من خلفه، حمل أغراضه وخرج من البيت، في هذه اللحظة انتبه إلى أن برياد غير موجود معه، عاد يفتش عنه في زوايا

الحديقة ولم يعثر عليه، صفر له كما تعود أن يناديه لكن الكلب اختفى عن الأنظار، عاد وفتح الأبواب وصعد السلّم وفتح الغرفة التي وجد فيها الصورة ولكن من دون جدوى، خمن تخمينًا أخيرًا، أن الكلب سبقه إلى البيت، حمل أغراضه ثانية ودفع ماكنة قص العشب أمامه وخرج من البيت المهجور بعد أن طوق الباب بالسلسة الحديدية.

في نهاية الزقاق، كان برياد يشب على سيقان رجل طويل كأنه يتحدث إليه، فرك عمو شوكت عينيه لهذا المنظر الغريب، وعندما عاد يركز نظره وهو غير مصدق لما رأى كان الرجل قد اختفى بسرعة البرق، وعاد الكلب يهرول مسرعًا باتجاهه لاعقًا مقدمة قدميه.

من غرابة ما شاهدت عيناه مضى عمو شوكت من دون أن ينتبه إلى أنه يمشي في الاتجاه المعاكس لبيته، وبعد أن تخطى بيوتًا عدة عاد إليه رشده واستدار يدفع ماكنة العشب بقرقعتها المزعجة ليعود إلى بيته، وبدل أن يوجه شكوكه نحو سلوك الكلب صار يشك في عقله هو.

(١٤)

منذ أن زارها المشعوذ، لم تعد محلتنا كما كانت، أصبحت كئيبة بعض الشيء، وأصيب أهلها بوسواس الخوف من المستقبل، بعد أن فقدوا الأمل بعودة الهناء إلى حياتهم. المشعوذ في الحقيقة ليس مسؤولًا عن هذه الكآبة، إنه فقط قال لنا إنكم غير سعداء، هو مثل الطبيب الذي يقول لك أنت مريض ويجب أن تأخذ العلاج المر فورًا.

الرجال والنساء والأطفال في هذه الأيام، يجلسون في حلقات صغيرة ويحتلون هذا الركن أو ذاك، يستعيدون نبوءات هذا الرجل ويفسرونها كلٌّ من وجهة نظره، وهم متفقون على أن كل ما كان يقوله صحيح، لكنهم يختلفون على نسبة الحقيقة في كلامه.

بعضهم يقول إن كل ما قاله سيحدث بالضبط، حتى ذهب بهم الأمر إلى أن يصدقوا أننا نعيش الآن على ظهر سفينة غاطسة في بحر يقع تحت أقدامنا مباشرة، وأن هذه السفينة ستتحرك بنا ذات يوم أو ستغرق في مكانها، ويرى القسم الآخر أنه كان يبالغ كثيرًا ويخلط الواقع بالخيال، لكن أشياء غريبة صارت تحدث من دون أن نعرف كيف صارت تحدث وخصوصًا في هذه الأيام، ففي بيت أبي مناف حدث ثقب صغير تحت البلاط وأخذت تتسرب منه المياه المالحة إلى داخل البيت، وبعد أيام كبر هذا الثقب وخرجت منه بعض الأسماك المضيئة، وقالت أم مروة إن بيتها يتأرجح في الليل كما لو أنه قارب صغير تمر تحته موجة تختنق وتريد أن تعبر إلى الجانب الثاني، وقالت أم نوار إنها شاهدت حيتانًا صغيرة تظهر في مطبخها بسرعة ثم تتبخر في الهواء، وأنا أيضًا، شاهدت أشياء غريبة لكنني لا أستطيع أن أقولها، لأن الناس لا يصدقوننا عندما نقول لهم أشياء لا تدخل عقلهم، وأنا أستغرب لماذا هم يصدقون عقلهم الصغير ولا يصدقوننا، عندما لا يريد أن يصدقك الناس فلا تقل لهم الأشياء التي تعرفها.

كان لأبي حسام وجهة نظر مختلفة، فهو يعتقد أن هذا الرجل (ويقصد المشعوذ): ما هو إلا شخص كذاب ودجال، يعمل لمصلحة

دول أجنبية، تريد أن تبث الرعب في نفوسنا لأننا صمدنا أمام الحصار، أمام هذا الرأي الذي يقوله أبو حسام بثقة عالية يسكت الجميع، ليس من مصلحة أي شخص تبرئة المشعوذ والدفاع عنه، لأن أحدًا منا لا يعرف عنه شيئًا غير صورته التي ظهر فيها فجأة في حياة المحلة، لكننا وفي قرارة أنفسنا كنا نعتقد أنه يقول الحقيقة، فها هي الأمور تتعقد أمامنا يومًا بعد يوم، وحياتنا في هذا المكان أصبحت قاسية جدًّا، وصار من الصعب علينا معرفة ما يخبئه لنا المستقبل، سفينتنا تتأرجح وسط تلاطم الأمواج العاتية وموعدنا مع الرحيل هو مسألة وقت لا أكثر.

خير دليل على صحة تكهنات المشعوذ هو دكان أبي نبيل الذي أصبح فارغًا، اختفت منه مواد كثيرة، فرغت الرفوف العالية وتجمع الغبار فوقها، ولولا الحصة التموينية التي يتسلمها من الحكومة ليوزعها بيننا كل رأس الشهر لانتهى الأمر بإغلاق هذا الدكان منذ وقت طويل.

صارت شوارعنا تعبة وفيها حفر كثيرة والسيارات التي تمشي فيها صارت قديمة وتهشم زجاجها، ظهر التعب على وجوه الآباء، وراحت الأمهات يصنعن البدائل لكل شيء لم يعد موجودًا، أخرجت أمي ماكنة الخياطة القديمة التي نسيناها ولم نعد نتذكرها، نظفتها ووضعت الزيت في الثقوب الصغيرة على جوانبها ثم سحبتها إلى الصالة، لأننا لم نعد نشتري ملابس جديدة، كان من الأفضل أن نستخدم الملابس القديمة ونعيد خياطتها ونلبسها كأنها جديدة.

دخل الحصار حياتنا بقوة وقلبها رأسًا على عقب، فقدت نساء محلتنا أناقتهن، كما لم يعد الرجال مبالين لمظهرهم، حتى مدرستنا

أصبحت بناية شاحبة بعض الشيء وتسلل اليأس إلى مديرتها ومعاونتها ومدرساتها، جميعهن باستثناء ست أروى، أصبحن أكثر عصبية وشرودًا في أثناء الدروس، غالبًا ما يجتمعن عند باب أحد الصفوف للحديث عن الحصار والهجرة وترك الوظيفة.

كثرت هذه الأيام المسيرات الاحتجاجية والتظاهرات، بين مدة وأخرى، تدخل المعاونة الصفوف وتطلب منا الخروج إلى الساحة، ثم يجري تنظيمنا لنخرج مع المدارس الأخرى إلى الشوارع الرئيسية في طوابير غاضبة نحمل فيها اللافتات التي تندد بالأمم المتحدة، والمجتمع الدولي، ومجلس الأمن، وأمريكا وإسرائيل وبريطانيا وحتى فرنسا.

أنا ونادية، نستغل هذه المناسبات لنلتقي فاروق وأحمد اللذين تخرج مدرستهما أيضًا ونلتقيهما في حديقة الزوراء أو في حدائق ساعة بغداد، الحب دائمًا يؤسس عالمًا آخر بعيدًا من الواقع، الولادة والموت والحب، هذه الأشياء الثلاثة لا تهتم للواقع.

أضع يدي بيد فاروق ونجلس تحت ظل شجرة قديمة، حفر على جذعها عشاق كثيرون قبل سنوات حروف أسمائهم الأولى.

- فاروق راح أغني لك أغنية جديدة.

- صوتك مو حلو بس راح أتحمله غصبًا عني.

-أضعف گدامك بس إنت.. وأتمالك نفسي بهل السكتة...

يضحك فاروق ضحكته الطفولية التي أموت عليها، يضحك لأنني أغمض عيني وأغني بكل جدية، كما لو أنني أغني على مسرح

امامه جمهور كبير، لكن صوتي ليس صالحًا للغناء، انا اعرف هذا، ولكن اريد أن أغني غضبًا عن فاروق وأجداد فاروق.

يقترب مني في حركة مقصودة، ويحرك أصابعه في الفراغ بحثًا عن أصابعي، أبعدها عنه، أتشاغل عنه بأغنية ثانية، يحاول مرة أخرى ويفشل.

- هي گوة ما أحبك... إزعل إغضب إنفعل

هي گوة ما أريد... من أشوفك أشتعل

يضحك فاروق مرة أخرى:

- إنتِ صدك مجنونة.

- فاروق هي گوة أني أحبك، كلش أحبك ومن أشوفك أشتعل.

يختنق هو من الضحك، أنهض من مكاني وأهرب أمامه لاهية يداعب الهواء ضفيرتي، يتبعني برشاقة رياضي، يتجرأ ويمد يده ليمسك أصابعي، تتمرد أصابعي لثوان ثم تستسلم له، تذوب بين أصابعه ويشب الحريق في روحي، يا إلهي كم هو جميل غزل الأصابع وهي تتدرب على الحب مثل قطط بيض عمياء تولد في البرد.

- فاروق اترك إيدي راح أموت.

يتوقف في وسط الطريق ويطلق ضحكة عالية.

- لتخافين ما راح تموتين.

- ولك اترك إيدي كافي عاد لتصير طماع.

فاروق لا يترك أصابعي، وأصابعي لا تريد من فاروق أن يتركها، وأنا لا أعرف ماذا أريد، عندما يمرر بحركة شيطانية طرف إبهامه على طرف إبهامي، يمشي الضوء في دمي، وعندما ينظر إلى شفتيّ وأعرف ماذا يريد بالضبط، أدير وجهي عنه. في هذه الثواني القليلة، التي أدير فيها وجهي عنه هربًا من نظرة عميقة، أصاب بدوخة في رأسي، دوخة من النوع الذي أحبه، أشعر أن رأسي خفيف وأنسى العالم، في هذه اللحظات القليلة، أنسى العالم، نسيان العالم هي نعمة الحب الوحيدة، أعود وأنظر في عينيه وأعرف أنه أيضًا في هذه الثواني ينسى العالم، نحن نعيش من حياتنا ثواني قليلة ننسى فيها العالم، كيف أوضح لكم ذلك؟ هناك طريقة واحدة أستطيع أن أقول لكم فيها ذلك، إن الحب يعمل ضد الذاكرة، لا أعرف كيف يحدث هذا، ولا لماذا يحدث، لأنني فقط أحب هذه الدوخة التي تستمر لثوان قليلة وأنسى فيها العالم.

في اليوم التالي، طرقت باب الصف علينا طالبة من شعبة أخرى، طالبة اسمها شمس كما أتذكرها، سلمت المدرسة ورقة صغيرة، قرأت المدرسة فيها اسمي ثم اسم نادية وقالت:

- المعاونة تريدكم بالإدارة.

بدت ست أثمار غاضبة هذه المرة على غير عادتها، وتحدثت إلينا بحرقة وألم وهي توبخنا على خروجنا من المسيرة، لكنها مع ذلك كله، كانت امرأة طيبة القلب وسرعان ما يهدأ غضبها، نظرت في وجهنا بعد أن هدأت فورتها بشيء من العتب وقالت:

- هذه آخر مرة.

ـ شكرًا ست.

خرجنا نضحك فرحًا من غرفتها، في الحب ليست هناك آخر مرة يا ست أثمار.

أنا ونادية لا نتعب من الحب، نحن نذوب في الحب يا ست أثمار، مروة أيضًا لا تتعب من نقل الكلام، في كل مرة تذهب إليها وتنقل لها أسماء الطالبات اللواتي يتركن المسيرة ويذهبن إلى الزوراء، وأنا ونادية في مقدمة هذه الأسماء.

لم تعد ست أثمار تحب مروة، وغضبت منها في يوم من الأيام وقالت لها:

ـ لا أريد بعد الآن أخبار عن الطالبات، كل شيء يحدث خارج المدرسة ليس من اختصاص المدرسة، أمرتها بالخروج وأغلقت خلفها الباب بقوة.

ذهبت مروة في مساء اليوم نفسه إلى بيت نادية وأخبرت أخاها (مؤيد):

ـ أختك تترك الدراسة وتخرج مع أحمد.

غضب مؤيد وأخبر أمه وأباه على الفور، صعد إلى غرفة نادية يفتش كتبها ودفاترها، صار يراقبها عندما تخرج من المدرسة، وأصبح من الصعب عليها الخروج من البيت والتجول في وقت العصر في الشارع كما كنا نفعل ذلك دائمًا.

في هذا الوقت، صارت نادية تحب أحمد أكثر من قبل، صارت

تشتاق إليه في كل لحظة، حلمت أنها تهرب معه إلى بلاد بعيدة، مثل عدنان ولينا وهما يهربان إلى جزيرة الآمان، كتبت في دفاترها خواطر عن الفراق والحب والسهر والأمنيات، رسمت شموعًا تذوب في ليل بعيد، تغمض عينيها وترمي بروحها في أحضانه، كانت تريد منه أن يدخل عبر نافذتها، أن يباغتها، أن يحتضنها ويقبلها، أن يهمس في أذنها كلمة أحبك آلاف المرات، أن يقول لها نادية أموت على عيونك، لكنها كانت محاصرة من أمها وأخيها. في المساء يظهر مهند محسن في التلفزيون ينظر إلى نادية مباشرة ويغني لها:

- خلوا عليك يخافون حارس يحرسك مني.

في أحد الأيام، خرجنا من المدرسة في مسيرة جديدة، كان هذا اليوم هو يوم الجولة الاستعراضية، التي قام بها النائب البريطاني (جورج غالاوي) في شوارع بغداد، تضامنًا مع أطفال العراق ضد الحصار.

وقفنا في الشارع الرئيسي في انتظار حافلته الحمراء ذات الطابقين، رفعنا صورًا قديمة للرئيس ورددنا مع مديرة المدرسة الأناشيد الحماسية، كنا نفكر في الوقت نفسه في وسيلة للتسرب من خلف صفوف الطلاب من دون أن يلحظنا أحد.

قبل وصول القافلة بقليل، تسللنا أنا ونادية خفية إلى الصف الخلفي، ثم تراجعنا إلى الوراء، ولما وصلت القافلة أمامنا بالضبط واندفع نحوها الجميع أسرعنا باتجاه سياج متنزه الزوراء ومشينا بمحاذاته حتى دخلنا البوابة وتوارينا بين الأشجار، كانت بوابة الزوراء

هي لحظة الدخول في النسيان، هي الممر العميق نحو أنفسنا بعيدًا من السياسة، السياسة تأخذ الناس بعيدًا، تسرقهم من أنفسهم وتخلط مشاعرهم مع الآخرين، حتى لا يعود الإنسان يعرف نفسه. في إحدى المرات مررنا بالقرب من بوابة الزوراء فوجدناها مغلقة ومكتوب عليها (المتنزه مغلق لأغراض الصيانة)، كانت الزوراء هذه تطردنا خارج أسوارها نحو عالم من السياسة والشعارات، صارت الدنيا ضيقة وشعرت بالاختناق، إن وجود بوابة مثل بوابة الزوراء هو نوع من الأمل، هل تعرفـون مـاذا أقصـد؟ لكي أكون واضحة بدرجة كافية أقول لكم... إن الحب يحتاج أمكنة رحيمة أيضًا، إنه يختنق عندما يمتلئ الهواء بالشعارات.

ـ تبًّا للحصار الجائر، صاحت نادية وهي تركض بلهفة باتجاه أحمد الذي وصل قبلنا هو وفاروق، نادية تستخدم الحصار الدولي لكسر الحصار العائلي، الحصارات أنواع، يكسر بعضها بعضًا، وضعت يدها بيد أحمد وغابا بين الأشجار الكثيفة.

ـ أضعف گدامك بس أنت... وأتمالك نفسي بهل السكتة.

نجلس أنا وفاروق تحت ظل شجرة، أغني له بصوت خجول أغنية هيثم يوسف ويداي تتعرقان بين يديه.

التفت إلى الوراء، هناك تحت ظل شجرة اليوكالبتوس العملاقة، نادية وأحمد يصنعان لحظة إضافية للحب وينسيان العالم، أرى ابتسامتها من البعيد ويطمئن قلبي.

عشت حياتي كلها أنظر إلى الوراء، أبحث عن ابتسامتها من البعيد ليطمئن قلبي.

(١٥)

بعد أن غادرت شروق بيت أم نوار وهي مصدومة من كلمات المشعوذ، لم تنم ليلتها تلك، قلّبت في رأسها ما قاله لها عشرات المرات، ليس من أجل أن تتخذ القرار الصحيح، فهي في قرارة نفسها لا تناقش مسألة زواجها من خليل، هذا أمر مفروغ منه بالنسبة إليها.

ما يشغلها الآن ويسبب هذا القلق كله ما يخبئه المستقبل بعد هذا الزواج:

- وافقي إذا كانت الحياة تعجبك كأرملة تهتم لصبي يتيم لم ير أباه في حياته.

تلمست بطنها وتحسست حركة جنين، كانت قدماه تتحركان في داخلها وتكاد تسمع صوت صراخه، على الرغم من أنها لم تتزوج بعد ولم تحمل به.

تخيلت ليلة زفافها التي خططت لها طويلًا ببدلة العرس البيضاء الطويلة ولون شعرها الأشقر الجديد الذي تنتشر فوقه البقع الصغيرة اللماعة، تخيلت المشتمل الصغير، الذي ستعيش فيه مع خليل وهو يعود إليها بعد الظهر تعبًا من وظيفته المرهقة في هيئة التصنيع العسكري، تخيلت كل التفاصيل التي حدثها عنها من أجل العيش سويًّا، جلست على سريرها وراحت تبكي.

وقعت شروق في حب خليل قبل أقل من سنة، عندما التقته للمرة الأولى مصادفة، كانت في ذلك الوقت لم تزل طالبة في سنتها الجامعية

الأخيرة، كان هو قد سبقها بسنوات وتخرج مهندسًا في الجامعة التكنولوجية، التحق بعد التخرج للعمل في إحدى المنشآت السرية التابعة للتصنيع العسكري، جذبها مظهره الأنيق بطوله الفارع ورشاقته واستقامة جسده ورجولته الطاغية، جذبها بقوة عضلاته المفتولة وهو يرفع أكمامه فوق عقب ساعده، عندما نظر إليها للمرة الأولى، تعثرت قدماها ونسيت العالم وكادت تسقط في الطريق، فهذا هو الرجل الذي حلمت به منذ سنوات مراهقتها المبكرة.

لم تكن أحلامها تذهب بها بعيدًا في الأمنيات، كل ما تطلبه في حياتها هو هذا النوع من الرجال، شاب بمستوى دخل معقول، وبيت صغير، وسيارة قديمة نوع لادا، لا تعرف على وجه التحديد سبب اختيارها هذا النوع من السيارات، لكنها لا تستطيع أن تتخيل سواها.

حاولت بكل جهدها أن تتماسك أمام قوة نظرته وتجاوزته في خطواتها، لكنها لم تقاوم إغراء أن تلتفت إلى الوراء التفاتة ألحت عليها لكي تسرق نظرة خاطفة لقوامه الرياضي بأكتافه العريضة.

تصادفت التفاتتها مع التفاتة قام بها من جانبه وهو يستطلع قوامها، في هذه اللحظة انهارت كل مناعتها التي تدربت عليها أمام إغراءات الطلاب وغزلهم في الجامعة وابتسمت له، تسمرت في مكانها ونسيت أن تواصل سيرها (لقد نسيت العالم مرة أخرى)، تقدم نحوها وسألها عن اسمها.

- شروق.

ـ عاشت الأسامي، نظر في عينيها ثم أضاف: آنسة شروق اكملي طريقك في الاتجاه الآخر وسأتبعك، أريد التحدث إليك قليلًا إذا سمحت.

غيرت اتجاه طريقها وعبرت الشارع، وانتظرته هناك وهي تفكر بسحر كلمة شروق التي نطقها أمامها وهو يلثغ بحرف الراء.

سارت معه في ذلك اليوم إلى المساء، ونسيت أن عليها أن تعود إلى البيت، كادت تذوب أمامه، تفجرت أنوثتها وراح جسدها يحترق تحت ملابسها.

لم يكن خليل من نوع الشباب اللعوب، كان في هذه المرحلة من حياته يبحث عن الاستقرار، عن المرأة التي تناسبه، فعثر هذا اليوم على شروق، لم يفكر قط في استغلال لحظة ضعفها الواضحة أمامه، حدثها بصراحة عن الزواج والمستقبل والأولاد.

كان ذلك اليوم هو يوم ولادتها الحقيقية، فلم تكن قد شعرت بهذا الكم من السعادة قبله إطلاقًا.

بعد لقاءين أو أكثر، قرر أن يتقدم لها رسميًّا، طلب منها تحديد موعد مناسب لزيارة عائلتها، غير أن أهلها طلبوا منها ألّا تفكر في الزواج إطلاقًا، عليها أن تكمل سنتها الدراسية الأخيرة ثم تفكر في ذلك. عاشت شروق سنة دراسية قاسية، كانت تريد للأيام أن تكون أسرع مما هي عليه لكن الزمن والحب معادلة معقدة، عندما نكون مع من نحب يمضي الوقت سريعًا مثل قطار، وفي انتظار الحب تدب الدقائق متكاسلة، تمط نفسها كأنها تذهب إلى السرير لتنام.

تخرجت في الجامعة أخيرًا، وموعدها مع خليل هو يوم الأحد المقبل ليتفقا على يوم الخطوبة، حتى ظهر المشعوذ وأفسد فرحتها.

تلمست بطنها ثانية، كانت فكرة الجنين الذي تتوهم أنه يتحرك في داخلها تسعدها، لكنها سرعان ما تجهش بالبكاء، عندما تتذكر أنه سوف يأتي إلى هذه الدنيا من دون أن يرى أباه.

ضاق نفسها وشعرت بشحّ الهواء في غرفتها، وضعت عباءة أمها على رأسها وخرجت إلى الشارع من دون أن تستأذن أهلها كالعادة عند خروجها إلى السوق، أو زيارة صديقاتها في الزقاق المجاور.

مشت باتجاه الشارع العام وهي لم تقرر بعد، المكان الذي عليها أن تتوقف عنده ثم تعود أدراجها، ظهر أمامها المشعوذ وهو يرتدي ملابس سائق حافلة، أسرعت باتجاهه ووقفت أمامه لتتحدث إليه، غير أنه لم يتعرف عليها، وبدا كما لو أنه مستغرب من سلوكها، تراجع خطوة إلى الوراء وسألها مندهشًا:

- ما بك يا آنسة؟

- أرجوك أخبرني الحقيقة؟

- عن أي حقيقة تتحدثين يا ابنتي؟

- لا تتهرب، أنا أعرفك جيدًا، حتى صوتك هذا هو نفسه.

وضع يده اليمنى على جبينه وصمت للحظات وهو يتأمل وجهها، قبل أن يقول كلمة واحدة، توقفت قربه حافلة حمراء، صعد إليها ومضت به مسرعة، ابتسم لها من خلف الزجاج وغاب.

جاء بریاد ولحس كاحلها، نظرت إلى الكلب الذي يلهث أمامها كأنه يريد أن يقول لها تعالي.

مشى أمامها وتبعته حتى توقف أمام بيتها، دخلت البيت من دون أن تغلق الباب خلفها.

(١٦)

مر أحمد أمامنا يحمل كتبه المدرسية من دون حقيبة، وهو يضع بين أصابعه سيجارة مشتعلة يتصاعد دخانها فوق أنفه المدبب ليشكل دوائر تتموج فوق رأسه يبددها الهواء البارد، هذه أول مرة نشاهده فيها وهو يدخن.

خطا باتجاهنا ولما صار قريبًا، سحب من سيجارته نفسًا سريعًا ثم رماها أرضًا وداسها بحذائه:

ـ نادية ممكن أشوفك يم ساعة بغداد.

كانت نادية خائفة من أهلها، وهي لا تريد أن تخلق لنفسها مشاكل جديدة في البيت والمدرسة، لكنها تموت في أحمد وقد مضى وقت طويل وهي لم تلتقِه، سألتني عن رأيي فقلت لها من دون أن أفكر:

ـ اذهبي.

ـ هل ستأتين معي؟

قلت لها:

ـ لا.

ـ لكنني خائفة.

ـ لا تخافي.

ـ لكن المطر سينزل بعد قليل.

ـ نادية لا تكوني مجنونة ما علاقة المطر بالموضوع.

ابتسمت نادية، التي كانت تقول دائمًا إنها تحب المطر، تحب الغيوم، وتحب سماع الأغاني تحت المطر، حين كنا صغيرتين... أعتقد حين كنا في الصف الثالث الابتدائي، خرجت ذات مساء مع عائلتها في نزهة وصادف أن نزل عليهم المطر في الطريق، عادت يومها تقول لي: إن ماسحات الزجاج في السيارة هما أجمل شيء رأيته في حياتي، وأن الراديو في السيارة كان يبث موسيقى جميلة، هي أجمل ما سمعته في حياتي، وكانت قطرات الماء تتجمع على الزجاج، فتتحرك الماسحتان بسرعة تجمعان قطرات المطر بعضها إلى بعض، فينزل الماء على حافتي السيارة مثل شلال صغير هو أجمل ما رأيت في حياتي.

كان ذلك شيئًا جميلًا، بل أجمل شيء رأته نادية في حياتها، بقيت أنا كلما صادف أن نزل المطر على زجاج سيارتنا، وتحركت الماسحتان أرى المشهد بعيني نادية، هناك كثير من الأشياء في هذا العالم نحن نحبها بأعين سوانا، نحبها بأعين الذين نحبهم، المطر والزجاج والموسيقى والماسحتان أمثلة جيدة على تلك الأشياء.

هذا هو أول موعد بينها وبين أحمد يحدث في غيابي، فاروق في رحلة خارج البلاد مع منتخب الشباب في الأرجنتين، ووجودي معها عندما تلتقي أحمد لم يعد أمرًا ضروريًا، هي تغيب عن المدرسة وتلتقيه، لم تكن في حاجة إليّ لأكون دليل إثبات أمام أمها، لكنها في اليوم التالي، تستخدمني شاهدًا أمام معاونة المدرسة، لتأليف قصة جديدة عن سبب غيابها:

- ست ترى نادية مخطوبة وتخجل تگول.

هذا هو العذر الأخير الذي بقي معي في ذلك اليوم، لقد قلت أعذارًا كثيرة في السابق، بعضها صدقتها المعاونة وبعضها لم تصدقها لكنها كانت تبتسم في كل الأحوال.

تسرب خبر خطوبة نادية الذي لفقته أنا أمام المعاونة إلى المدرسات، ثم انتقل بطريقة سريعة إلى أفواه الطالبات، وتحول بعد ذلك إلى أغنية تخص نادية وحدها.

- صدك مخطوبة يا فلانة... وصدك باجر يزفونج.

تغني بيداء في الصف بصوتها الساحر، وسط إيقاعات تصنعها أنامل البنات على الرحلات، في حين تراقب إحدانا الممرات من باب الصف شبه المغلق وهي تنقر بأصابعها عليه.

تصعد وجدان فوق الرحلة وهي ترقص منتشية، تتشجع البنات ويتقافزن فوق مقاعدهن في لحظة جنون صنعتها إشاعة، يرتفع صوت

الإيقاعات وتهتز الخصور وتحل الفوضى، تضرب ست أروى باب الصف بقوة وعصبية لتعيد الهدوء في ثانية واحدة، تحدق في وجوهنا واحدة واحدة، تقف فخورة بنفسها أمام صمتنا المفاجئ ونحن نجلس مثل تماثيل خشبية بلا أدنى حركة، تبدأ شفاهها بالابتسام ثم تنفجر ضاحكة وتغادر، تعود بيداء إلى الغناء بصوت منخفض، تترك وجدان الرقصة لنادية وحدها، عندما ترقص نادية على الجميع أن يفسح لها المجال.

في مساء هذا اليوم، كان منتخبنا الوطني للشباب يواجه منتخب كندا في الأرجنتين، فرغت شوارع المحلة من الناس الذي جلسوا أمام التلفزيون، في الدقيقة ٢٣ من المباراة يسجل فاروق هدفًا في مرمى الفريق الكندي، ينزع قميصه الأسود الداكن الموشح بعلم العراق أمام عدسات التلفزيون لتظهر خارطة العراق مرسومة قريبًا من قلبه، خرجت المحلة كلها إلى الشارع، وتجمع الصغار يتبعهم برياد عند باب بيت أم فاروق وهم يهتفون:

- هكذا يلعب المحاصرون.

نحن الشعب الوحيد في هذا العالم، عندما يسجل فريقنا الوطني هدفًا في شباك الخصم نبكي.

(١٧)

من الغرائب التي لا يكف برياد عن مفاجأة عمو شوكت والمحلة بها، أن لون ذيله صار أبيض لا يشبه لون جسده الأسود، صار منظره غريبًا، ليس لدى محلتنا خبرة سابقة بالكلاب، لنعرف ما إذا كان ذلك يحدث بشكل طبيعي مع الكلاب الأخرى، أم أن الأمر يتعلق بهذا الكلب الغريب الأطوار الذي دخل حياتنا وأصبح جزءًا منها.

ـ الكلاب يغزوها الشيب من ذيولها والقطط من آذانها.

قال أبو حسام ذلك بثقة كبيرة أمام مجموعة من أصدقائه المتقاعدين، الذين تعودوا اللقاء يوميًا أمام دكان أبي نبيل، استمع أحد الأولاد إلى حديثهم، وأذاع مضمونه على أصدقائه مع بعض الإضافات بالطبع، من دون تردد تم تبنّي هذه النظرية حقيقةً علمية ثابتة لا تقبل الجدال، ولزيادة توكيد صحتها صرنا نراقب آذان القطط، ونلاحظ التبدلات التي تجري عليها مع تقدم العمر، وبالمصادفة وحدها، تحول لون آذان جميع القطط في محلتنا إلى الأبيض.

تبول برياد في هذا الأسبوع أمام بيتين من بيوت الجيران، وهذه من علاماته التي نعرفها، هاجرت إحدى العائلتين منتصف الأسبوع، واستعدت العائلة الثانية للهجرة، القرار النهائي قد تم اتخاذه وبقي التنفيذ، طبعت هذه الأنباء غير السارة علامات الحزن على الوجوه جميعها، إن هجرة عائلة من المحلة لا تقل ألمًا عن استئصال عضو من الجسد.

هاجرت عائلة وجدان هذا الأسبوع، هاجرت وجدان وهاجرت أختها سماح وهاجرت أختها طيبة وهاجر أخوهما مهاب وهاجرت أمهم الدكتورة شفاء وهاجر أبوهم.

أغلق الباب بسلاسل حديدية، وتركت مفاتيحه مع رسالة طويلة موجهة لعمو شوكت فيها كلمة وداع مؤلمة لكل المحلة.

وسط هذه الأجواء الحزينة، ظهر المشعوذ في الشارع ثانية، وقد تخلص من لحيته تمامًا، ووضع على عينيه نظارة سوداء غامقة، من تلك التي يستخدمها مكفوفو البصر في العادة، كما أضاف إلى مظهره أشياء جديدة، من بينها أنه يحمل عصا طويلة لا يتوكأ عليها بل يحركها في الفراغ، ويضع تحت إبطه كتابًا قديمًا بغلاف مهترىء، يمشي بخطوات واثقة وهو يصفّر لحن أغنية (غريبة الروح).

انتشر خبر ظهوره المفاجئ سريعًا، خرج برياد لاستقباله تتبعه بعض النسوة، كل واحدة منهن تقول له تفضل في بيتي... (الله يخليك تعال عدنا).

لكنه فضّل هذه المرة أن يدخل بيت أم مصطفى، لأنه يعرف أنها ستهاجر مع عائلتها بعد أيام، كلنا نعرف ذلك أيضًا، لأن برياد رفع ساقه وتبول على باب بيتهم.

جلس على كرسي مصنوع من الألمنيوم وشرائط البلاستيك العريضة، حملته له أم مصطفى من داخل البيت إلى الحديقة، رمى بجسده عليه، ومدد ساقيه إلى الأمام، وهو يلوّح بعصاه في الهواء،

أحاطت به النساء من كل اتجاه، تنحنح ونظر إلى أم مصطفى وشكرها على استقبالها له ثم قال لها ببرود:

- أتمنى لك وللعائلة رحلة سعيدة، سيطول بقاؤكم في الأردن بعض الشيء ولكن لا تخافي، بعدها سيكون كل شيء على ما يرام، هذه آخر مرة أراك فيها، تسلحي بالصبر وكوني قوية، الغربة دواء مُر لابد من تذوقه، سيبقى طعمه في فمك إلى النهاية.

وعندما قاطعته شروق باكية، تبسم لها بخبث وقال لها:

- زواج سعيد مقدمًا، أنت اتخذت قرارك وانتهى كل شيء.

لم ينظر إلى وجهها ثانية، في إشارة إلى أنه ليس لديه ما يقوله لها، فهمت هي هذه الرسالة وغادرت على الفور حديقة أم مصطفى وهي تلعن في سرها الساعة التي رأت وجهه فيها.

أمر النساء بالهدوء والجلوس أمامه على العشب، ووضع يده اليمنى فوق جبينه يتحسس درجة حرارته ثم صمت دقيقتين وراح ينظر في وجوههن، فتح كتابه ومرر عينه سريعًا على بعض صفحاته، أغلق الكتاب ووضعه جانبًا وقال بصوت يخرج من صدره مباشرة:

- ليس لأي منكن مستقبل في هذا المكان إطلاقًا.

وقبل أن تنطلق الهمهمات، سأل إحداهن لا على التعيين عن اسم ولدها البكر وعندما أجابته، ذكر لها اسم رب العائلة واسم أبيه وجده، فتحت فمها متعجبة من قدرته العجيبة على معرفة هذه الأمور الشخصية مع أنها لم يسبق لها أن التقته غير المرة السابقة في بيت جارتها أم نوار،

سأل امرأة أخرى السؤال نفسه، فكان الجواب نفسه، غرقت النساء في الصمت وهن يتأملن وجهه وملامحه الوقورة وصمته الطويل بعد كل مرة يتحسس فيها جبهته.

قال لأم نادية قبل أن تسأله: ستهاجرين مع العائلة إلى سورية، سيترككم ابنك الوحيد بعد سنة من استقراركم هناك ويهاجر بدوره إلى أستراليا، هزت رأسها مستغربة وسألته عن مستقبل ابنتها، فابتسم لها ابتسامة مريحة لكي يطمئنها ويتهرب من التفاصيل.

قال لأم فاروق: إن ابنك سوف يعتزل كرة القدم مبكرًا، ويتزوج في بلاد بعيدة، وإن زوجك سيعود إليك بعد أن يشيخ في العمر ويصبح من دون فائدة.

أخبر أم بيداء بهجرتها ومصير ابنتها، ثم استدار نحو أمي وقال لها:

- إن ابنتك ستحمل معها المحلة أينما ذهبت وتحميها من النسيان.

تحسس جبهته وصمت دقيقتين، عاد يركز في وجه أمي، التي كانت تفكر في مغادرة بيت أم مصطفى في هذه اللحظة، لكنه طلب منها التريث قليلًا بإشارة آمرة استخدم فيها عصاه كأنه عرف نيتها، قال لها بطريقة مسرحية:

- إن - المستقبل - سينكشف - أمامها.

حمل كتابه ونهض تاركًا عصاه تستند إلى ظهر الكرسي، الذي كان يجلس عليه ودار في الحديقة من دون أن يركز نظره في مكان محدد، وقف خلف النساء اللواتي استدرن نحوه ينتظرن منه خبرًا عن المجهول،

عاد ينظر في وجوههن واحدة تلو الأخرى، أطلق آهة حارة من صدره وتحسس جبينه...

ـ ليس لأي منكن مستقبل في هذا المكان إطلاقًا.

أعاد عليهن هذه الجملة وراح يضيف إليها:

يعيش الإنسان في هذه الدنيا بقدرين، الأول قدره الشخصي، والثاني قدره مع من عاش معهم، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش لوحده، ولكن عليه أولًا أن يعيش، أن يبقى، أن يكون موجودًا ثم سيعثر على آخرين يعيش معهم.

عندما توشك السفينة على الغرق، يفكر المسافر على متنها في قدره الشخصي مباشرة، ويهمل أمر الآخرين، يريد أن ينجو بحياته قبل كل شيء، فيقفز إلى قارب النجاة في أول فرصة، وبعد أن يصل إلى الشاطئ، يبدأ بالبحث عن ناس يعيش معهم بقية حياته، لكنه للأسف سيفشل لأنه سيبقى مشدودًا بقوة الذاكرة إلى غيرهم، إلى أولئك الذين تطور بينهم تاريخه الروحي، لذلك سيبقى غريبًا إلى الأبد، هل تعرفون جيدًا معنى أن يكون الإنسان غريبًا إلى الأبد؟ أن يتنازل عن اللهجة التي تأسس في داخلها تاريخه الروحي؟ هو أن يمضي بقية حياته ضد قوانين هذه الروح، لذلك كانت الغربة وفي كل الأزمان هي غربة الروح، نزاع أبدي بين الجسد والروح يمزق وجوده ويرميه في العاصفة.

توقف المشعوذ في مكانه وراح يترنم لحن أغنية (غريبة الروح)، رددتها معه الأشجار والطيور والهواء وامتلأ المكان بلحن يتسلل إلى

أرواح الجميع ويعبث بها، بعد أن انتهى من ترنمه نظر إليهن وعلى وجهه نصف ابتسامة:

أعرف أن هذه المحلة غالية على قلوبكم، والذكريات فيها غالية على نفوسكم، والأرض التي ملأ هواؤها صدوركم هي أغلى أرض في هذا العالم، ولكن ماذا ستفعلون والسفينة توشك على الغرق؟

على قوارب النجاة، ستمضون ما تبقى من حياتكم تأرجحكم الأمواج العاتية في عرض المحيطات، لا شواطئ قريبة تلجؤون إليها، ولا مرافئ صديقة تتوهج مناراتها في لياليكم.

حتى البلاد البعيدة التي ستطؤها أقدامكم، ستعاملكم سلعًا روحية مركونة في مستودع النسيان، سيطول عليكم ليل البكاء، ستدفنون موتاكم في مقابر أنيقة، يرقدون فيها تحت الورود الصلفة.

الموتى... ربما هم السعداء الوحيدون من بينكم، ستغادر أرواحهم الأرض الغريبة كل مساء لتأتي إلى هنا وتطوف في سماء المحلة، سيطرقون أبواب بيوتهم التي عاشوا فيها أجمل سني عمرهم، ولكن للأسف، سيفتح لهم هذه الأبواب ناس غرباء، ستنكرهم البيوت بدورها وتنسى أنفاسهم التي طبعت على جدرانها، لكن الموتى لديهم حرية العيش في الزمان والمكان اللذين يرغبون فيهما، سيجتمعون ثانية عند دكان أبي نبيل كل مساء ويثرثرون حتى تختفي أشباحهم.

لست هنا لأزرع اليأس في نفوسكن، لا تعتقد إحداكن أنني مجرد نذير شؤم أو عصفور نار، أنا أقول لكنّ كل ما أعرفه.

أقول ذلك من أجلكم ومن أجل أبنائكم ومن دون مقابل، حتى كلمة شكرًا لا أريدها. إن هذا الحصار طويل ولن ينتهي قريبًا، وعندما تأتي نهايته، ستبدأ الحرب وبعدها سيتلاشى كل شيء في النسيان.

سينكر الجار جاره، والصديق صديقه، والأخ أخاه، سترمى جثث الناس في الليل للكلاب، وستختنق الأرصفة بالموت، ويدخل الرعب إلى بيوتكم من الشبابيك، أنتم الطبقة الوسطى التي عليها يبني المجتمع أركانه، ليس لديكم سلاح تدافعون به عن أنفسكم، أنتم الأرض الحرام لكل حرب، أنتم هدف سهل المنال لكل الأسلحة التي تتقاطع فوق رؤوسكم.

ستعيش محلتكم نهارات جافة بهواء يلفح الوجوه، يتجول فيها الموت مثل ريح عاصفة في قرية مهجورة، سيولد الرعب مع كل غروب للشمس وينام في أسرَّتكم، سيظهر الغرباء فجأة من البيوت المهجورة وهم يتحدثون بلغة غريبة عنكم، يطلقون النار بدم بارد ومن دون أن تطرف لهم عين، ينهمر الرصاص في كل اتجاه، يخترق الأجساد البريئة من دون ضجة، سيمر أحدكم على جثة جاره وهي ملقاة في الطريق، ويتحسس نفسه ويشكر السماء أنه مازال يتنفس، تنفسوا الهواء البعيد قبل أن ينفد الهواء هنا.

صمت قليلًا، نظر إلى الساقية التي من جهة اليسار، تناول عصاه وأشار بها إلى نبتات الورد التي تتوزع بغير انتظام تحركها نسائم خفيفة:

ـ ليس هناك ما هو أكثر وحشة من وردة تتفتح صباحًا في حديقة بيت مهجور.

عاد وتناول كتابه وتوكأ على عصاه من دون أن يكون في حاجة إلى ذلك، نهض وغادر على الفور يتبعه برياد حتى نهاية الزقاق ثم رجع مهرولًا يطأطئ رأسه حزنًا.

خيم الصمت على النساء لدقائق خوفًا من المجهول، من المستقبل الغامض، من المغامرة في الرحيل ومن المجازفة في البقاء.

ـ كذاب.

قالت أم فاروق وهي غير واثقة تمامًا من كلمتها.

ردت عليها أم مصطفى:

ـ ليس كذابًا، زوجك لن يعود إلا بعد أن تمتص التونسية عافيته وترسله إليك في البريد خرقة بالية.

قالت أم فاروق: لا أدري.

قالت أمي: لم يطلب لقاء كلماته دينارًا واحدًا فكيف يمكن أن يكون كذابًا!

ـ أجابت أم فاروق: لننتظر ونرَ.

ـ قالت أم بيداء: يجب ألّا ننتظر طويلًا.

أعلنت ساعة بغداد الثالثة عصرًا، نهضت النساء من أماكنهن وتوجهن نحو أم مصطفى يودعنها بدموع حارة، وهن يأخذنها بالأحضان ثم انصرفن إلى بيوتهن.

(١٨)

دخل برياد إلى حلم نادية وقال لها: تعالي معي، رفع ذيله الأبيض وهو يخطو أمامها ودخل بيت أبي حسام وتوجه إلى المكان الذي تتمدد فيه ابنتهم ميادة، نظرت نادية في ملامحها ووجدتها ميتة، رفعت كفها عن الأرض وضمتها إلى صدرها، مالت ميادة برأسها إلى الجانب الآخر وأغمضت عينيها، تراجعت نادية خطوة إلى الخلف مندهلة من حركة الميتة، ثم تقدمت منها وأخذت كفها ورفعتها تتحسس نبضها، حركت ميادة شفتيها وخاطبت نادية:

ـ أجلسيني.

انحنت نادية وساعدتها على الجلوس وأسندت ظهرها إلى إطار سيارة قديم كان مركونًا قريبًا منها.

ـ من قتلك؟

ـ حسام... أخي حسام.

ـ لماذا فعل ذلك؟

ـ قبل أيام راجعت عيادة الدكتور توفيق... هل تعرفينه؟

ـ لا... أجابت نادية.

ـ هو طبيب شاب افتتح عيادته قبل شهرين في رأس الشارع، كانت رقبتي تؤلمني ولم أتمكن من النوم على الجهة اليسرى من شدة

الألم، فذهبت إليه، وبعد أن فحصني نظر في عيني وابتسم لي بحنان، ثم ترك لي بشكل متعمد رقم هاتفه المنزلي مع وصفة الدواء.

قررت بعد تردد طويل أن أتصل به، لأنه شاب طيب وأعجبتني ابتسامته، رفعت سماعة تلفون المنزل ووضعت إصبعي عند الرقم ثلاثة، وهو أول رقم من أرقام تلفونه وكاد نفسي ينقطع من الخجل والارتباك، دورت بقية الأرقام الأخرى بصعوبة، رن التلفون في بيته وكاد قلبي يخرج من فمي.

- أجلسيني جيدًا، إن ظهري يؤلمني.

حملتها نادية وأسندت ظهرها إلى الحائط مباشرة وسألتها:

- ماذا جرى بعد هذا الاتصال؟

- بعد هذا الاتصال، طلب الطبيب أن يراني مرة ثانية، ثم تطورت قصة علاقة بريئة بيننا، لقد أحببته وشعرت معه بالأمان، كان طيب القلب وتعجبني ابتسامته.

في هذه الأيام صرت أقف طويلًا أمام المرآة المثبتة على الجدار في المدخل، أبحث عن نفسي التي أهملتها مدة طويلة، عدت أهتم بشعري الذي أهملته هو الآخر، واشتريت علبة (ميك آب) جديدة، وصرنا نخرج سويًا عندما يكون لديه وقت فراغ.

كنت سعيدة معه حتى نهار هذا اليوم التعس، ذهبنا إلى المشتل القريب من المتنزه واخترت له بعض أصص الورد والنباتات التي أحبها، قال لي إنه سوف يبني لنا بيتًا صغيرًا فيه حديقة لكنها ليست

كبيرة، فرحت أنا كثيرًا وقلت له: ستكون أجمل حديقة في العالم، يلعب فيها صغارنا، فضحك ووضع يده على كتفي، فسحبت نفسي منه وأنا أكاد أموت من الخجل.

وضعنا النباتات في صندوق السيارة وذهبنا معًا نتجول في المنصور، نزل هو عند مرطبات الرواد يشتري لنا بعض المثلجات وبقيت أنا لوحدي في السيارة، مرّ إلى جانبي حسام في سيارة أجرة وشاهدني أجلس في سيارة توفيق، أغمي عليّ في الحال من الخوف، لأن حسام عصبي ويحب المشاكل، جاء توفيق بعد دقائق وطمأنني وقال لي إنه سيأتي بعد غد ليخطبني من أهلي، فرحت كثيرًا وقبلته من خده وهذه أول مرة أقبله فيها، صدقيني هذه أول مرة أقبله فيها.

في المساء، جاء حسام إلى البيت غاضبًا، ووجدني أغني في المطبخ، قال لي أريد أن أتحدث إليك، لكنني تجاهلته، لأنني أعرف أنه يريد أن يبدأ مشكلة، جاء وجرني بقوة من ثوبي:

- ماذا تفعلين بسيارة الطبيب؟

- توفيق يريد أن يتزوجني.

- يتزوجك عند محل مرطبات؟!

- سيأتي هنا بعد غد ويخطبني، سأتزوجه ولن أرى وجهك المكروه ثانية.

أصيب حسام بنوبة هستيريا مفاجئة، وأصبح يصرخ مثل المجنون ويرميني بالصحون والأقداح، ثم أسرع نحو خزانة والدي، أخرج المسدس من الدرج ووجهه إلى صدري.

أصيبت المحلة بصدمة شديدة بعد هذه الحادثة المروعة التي انتشر خبرها وجاءت الشرطة وكشفت على موقع الجريمة، بالفعل كان هذا اليوم يومًا أسود خلّف جرحًا عميقًا في نفوس الجميع.

كل الناس في المحلة، يحبون ميادة المعروفة بطيبتها وحبها لمساعدة الآخرين، فهي دائمًا تساعد الأمهات بعد الولادة في تدبير أمور المنزل، وتنتقل في أيام الامتحانات من بيت إلى بيت من أجل تقديم دروس مجانية للطلاب والطالبات، ولما كانت تدرس في كلية الزراعة وحتى بعد تخرجها، ساعدت الجميع على ترتيب حدائقهم وتقديم النصيحة فيما يتعلق بالسماد ونوع التربة وكمية المياه المطلوبة، وإليها وحدها يعود الفضل في أن حدائق محلتنا هي الأكثر اخضرارًا وترتيبًا من سواها.

كان أبوها مديرًا في شركة السكك الحديد، تقاعد من عمله منذ وقت بعيد، أما شقيقها حسام، فقد كان شخصًا غامضًا لا يلتقي أحدًا من أبناء المحلة، ولا يسلم على الآخرين، يكره برياد وقد ضربه مرة على فمه بحذائه، وكانت أول مرة يتعرض فيها الكلب المحبوب لإهانة من أحد أبناء المحلة، فراح يصيح من الألم لكنه لم يخبر عمو شوكت بذلك.

كان حسام عصبيًا على الدوام، يتقلب في قراراته، تقدم قبل سنوات لخطبة وفاء بنت أم علي ثم فسخ الخطوبة من دون أن يقول لها ولأهلها لماذا لم يعد يريد الزواج بها، كان يأتي في بعض الأوقات سكرانًا، فيسقط في الطريق ويحمله الأولاد إلى بيتهم، ثم نتفاجأ به بعد مدة ليست طويلة، وقد أصبح شديد التدين ويتردد على المساجد كثيرًا،

يختفي أوقاتًا متباعدة ثم يعود ويوزع بعض الكتب الدينية بين الجيران من دون مناسبة.

تخرجت ميادة في الجامعة حين كنت أنا في المتوسطة، تم تعيينها في محافظة بعيدة، رفضت الالتحاق بوظيفتها وفضلت البقاء في البيت، وسنة بعد سنة فقدت جمالها ونضارتها وصار لديها شعور بالإهمال واليأس، وعندما ابتسمت لها الدنيا ووقع الدكتور توفيق في حبها رحلت عن هذا العالم.

اعتقلت الشرطة أبا حسام أيامًا عدة ثم أطلقوا سراحه لأن ابنه المتهم حسام وصل إلى الأردن وأصبح بعيدًا، عاد الأب إلى عادته القديمة في الجلوس عند دكان أبي نبيل مع مجموعة من الجيران المتقاعدين، الذين تعوّد على الجلوس معهم ساعات طويلة من دون ملل، يحكي لهم قصصًا مشوقة عن حياته في القطارات، والغرائب التي تحصل فيها، لكنه بعد حادثة مقتل ابنته صار قليل الكلام، ولم يسمع أحد منه تصريحاته الحاسمة، التي لا يقبل النقاش بشأنها سوى تصريح واحد:

- يبدو أن هذا المشعوذ كان على حق.

كانت هذه أول مرة يتفق فيها أبو حسام مع أبناء المحلة في توقعاتهم، عندما أدرك ذلك صمت قليلًا وراح يغيّر مجرى الحديث.

(١٩)

كنا أنا ونادية نتذكر الحلم ونحن في الطريق إلى المدرسة، تحدثنا عن ميادة وعن عائلتها، عندما شاهدنا (برياد) يلهو في الشارع، تذكرنا كيف ضربه حسام على فمه وأصبح برياد يكرهه ويتجنب الاقتراب من بيتهم.

أنا ونادية نخلط الأحلام بالحقائق، الأوهام بالوقائع، لكنها تنسى وأنا أتذكر، في هذا اليوم خرج فاروق من البيت وهو يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا رياضيًا ومن دون أن يسد الباب خلفه راح يتبعنا، عندما انعطفنا باتجاه الساحة الصغيرة، التي تفصل شارعنا عن المدرسة، اقترب مني وقال لي وهو يواصل سيره:

ـ مشتاقلج ولازم أحجي وياج.

ودعت نادية بإشارة سريعة وتركتها تواصل طريقها وتبعته، أنا مشتاقة إليه إذ لم ألتقيه منذ سفره إلى الأرجنتين، لتذهب المدرسة وأبو المدرسة إلى الجحيم، كنت أنظر إليه من الخلف وهو يتقدمنا، كنت أشعر: أن كل خلية في روحه تعود إليّ، أحبه وأتمنى أن يحملني أمام الناس ويقول لهم أحبها.

بلغنا الشارع الخلفي المجاور لشارع السوق، ومن هناك توجهنا إلى الشارع العام، ثم سلكنا الطريق باتجاه ساعة بغداد.

جلسنا في الحديقة المقابلة للساعة بعض الوقت، وكنت أنا قلقة

بعض الشيء لأنني أول مرة أغيب عن المدرسة، وفي الوقت نفسه كنت حزينة لأن ميادة قتلها أخوها، لكن فاروق كان مسافرًا ولم أره منذ مدة طويلة وهو لا يحب أن يفسد فرحته بالفوز أي شيء في هذا العالم.

حاولت أن أكون معه على طبيعتي، لكنه عرف أن تفكيري مشغول عنه، فأخذ بيدي وذهبنا إلى متنزه الزوراء، وفي الطريق كان يتحدث إليّ من دون توقف وهو يصف لي رحلته إلى الأرجنتين، كان يقول لي:

-إنهم في الصحافة أطلقوا عليّ لقب مارادونا العراق.

وأنا لا أعرف من هو مارادونا، لكنني خمنت أنه أحسن لاعب كرة قدم في العالم، فابتسمت بوجهه ابتسامة لأشجعه على مواصلة حديثه، لكنه صار ينظر إلى الشارع والرصيف والأوساخ المرمية في الطريق ويقارنها بمدينة بوينس آيرس النظيفة التي أعجبته، قال: إن شوارعها جميلة جدًّا وبناياتها عالية وليس فيها غبار مثل هذا الغبار، وقال لي أيضًا: كلما شاهدت فتاة أرجنتينية جميلة تذكرتك واشتقت إليك، وعندما دخلنا حديقة الزوراء استدرجني بين الأشجار، نظر يمينًا وشمالًا كأنه يخطط لعمل ما، اقترب مني بسرعة وسرق من شفتيّ قبلة خاطفة، دفعته يداي لا شعوريًّا إلى الخلف بعيدًا مني، استدركت خطأي على الفور، حاولت أن أفلت منه لكنني شعرت بدوران شديد وفقدت توازني، وكدت أسقط في الساقية بعد أن سقطت حقيبتي من يدي، كرهت فاروق وقررت أن أتركه وأعود إلى المدرسة، لكنني جلست على الأرض ووضعت يدي على عينيَ ورحت أبكي.

جلس فاروق بعيدًا مني وهو نادم على تصرفه، بعد قليل اقترب

مني يعتذر، ولا أعرف لماذا تمنيت في هذه اللحظة أن يقبلني مرة أخرى، مسكت يده وشعرت بحرارة أصابعه، فراح يمسح دموعي بيده الثانية لكنه لم يقبلني، بقيت متمسكة بيده، هذه أول مرة أشعر فيها أنني احبه كل هذا الحب، كان قريبًا جدًّا من روحي، صار جزءًا مني وكنت خائفة من أن يبتعد عني.

- آني أحبك.

- وآني هم أحبك واعذريني على تصرفي.

- عادي... بس بعد لتعيدها.

- وإذا عدتها؟

- أموتك.

- راح أعيدها.

- خلي أغمض ودير بالك تعيدها.

أغمضت عيني وانتظرته لكنه لم يقبلني، فتحت عيني ووجدته يضحك.

- تعرفين أنت تصيرين أحلى من تغمضين.

- ليش عيوني مو حلوة؟

- لا عيونك تخبل بس أنت أحلى من تغمضين.

- تريدني أغمض؟

- إي.

- لو تموت ما أغمض.

حملت حقيبتي ونظفتها من التراب ومشيت أمامه بسرعة وهو يتبعني ويتوسل إليّ لكي أتوقف، لكنني واصلت طريقي نحو باب المتنزه، أسرع في خطواته لكي يكون قريبًا مني، تجاهلته ورحت أغني مع نفسي وهو يضحك.

سمعت دقات ساعة بغداد وهي تعلن العاشرة صباحًا، نظرت في عينيه وقلت له: أريد أن أذهب إلى المدرسة، لا أريد أن أغيب اليوم كله، صار ينظر إلى الأرض وهو يقول:

ـ آني أحبك أكثر من كل الدنيا.

عبرت الشارع وكادت تدهسني سيارة مسرعة، التفت نحو فاروق أطمئنه إلى أنني بخير، لكنه كان قد غادر المكان في الاتجاه الآخر واختفى.

تغير في هذا اليوم كل شيء في حياتي، صرت أشعر بأنني فتاة سعيدة، لكنها ليست طيبة وبريئة، شعرت بحاجز كبير بيني وبين العالم، بيني وبين ماما وبابا، كنت وحدي في الطريق لكن الناس ينظرون إليّ من خلف نوافذ السيارات ويقولون مع أنفسهم هذه البنت ليست لها شفتان.

رفعت أصبعي أتحسس شفتيّ فوجدتهما أكبر مما كانا عليه، وشعرت بألم خفيف وتخيلتهما شفتين زرقاوين، عندما وصلت إلى المدرسة دخلت إلى الحمام وأخرجت علبة الهندسة من حقيبتي، فتحتها ورحت أنظر إلى وجهي على صفحة غلافها الداخلية التي تعكس

الضوء مثل مرآة، كانت شفتاي طبيعيتين وليس هناك أي أثر للقبلة عليهما، ذهبت للمعاونة واعتذرت عن تأخيري، كانت المعاونة مشغولة مع مشرفة تربوية تزور المدرسة فأعطتني إشارة من يدها بالذهاب، فذهبت إلى الصف وجلست مع نادية وهي تضحك، قربت فمي من أذنها وقلت لها:

- عندي سر.

- شنو؟

- ما آكول.

- لا عفية كولي.

وضعت إصبعي فوق شفتي وقلت لها:

- فاروق قبلني!

ابتسمت نادية من أعماقها:

- إنتِ شكد قديمة.

- عزة العزاج نادية.

(٢٠)

أحيل عمو شوكت على التقاعد من وظيفته في البنك المركزي، وأصبح بلا عمل ينهض من أجله في الصباح الباكر ويدير محرك سيارته القديمة ويذهب إليه.

لديه الآن كمية كبيرة من الوقت لا يحتاجها، ينهض في الصباح الباكر، يتذكر أن ليس عليه الذهاب إلى الدوام فيعود ويحني رأسه على الوسادة لكنه لا ينام.

ينهض ثانية، يدخل المطبخ ويعد إفطاره، يتناوله على أنغام موسيقى عراقية قديمة في الراديو، كان قد تعود سماعها يوميًّا في سيارته الفولكس واغن وهو في طريقه إلى العمل.

يفتح باب البيت، يخرج نصف جسده في الشارع ويبتسم للأطفال وهم يذهبون إلى مدارسهم، يعقف يديه خلف ظهره ويتمشى ببيجامته حتى رأس الشارع، وهو لا يدري هذه الساعة إذا كان يتعين عليه أن يشعر بشيء من الخجل لأنه صار بلا عمل يؤديه، نعم... كان هذا الشعور يزعجه، إنه رجل بلا فائدة، لم يجلب له أحد ما بعد هذا اليوم أوراقًا مهمة تتعلق بحركة الأموال في البنك المركزي.

كان كل يوم تقريبًا يترك توقيعه على عشرات الملفات التي توضع على مكتبه بعد تدقيقها بطريقة لا يدخلها الخطأ.

في السنوات الأخيرة، شحت الأوراق الرسمية التي عليه توقيعها وتراكمت العملات النقدية أكداسًا عالية تثير اشمئزازه، تغيرت العملة

وقيمتها، وتبدلت أوراقها وراثحتها، اختفت العملة المعدنية، اختفى الربع دينار، اختفى النصف دينار، اختفى الدينار نفسه، الدينار العراقي اختفى وصار ذكرى من زمن آخر.

عاد يطأطئ رأسه خجلًا عندما تذكر أنه خرج ببيجامته في الشارع، هذه أول مرة يفعلها في حياته، يدخل البيت ويغلق الباب، يجلس على كرسيّه وسط الحديقة ويتناول كتاب تقاعده من جيبه حيث وضعه ليلة البارحة، يعيد قراءته غير مرة، وهو غير مصدق أن هذه الورقة شبه الشفافة بسطورها الأربعة أنهت خدمته الطويلة، التي جاوزت ربع قرن من الذهاب إلى العمل والعودة منه يوميًّا، قال مخاطبًا برياد الذي يجلس أمامه متعجبًا من عدم ذهابه بعيدًا منه هذا الصباح كما كان يفعل كل يوم:

ـ هذه الورقة يا صديقي، تشبه العملة القديمة، ورقة واحدة تعادل الكثير، تساوي ربع قرن من الخدمة لدى الحكومة.

هز برياد رأسه، واقترب من صاحبه، الذي مرر يده فوق ظهره يداعبه بحنان.

نهض عمو شوكت من مكانه ودار في الحديقة من دون أن يعرف ما الذي يجب أن يفعله في مثل هذا الوقت، التقط بعض الطحالب التي نبتت تحت شجرة الرمان، شطف يديه من حنفية الحديقة وترك الماء يجري في الساقية، اندفع سيل الماء يحفر أخدودًا نحيفًا في الأرض ويشق طريقة في تربة الساقية الرخوة، شاهد غصنًا صغيرًا يقاوم حركة اندفاع المجرى متشبثًا بحجارة اعترضت طريقه وسط الساقية، انفلت

الغصن منها تدفعه قوة تدفق الماء، ظل عمو شوكت يراقبه حتى غاب عن عينيه، عاد ينظر إلى الكلب ويقول له:

نحن أيضًا يا برياد، مجرد عيدان صغيرة تدفعنا أمواج هذه الحياة غير المبالية، أعواد متيبسة تخلت عنها الأشجار وتركتها ملقية على أرض المصادفة، ربما يجرفها سيل ساقية صغيرة، أو يلتقطها منقار طائر يبني منها عشًا على هذه الأشجار، لنعود إليها ليس بصفتنا أغصانًا سابقة، بل بصفتنا مواد بناء لبيوت العصافير، حتى يوم أمس كنت أنا غصنًا أخضر في شجرة الوظيفة وسقطت على الأرض متيبسًا تعبث بي مياه الفراغ القاتل.

سبعٌ وعشرون سنة يا برياد وأنا معلق بجذع الشجرة التي تتخلى عني هذه الأيام، كم كان ذلك اليوم البعيد سعيدًا، دخلت مبنى البنك المركزي موظفًا شابًا ببدلة جديدة اشتراها أبي من شارع الرشيد، اشترى لي معها ربطة عنق داكنة وحذاءً أسود من محال باتا، جلست على مكتبي وتمنيت لحظتها أن تراني أمي، تراني هكذا أجلس على الكرسي، أقلب الأوراق المهمة على مكتبي وأوقع عليها.

توفيت أمي وتوفي أبي وأنا أوقع الأوراق على مكتبي الخشبي الصغير، أحببت نادرة ورفضني أهلها في البداية، لكنها تزوجتني ولم تستمع إلى نصائحهم، وبعد سنوات من العشرة تركتني وحيدًا وذهبت تعتذر منهم لأن حياتها معي صارت مملة، لم أعد أصحبها إلى السينما مثلما كنت أفعل في سالف الأيام، لم نذهب منذ زمن طويل إلى المسرح، ولم نسافر إلى دهوك والعمادية وسواره توكة.

يا زوجتي العزيزة، ليست حياتي هي المملة، الدنيا كلها صارت مملة، الجيران الذين تحبينهم، هاهم يغادرون بيوتهم بيتًا بعد بيت، الوجوه التي عشنا معها تغادرنا يا نادرة، تعالي وانظري إلى محلتنا، إلى الأبواب الصدئة والحدائق المهملة التي يعلوها غبار الأيام. الحياة يا زوجتي ليست هي كما تركتِـها، كل شيء هنا يتبدل سريعًا.

ذرف دمعة، ومشى نحو غرفة النوم، غيّر ملابسه ببدلة العمل القديمة، خرج إلى الحديقة مرة أخرى، تناول ماكنة قص العشب وصندوق العدد اليدوية، وخرج من البيت يتبعه برياد ليتفقد بيوت الجيران المهجورة، ويتأكد من إحكام إغلاق أبوابها ويعتني بنباتاتها، يكتب قطعًا من الكارتون السميك ويعلقها على هذا الجدار أو ذاك، (البيت للإيجار)، (البيت للبيع).

تهدلت بذلته الرسمية في هذه الأيام، تنازل عن ربطة عنقه وأصبح حذاؤه في حاجة إلى تبديل، لم يعد فيه مكان لرقعة جديدة، استبدله بحذاء قديم وجده في مخزن المهملات تحت سلم البيت، طالت لحيته وصارت بيضاء مبقعة بالسواد الكئيب، صار عمو شوكت كثير الشبه بمحلتنا.

اختفى منظر الحدائق الجميلة من أمام البيوت تدريجًا، وحلت محلها المشتملات التي تبنى عليها ملحقات إضافية لسكن الأولاد المتزوجين حديثًا، أو ملحقات صغيرة بأبواب جانبية، يعرضونها للإيجار من أجل أن تساعدهم على توفير موارد دخل إضافية، بعد أن أصبحت الرواتب بلا قيمة حقيقية.

اختفى وجه محلتنا الأخضر، واختفت معه تدريجًا رائحة الورد والقداح والعشب، اختفت رائحة الماء وهو يلامس طابوق الحيطان القديمة، كبرت محلتنا الفتية وأصبحت عجوزًا تفقد ذاكرتها تدريجًا، ازداد عدد السيارات العاطلة وهي تخنق الشوارع وتعرقل حركة المرور فيها، تراكم السكراب عند الأبواب، خرج المراهقون إلى سوق العمل يساعدون ذويهم على تحمل الأعباء وقسوة الظروف.

شيئًا فشيئًا أصبحت أبواب البيوت صدئة، وتلونت الشبابيك بألوان قاحلة، ارتفعت الأسيجة الخارجية، والأسيجة التي تفصل بين الجيران، أضيفت الأقفال والكتائب الحديدية، صارت الحياة تنسحب إلى داخل الغرف البعيدة، فقدت بيوتنا الثقة في الانكشاف على ما وراء جدرانها، بعد أن ازداد عدد الوجوه الغريبة في المكان، وكثرت حوادث السرقة على الرغم من نباح برياد، الذي لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار.

(٢١)

لدي قصة تذكرتها هذه اللحظة، وقلت يجب أن أخبركم عنها، حدث في ليلة من الليالي، حين كنا نستعد أنا ونادية لأداء الامتحانات الوزارية، نسهر في غرفتها حتى ساعة متأخرة من الليل، في هذه الليلة فجأة رمت نادية الكتاب من يدها وقفزت فوق سريريها لترقص، تركت أنا كتابي مفتوحًا وغنيت لها، أغلقت الكتاب بهدوء وعزفت لها إيقاع أغنية تحبها، نطت من السرير إلى أرض الغرفة واتجهت نحو النافذة

تفتحها وتطل منها على الحديقة الخلفية، تنفست نسائم الليل ثم عادت تفتعل مواضيع لها علاقة بكل شيء إلا الدراسة، عرفت ساعتها أنها أصيبت بالملل:

ـ تعبت من الدراسة.

ـ هاي آخر سنة، خلي نخلصها ونرتاح.

ـ مليت بعد ما أكدر أركز بالكتاب.

عادت إلى النافذة مرة أخرى، مدت يدها في الهواء لتتأكد أن ما تسمعه هو صوت قطرات المطر، أعرف أن في رأسها فكرة مجنونة، وقد أخبرتكم سابقًا عن حبها للمطر:

ـ مطرت الدنيا، تعالي نطلع للشارع.

ـ يا شارع بهل الليل تخبلتي؟

ـ تعالي نطلع راح أموت من الكآبة.

ـ وأهلج؟

ـ نايمين.

ـ وإذا أحد شافنا بالشارع بنص الليل شراح يگول؟

ـ عادي.

ـ لج بابا صيري عاقلة شوية.

ـ إذا إنت متطلعين، آني راح أطلع وحدي.

نهضت معها، نزلنا السلم على أطراف أصابع أقدامنا وقلبي يكاد ينكمش من الخوف، فتحنا الباب الخارجي بحذر شديد وخرجنا.

مشينا بسرعة مجنونة في الشارع من دون أن أعرف إلى أين تريد أن تذهب في هذا الوقت من الليل، ورذاذ المطر ينظف الهواء ويبلل وجوهنا:

- وين رايحين؟

- لساعة بغداد.

- شنسوي هناك؟

- ناخذ صورة للذكرى.

- بس ما عدنا كاميرا؟

- مو شرط كاميرا.

- إنتِ مجنونة.

- ادري آني مجنونة، وأحب جنوني، تعبت من العقل.

- مو عدنا امتحانات؟

- راح ننجح لتخافين.

اقتربنا من بناية الساعة وتوجهنا نحوها، كان أحد الحراس يجلس على مصطبة قريبة ويضع سلاحه بين قدميه ويستمع إلى جهاز الراديو الذي تركه إلى جانبه تحت مظلة إسمنتية يحتمي بها من المطر، مررنا من ورائه بحذر، وتوغلنا في الظلام بعيدًا من مصدر الإضاءة، وقفت هي أمام الساعة وطلبت مني أن التقط لها صورة وهمية، وقبل أن

أجلس على الأرض لكي أجمعها في لقطة واحدة مع الساعة التفتت هي إلى الوراء وقالت تضحك مع نفسها:

ـ لحظة... خلي أتأكد خاف مروة تطلع بالصورة.

ضحكت معها والتقطت لها صورة واحدة كانت تبتسم فيها من كل قلبها وتقول:

ـ لقد سقطنا في المستقبل.

قالت ذلك قبل أن تعلن الساعة منتصف الليل بحسب توقيت بغداد التي تنام الآن تحت المطر، وضعت يدي بيدها وركضنا باتجاه المحلة، انعطفنا نحو شارعنا، وصلنا بيتهم، دفعنا الباب الذي تركناه شبه مفتوح خلفنا لحظة خروجنا، وتسللنا خلسة إلى غرفتها في الطابق الثاني من البيت، فتحنا الكتاب وقبل أن ننتهي من قراءة صفحة واحدة منه نمنا على أرضية الغرفة باتجاهين متعاكسين، أيقظتنا أمها في الصباح، تناولنا فطورًا سريعًا وتوجهنا إلى المدرسة.

قالت المديرة بنبرة من التحدي والتشجيع وهي تتجول على الصفوف المنتهية:

ـ هذه مدرسة ست راجحة لا تقبل إلا بنسبة نجاح ١٠٠ .

هذه هي أيامنا الأخيرة مع ست راجحة وست أثمار ومدرستنا الثانوية التي عشنا فيها أيامًا صعبة، تصادفت مع سنوات الحصار الذي حرمنا من الدفاتر الملونة والكتب الجديدة، وضع الحصار أمامنا صورة مستقبل مفتوح على احتمالات كلها ليست سعيدة، من على

مقاعد الدراسة اختفت وجوه أليفة من طفولتنا، غادرتنا وجدان، غادرتنا تبارك، غادرتنا سميّـة، غادرتنا ريتا، وجوه كثيرة أخذها الغياب وسط الدموع، من قطار المدرسة ترجلت أسماء كثيرة في محطات كثيرة، تغيبت إحداهن ويتواصل غيابها ثم يأتي الجواب لقد هاجرت مع أهلها.

صارت الهجرة امتيازًا اجتماعيًا للمهاجرين، الطالبات اللواتي لم يهاجرن يشعرن بالحسد نحو زميلاتهن اللاتي عبرن الحدود، ولامست أقدامهن أرض الحياة الجديدة وتنفسن عطر عالم جديد، هاجرت صديقاتنا إلى المدن الباردة، في حين أننا نحن نتفسخ في المكان، نعيش بابتسامات جامدة وأيام من غبار.

(٢٢)

تقدم خليل لطلب يد شروق من أهلها، ووافق أهلها من دون تردد، عزفت الموسيقى الشعبية في حديقة بيتهم الواسعة، وانهالت حبات الملبّس والسكاكر تهطل مثل المطر على رؤوس الجميع.

كان برياد أول الراقصين، وهذه واحدة من مفاجآته التي عودنا عليها، مع سماعه أول نغمة انطلقت من بوق كبير يحمله أحد العازفين من فرقة الموسيقى الشعبية، رفع جسده على ساق واحدة وراح يدور حول نفسه بمرح وهو يلوي ذيله الأبيض، اندهش الموسيقيون لهذا المنظر، الذي لم يألفوا مثله طوال عملهم في المحلات البغدادية، ولما

وجدوا أن الحاضرين لم يعلقوا على هذا الحدث الغريب واصلوا العزف، وواصل هو رقصته الجميلة التي رحنا نقلدها.

تقدمت الصبايا وتبعهم الأولاد، يرقصون ببهجة عارمة، فقد مرّ وقت طويل ونحن نفتقد المناسبات السعيدة، حتى كادت أقدامنا تنسى الرقص، لما وجد برياد أن الحلبة تكتظ بالراقصين أنزل أطرافه الأمامية إلى الأرض، رفع ذيله خلف ظهره وانسحب من المكان من دون أن ينتبه إليه أحد، تسلق الجدار الخارجي للحديقة وراح يرقص لوحده تراقبه القطط من فوق السطوح وهي غارقة في الضحك.

عمت السعادة المكان، وانشرحت النفوس ابتهاجًا وتواصلت الموسيقى خارج الوقت المعتاد لمثل هذه المناسبات، رقص الجميع تقريبًا باستثناء شروق التي صعدت إلى غرفتها بعد أن وضع خليل خاتم الخطوبة في إصبعها، وراحت تسكب الدموع لوحدها، لا تعرف لماذا في هذه الدقائق تحديدًا أصبحت لا شعوريًّا أكثر ميلًا إلى تصديق نبوءة المشعوذ بخصوص مستقبل زواجها، فهي عندما نظرت في وجه خليل وهو يضع الخاتم في إصبعها وجدت وجهه ينتمي إلى عالم آخر، خيّم الحزن على قلبها وروحها، على الرغم من محاولاتها إخفاء مشاعرها الحقيقية أمام الآخرين.

استغربت أم خليل وأخواته وأقرباؤه من عدم سعادتها لهذا الحدث المهم في حياتها، وخصوصًا أن الجميع يعرف قصة الحب التي تجمعها مع خطيبها، أخذتهم الظنون وقلبوا الأمر في سرهم عندما لم يسعفهم أي جواب معقول، قالوا لأنفسهم جملة واحدة لا غير:

- إنها مصدومة من شدة الفرح.

شعرت شروق بعد ساعة من عزلتها بالخجل من نفسها، من غيابها غير المقبول عن حفل خطوبتها الذي سيفسد فرحة أهلها وأهل خطيبها وجيرانهم، وسيطلق الشائعات بشأن علاقتهما، غسلت وجهها بعد أن نشفت دموعها ووضعت الكحل تحت أجفانها، سرحت شعرها وارتدت بدلة زرقاء جميلة مفتوحة تحت ساقها، كانت قد فصّلتها عند أشهر خياطة في المحلة واحتفظت بها لهذا اليوم.

بدل أن تنزل السلّم وتلتحق بالمحتفلين في حديقة البيت، دفعها فضولها لفتح باب شرفتها الصغيرة المطلة على الحديقة، وإلقاء نظرة سريعة على الراقصين، شاهدت برياد يرقص فوق سياج الحديقة وتبسمت له عندما راح يلوح لها بذيله، حاولت أن تنسى كل شيء وتكون سعيدة من أجل هؤلاء الجيران والأقارب السعداء في يومها قبل أن تستدير إلى الخلف وتغلق باب الشرفة، وقعت عيناها على رجل غريب يرقص ملوحًا بعصاه في حركات بهلوانية غريبة ركزت في ملامحه وأطلقت صرخة مكتومة:

- المشعوذ!!

نزلت درجات السلّم مسرعة وخرجت إلى الحديقة لتمسك به وتمنعه من الهروب، حتى تعرف منه القصة كلها.

توجهت من فورها نحو مكان الاحتفال، وشقت طريقها نحو حلبة الرقص، لكنها تفاجأت بالرجل وقد اختفى من المكان برمشة

عين من دون أن يترك أثرًا، وأن الحلبة في هذه اللحظة تزدحم براقصين آخرين من الصبايا والشباب، وبعض الصغار من أبناء المحلة.

عادت إلى الوراء مندهشة، سألت بعض النساء اللاتي يعرفنه جيدًا، وسبق لهن أن تحدثن إليه في زياراته السابقة، لكنها لم تحصل على أي جواب، كان سؤالها عنه يواجه بنظرات من الاستغراب والحيرة من أمرها، حتى ظنّ بعضهن أن البنت قد أصيبت في يوم خطوبتها بلوثة عقلية من جراء سحر دس في بيتهم من غريمة لها.

عادت شروق إلى غرفتها، وراجعت مع نفسها شريط الأحداث، من أول لحظة ظهر فيها هذا الشخص الغريب الأطوار حتى لحظة اختفائه السحرية من حلبة الرقص.

أنهكها التفكير في هذا الأمر، تمددت على سريرها ونامت حتى صباح اليوم التالي، وعندما فتحت عينيها وجدت الطبيب وهو يلملم أغراضه، ويهم بالخروج من غرفتها وسط حيرة الأهل وبعض الأقارب وحزنهم العميق.

فركت عينيها ونهضت من سريرها، بعد أن أزاحت الغطاء الثقيل عنها، ثم وقفت تحدق في وجوههم، وهي تسأل عن سبب وجودهم في غرفتها، وعن سبب استدعاء طبيب لمعاينتها.

في هذه الأثناء خطرت في رأسها بشكل مفاجئ فكرة أن الطبيب الذي غادر للتوّ، كان هو الآخر قريب الشبه بالمشعوذ، ثم عادت وقالت في نفسها ربما هو نفسه، بل هو بكل تأكيد وراحت تردد بأعلى صوتها:

١ ـ هو... هو...هو.

مسكتها أمها وقرأت المعوذتين في أذنها، وجلبت إحداهن ماء باردًا وبللت به جبينها، سقطت شروق على فراشها وهي تهتز مثل طائرة ورقية في هواء ثقيل، لفت جسدها بالغطاء السميك وأغمضت جفنيها.

ـ نادوا على الطبيب.... قال أحدهم.

صرخت بأعلى صوتها من تحت غطائها:

ـ لا، لا، لا، لا أريد الطبيب.

لثلاثة أيام وشروق على هذه الحال، لم تنفع مع حالتها كل المحاولات التي بذلتها أسرتها باستدعاء أفضل الأطباء ومن بينهم جارتهم الدكتورة أم بيداء، لكن أحدًا من هؤلاء وعلى الرغم من الفحوصات الكثيرة لم يشخص علة واضحة في جسدها.

حضرت عند رأسها مشعوذات معروفات بفك السحر، وحضر مشعوذون مشهورون في الاختصاص نفسه، لكن أحدًا منهم لم يقل كلمة واحدة واضحة في شأنها.

بعد أن سمع عمو شوكت خبر مرضها الذي أصبح على كل لسان، قرر أن يزورها، فهي من أحب بنات المحلة على قلبه، منذ أن عرفها طفلة صغيرة كبرت أمام عينيه شابة يخطبها الرجال، كان مع كل درجة من درجات السلّم الذي يفضي إلى غرفتها، يذرف دمعة ساخنة لا يستطيع السيطرة عليها، تترقرق بين جفنيه ثم تكبر وتسقط مثل حصى ناعمة يسمع صوت ارتطامها بالأرض، كان برياد يتبعه في كل خطوة

وهو مبتسم بسعادة غامرة، كونه يدخل بيتًا من بيوت المحلة من دون شعور بالخجل.

وقف عمو شوكت عند سريرها وأجهش بالبكاء، استغل الكلب انشغال الجميع عنه، وتوجه من دون أن يلاحظه أحد، وهو يهز ذيله الأبيض نحو نهاية السرير من جهة قدمها، أزاح الغطاء قليلًا إلى الوراء ولحس كاحل قدمها اليسرى.

تناول عمو شوكت ساعدها وطبع عليه مازحًا أثر عضة بمنزلة ساعة يدوية، كان قد طبعها لها في أيام طفولتها، تحركت شروق على الفور، كما لو أن الدم راح يسري في عروق جسدها المتيبس من جديد، نهضت من مكانها واحتضنت عمو شوكت ومسحت دموعه، قبلت جبينه وطلبت منه الكف عن البكاء، فهاهي أمامه سليمة ولم تصب بأي مكروه، ومن أجل أن تثبت له ذلك، وقفت بطولها الممشوق على سريرها ورقصت رقصة كان يحبها منها حين كانت طفلة ترقصها أمامه وأمام باجي نادرة حين كانا يأخذناها إلى بيتهما، يصفقان لها ويقبلانها بعد كل رقصة ثم يدسان بيدها قطعة من الحلوى، اندهش أهلها لهذه العافيـة التي تدب في جسدها وروحها، وبعد زوال الدهشة زغردت أمها وهتف أبوها وتبعهما الجميع بالتصفيق وإطلاق عبارات الفرح والتبريكات.

عادت شروق إلى سابق عهدها ونسيت كل ما يتعلق بالمشعوذ وخرافاته.

بعد أسبوعين تزوجت (خليل)، وعاشت معه في المشتمل الذي خططت له، وفي بطنها ترفس أقدام جنين وهي تسمع بين حين وآخر صوت صراخه ينادي عليها وترد عليه بحنان أم:

- نعم ماما.

هـل أنـا خائفـة؟!!

(٢٣)

تخرجنا في الثانوية سوية بمعدلات جيدة، وجلسنا في البيت مدة طويلة ننتظر نتائج القبول المركزي، نادية في جامعة بغداد وأنا في الجامعة التكنولوجية، هذه أول مرة سنبتعد فيها عن بعضنا، انشغلت هي بمراجعات القبول والتسجيل وانشغلت أنا كذلك وصارت لقاءاتنا قليلة.

في أحلامها الجديدة يتكرر مشهد جديد لتصاعد دخان حرب باتت على الأبواب، دخان يحجب مستوى الرؤية ويشوش المشهد ويفقدنا فرحة الانتقال للحياة الجامعية التي انتظرناها سنوات طويلة.

هذه السنة هي سنة الأناشيد الحماسية الجديدة أو (عام الحسم) كما يسمونه، بدأت أجواء الحرب تفرض نفسها من جديد على حياتنا، هذه الحرب ليست كالحرب السابقة، لأنها حرب تحمل الموت والخراب وبعض الأمل أيضًا، الأمل بنهاية الحصار الذي هو أكثر قسوة من الحرب نفسها هو الموت البطيء الذي نعيشه دقيقة دقيقة.

لم يكن الحصار سلاحًا لتجويعنا فحسب، لقد خرب معنى حياتنا وقضى على الكثير من عاداتنا وسلوكنا وسلب منا روح الأمل، وعندما

يختفي الأمل تصير الحياة مجرد عادة ننتقل فيها من يوم تعِس إلى آخر أكثر تعاسة، وفي الحياة التعسة لا يحب الناس بعضهم، حتى إنهم لا يحبون أنفسهم، شاهدت بنفسي امرأة تنتحر وهي ترمي نفسها في نهر دجلة من على الجسر، كان ذلك في فصل الشتاء حيث مياه النهر الباردة، ويقول الناس الذين تجمعوا قريبًا من مكان الحادث إنها وأطفالها لم يذوقوا الطعام منذ ثلاثة أيام وإن زوجها مسجون لأنه صار لصًّا، وهذه الحادثة بقيت في ذاكرتي كأنها فكرة الحصار كلها، الحصار في معناه عندما يعمل أحدهم لصًّا ويذهب إلى السجن ثم تنتحر زوجته وتترك أولادها في الشارع، كنت أقول في نفسي ماذا لو لم تنتحر هذه المرأة؟ كيف ستجلب الطعام لصغارها؟ ماذا سيعمل هؤلاء الصغار عندما يكبرون؟ في كل مرة أتذكر فيها هذه الحادثة، أطلق على الفور سراح زوجها من السجن وأبحث له عن وظيفة، أعيد المرأة من النهر وأضع يدها بأيدي صغارها وأجعلهم يتمشون في نزهة على الجسر وهم يرتدون أجمل الملابس وأعطيهم بيتًا من البيوت المتروكة في محلتنا، أمنحهم واحدًا من هذه البيوت التي تركها أهلها وهاجروا، ثم أقول في نفسي لماذا هاجروا؟! هل كان أبو سالي سيعمل لصًّا لو أنه لم يهاجر؟ وهل ستنتحر أم سالي من الجسر وتترك بناتها يعشن في الشارع؟

كنت خائفة أن أرى إحداهن أو أحدهم يرمي نفسه من على الجسر مرة أخرى، أحيانًا أتخيل الناس يقفون طابورًا طويلًا أمام الجسر وينتحرون مجموعة بعد أخرى، ولكن ما الذي ستفعله الحرب؟ هل ستنهي الحصار؟ وهل سيعود الذين هاجروا إذا انتهى الحصار؟ هل سيعود عمو شوكت رجلًا أنيقًا ببذلته الغامقة وقميصه الأبيض وربطة

عنقه وحذائه؟ هل سيختفي برياد من حياتنا؟ أم أنه سيحبنا أكثر لأننا سنعطيه طعامًا كثيرًا؟

في التلفزيون طائرات عدوة على متن بوارج حربية عملاقة وجنود من كل دول العالم في طريقهم إلينا ونحن نستقبلهم بالأناشيد الحماسية وباليأس والانتحار من على الجسر إلى المياه الباردة.

ماذا يريد منا هذا العالم المتقدم؟!

ماذا تريد هذه الدول السعيدة بأساطيلها الهائلة من شعب جائع ويائس ومنهك القوى؟!

ـ لقد خربوا بلدنا وأفرغوه من الطبقة الوسطى، كانت مدرسة اللغة العربية تكرر علينا كل يوم هذه العبارة الغامضة.

ما الطبقة الوسطى؟ كيف نعرف أن أحدهم ينتمي إلى الطبقة الوسطى؟ هذه واحدة من الألغاز التي كانت تحيرني، حتى عندما سألت أبي... هل نحن من الطبقة الوسطى؟ قال لي: نعم... لأنني أستاذ جامعي وأمك تحمل ماجستير في الهندسة ونحن لسنا أغنياء ولسنا فقراء في الوقت نفسه، نحن أبناء الدولة، وإذا اختفت طبقتنا أصبحت الدولة ماكنة عاطلة. ماذا عن الفقراء يا أبي أليس هم أبناء الدولة أيضًا؟ سكت قليلًا ثم نظر في وجهي مستغربًا من هذا السؤال، لأن الآباء يجب أن تكون لديهم إجابة عن أي سؤال، قال لي: الفقراء أبناء الوطن.

أنا لا أفهم في السياسة، ولا أريد أن أفهم عنها شيئًا، لكنني لا أحب الحياة في الملجأ مرة أخرى، لا أحب أن أرى البنايات يتهدم بعضها فوق بعض، لا أريد للجسور أن تسقط قتيلة في الماء، لا أريد أن

يهتز بيتنا من وقع اصطدام الصواريخ بالأرض، لا أريد أن أموت، ولا أريد أن يموت غيري.

هل أنا خائفة؟

نعم أنا أخاف،.أخاف كثيرًا من الحرب، أخاف حتى من بياناتها وأغانيها وموسيقاها وقصائدها الحماسية، فكيف لا أخاف إذا وقفت الطائرات في السماء وهي توزع الموت بخطوط مستقيمة؟

لماذا عليّ أن أشهد كل ذلك في حياة واحدة؟ حرب في الطفولة، وحصار في المراهقة، وحرب جديدة بأسلحة ذكية ومتطورة وأنا لم أبلغ العشرين بعد، كيف يمكن لإنسان طبيعي أن يروي سيرته الشخصية عندما يكبر وهو ينتقل من حرب إلى أخرى؟

هل هناك ما هو أقبح من الحرب؟ كم هو قبيح هذا العالم الذي يتفاهم بالحروب والحصارات، ما معنى الحضارة ونحن نجوّع الأطفال والكبار ثم نرميهم بالصواريخ؟

ما معنى أن تتقدم البشرية وهي لا تزال تبتكر أكثر وسائل الموت الجماعي فظاعة؟

هذه ليست أسئلة سياسية معقدة، هذه ببساطة أسئلة الإنسان الذي يخاف، نعم أنا أخاف، أخاف بشدة وأرتجف من شدة الخوف، من هذا الخوف نفسه تشرق إنسانيتي التي تكره حاملات الطائرات، من هذا الخوف وحده تتأسس حضارتي الشخصية، التي تكره الحروب، من هذا الخوف أنا أحب الناس كلهم، الناس الذين يرتجفون خوفًا من أخبار الحروب.

تم قبول أحمد في قسم الهندسة المعمارية في جامعة الموصل، وفاروق في كلية التربية الرياضية جامعة بغداد، وصرنا كل واحد يعيش في جهة.

في الليلة التي سبقت يومي الأول في الجامعة، فتحت الدرج القديم في صالة بيتنا ونبشت فيه أبحث عن صور أمي يوم كانت طالبة في جامعة بغداد، تناولت من بينها صورة واحدة وصعدت بها إلى حجرتي، صورة أعرفها وقد دققت في تفاصيلها عشرات المرات، كانت أمي في هذه الصورة تجلس مع مجموعة من زميلاتها وزملائها في حديقة الكلية، قريبًا منها تتخذ صديقتها فاتن مقعدها وهي تنظر إلى الأمام بتسريحتها وأناقتها وسحر حضورها.

خالة فاتن، كما كنت أسميها في طفولتي، هي نموذجي في الحياة الذي أريد أن أكونه، يخيل لي على الدوام أنني عندما أكبر سأكون شبيهتها، سأقص شعري مثلها، وأتزوج رجلًا يشبه زوجها، يعمل سفيرًا وأعيش معه في عواصم ومدن جميلة، ألتقي مثلها زوجات السفراء والدبلوماسيين، أضع يدي فوق ركبتي وأسحب قدمي إلى الداخل وألتفت نصف التفاتة نحو سيدة أفريقية تجلس إلى يميني ونتحدث عن بلدينا، أحدثها عن العراق وتاريخه وفولكلوره وأزيائه، وتحدثني هي عن بلدها، أصغي إليها باحترام وأهز رأسي مع كل كلمة تقولها.

تأملت الصورة جيدًا، تمعنت في كل شيء، في قميصها، في تنورتها، في جواربها وحذائها، تمعنت طويلًا في جلستها ويداها تتشابكان عند ركبتها وهي تبتسم مثل أميرة من زمن أنيق، كانت فاتن

طالبة جميلة من زمن أمي الجميل، ذلك الزمن الذي يتنفس الكبرياء والثقة بالنفس، حين كانت الطالبة الجامعية تعني الفتاة الذكية المتسلحة بالمعرفة وقوة الشخصية، تعني اعتدادها بنفسها وبالعالم من حولها، حشرت الصورة في حافة مرآتي من جهة اليمين، ورحت أرتب ملابسي وأعدل تسريحتي تحت إرشاداتها، أريد أن أكون مثلها.

لبست تنورتي ووجدتها أطول من تنورتها، لبست جواربي وكانت أكثر قتامة من لون جواربها، لبست حذائي وكان خجولًا مترددًا، عدلت تسريحتي لكنها لم تأت كما أريدها، بيني وبين خالة فاتن زمن بعيد، زمن تغيرت فيه الأشياء وتباعدت فيه دروب الحياة، صورة فاتن تنتمي إلى المستقبل، الذي تركته المدينة خلفها، المستقبل الذي توقف هناك يراوح في مكانه على هيئة البوم صور قديمة منسية في الأدراج.

تركت ملابسي على حافة المكتبة ونمت.

في صباح اليوم الثاني استيقظت على شمس جديدة، شمس دافئة ترسل أشعتها إلى روحي، أصبحت هذا اليوم طالبة جامعية، أصبحت جزءًا من الحياة الحقيقية، من النهارات اللذيذة كما كنت أتخيلها، أذهب بعيدًا من أهلي لوحدي، أعيش في عالم جديد يتسع أمامي دفعة واحدة.

الحياة الجامعية ليست مرحلة دراسية متقدمة، إنها الحياة بكل جديتها، تتفكك فيها العلاقات القديمة ويعاد تشكيلها، يختلف في داخلها معنى الزمالة الدراسية، وسيختلف أيضًا معنى العلاقة بالآخرين، ستكون الأمور أكثر وضوحًا، والأخطاء ليست بريئة، الحق في الخطأ سيغدو منذ بداية هذا الصباح أمرًا غير مفهوم، الحق في التلقائية سيكون

غير مسوغ، الحق في عدم تحمل المسؤولية عن سلوكنا سيظهر بدوره غريبًا.

دخلت بوابة الجامعة بخطى خجولة، خيّل إليّ ساعتها أن كل الأعين تتجه نحوي وتراقبني، كل الأفواه تتحدث عني في هذه اللحظة، كما لو أنني أولد فجأة في عالم غريب، أسمع وقع حذائي على رصيف الطريق، أركز نظري في الأرض وأنسى توازني.

كلما تناهت إلى مسامعي قهقهة عابرة تتألم روحي وأختنق، أخشى أن تتعثر قدماي وأسقط في حفرة على الرصيف، نسيت مشيتي القديمة التي تعلمتها منذ أول خطوتين على سجادة بيتنا، كيف كنت أركض في دروب المحلة كل هذه السنوات وأنا لا أخاف السقوط؟

كان اليوم الأول في الجامعة هو الفاصلة الأولى بين زمنين في حياتي، زمن اللهو البريء والطفولة الساذجة والمراهقة المرحة، وزمن جديد تنكمش فيه دواخلي كما لو أنني أنطعج وتتصلب أعصابي وهي تتهجى الوجوه والأفعال وردود الأفعال، لم يعد لدي جواب جاهز عن كل سؤال، لابد من التفكير جيدًا قبل كل كلمة أنطقها، لابد من مراقبة الخطوات وافتعال الهدوء والجلوس بحذر على مقعد الدراسة.

هل أحمل كتبي بيدي اليمنى أم باليسرى؟ هل أضع حقيبتي على الأرض أم أبقيها إلى جانبي؟ هل اتكئ على مقدمة المقعد، أم أستند إلى الخلف؟ هل أسرح يدي طليقتين أم أحبسهما عند جلوسي فوق الحجاب الحاجز؟ لماذا نسيت أن أسأل أمي كل هذه الأسئلة؟ لماذا صدقت تلقائيتي واعتمدت عليها؟

الجميع هنا لديهم أصدقاء جاؤوا معهم من المدرسة نفسها أو من المحلة نفسها التي يعيشون فيها، إلا أنا وحيدة، أمشي وحيدة، أجلس على دكة صغيرة في الظل، أخجل أن أشتري طعامًا وأرتبك إذا نظر إلي أحدهم.

بعد أيام، اكتشفت مصادفة أن بيداء تدرس في الجامعة نفسها لكنها في قسم آخر، تعلقت بها روحي وصرت أقصدها بين درس وآخر، أجلس معها في النادي بعيدًا من الآخرين تغني لي بصوت لا يسمعه سواي وتسحبني إلى الذكرى.

بيداء هي الشيء الوحيد من محلتنا الذي جاء معي إلى هذا المكان، هي العلامة التي تأتيني من الماضي الآمن، بيداء في هذه الأيام كانت تعني بالنسبة إلي تسع عشرة سنة هي سنوات حياتي كلها، كنت معها كمن تمسك بيد أمها وتدفع قدمها نحو مياه عميقة باردة، كأن الجامعة نهر بارد أتحسس برودته بأطراف أصابعي قبل أن أرمي بنفسي إليه.

عونه الكاعد هسة كبالك،، يا محبوبي شلون أحوالك.

أحبس دمعتي وأتمتم:

- شكد مشتاقة لأيام الثانوية.

- راح يجي يوم تشتاقين لأيام الجامعة.

أسرح في البعيد مهووسة بالأيام القديمة وبالذكريات، ينتهي الوقت، أقبلها كما لو أنني أقبل في خدها محلة كاملة، أقبل تسع

عشرة سنة من هواء الطفولة، وأركض فوق عشب الحديقة نحو بناية القسم.

بيداء شابة بملامح طفولية وبشرة صافية وعينين رماديتين، بحاجبين كثيفين ينعقدان فوق أنفها الصغير، طيبة القلب وتعشق الحياة وكريمة في مشاعرها، في الأيام التي أنشغل فيها عن زيارتها تأتي إلى قسمي وتتفقدني مثل أم لديها صبية واحدة ومدللة، تخشى عليها حتى من الهواء، تقبلني بحنان ألف جدة وهي تقبّل روح حفيدها الوحيد، معها وحدها صرت أشعر بأنني مازلت أعيش في محلتنا، في شارعنا، في مدرستي القديمة.

قبل نهاية الوقت، تنهض بيداء معي ونسلك الطريق الضيّق الذي طبعته أقدام الطلاب على العشب الرطب، نتوقف في وسط المسافة بين قسم العمارة وقسم البناء والإنشاءات، بيننا خطوة واحدة، لكنها تعني بالنسبة إليّ طفولتي ومراهقتي.

مرة وأنا أودعها بتلويحة من يدي تعثرت قدماي ووقعت على الأرض مدت أحدى الطالبات يدها وساعدتني على الوقوف، نظفت تنورتي بيدي، شكرتها وواصلت طريقي وفي عينيّ دمعة جديدة.

(٢٤)

لم أهتم كثيرًا لأمر المشعوذ الذي دخل محلتنا ذات يوم، وأصبح حديث الجميع فيها، أنا بالفطرة والحدس كنت أعرف كل ما كان يقوله، حتى السفينة أنا رأيتها قبله يوم صعدت فوق خزان المياه وعرفتها، عرفت أننا نعيش وسط محيط من الخطر، أنا لا أهتم بما كان يقوله، لطالما تمنيت أن تأتي بدلًا منه مشعوذة صبية، كأن تكون ابنته، أو أخته، أو قريبة له، أو حتى غريبة عنه ولا يعرفها، مشعوذة مراهقة بهندام حسن، تضع يدها اليمنى بين وقت وآخر على جبهتها تتحسّس درجة حرارتها الشخصية، ثم تصمت دقيقتين وتواصل حديثها من حيث انتهت.

لا أريد منها أن تجلب لي الحظ، أو تحدثني عن أنباء المستقبل، ما كنت أحلم به هو أن تجيبني عن أسئلة تخص الماضي فقط، ليست الوقائع التي حدثت فيه، فأنا أتذكرها جيدًا، لكن المهم عندي هو كيف حدثت بعض هذه الوقائع؟! وماذا لو لم تحدث؟ ومن بين هذه الأسئلة هناك أشياء تبدو سخيفة، وأخرى مهمة، وهذه مسألة نسبية في أحيان كثيرة تؤدي بنا الإجابات عن الأسئلة السخيفة إلى فهم الأمور الكبيرة والمعقدة في الحياة.

حسنًا، أريد أن أعرف منها على سبيل المثال:

- لماذا أحبني فاروق من دون سائر بنات المحلة، أو البنات اللواتي صادفهن في حياته وأحببنه أو أعجبن به؟.

ـ لماذا أصبحت أنا صديقة لنادية منذ أول لقاء في الملجأ، مع أنه كانت هناك بنات أخريات من عمرنا يأتين مع أهلهن كل مساء وتجاهلناهن منذ أول تعارف بيننا؟

ـ ماذا لو أن الحرب لم تقع؟ وماذا لو أن الحصار لم ينفذ؟ كيف ستكون حياتنا؟ وكيف ستكون بغداد في هذه الحال؟

هذه الأسئلة وسواها، هذه الأفكار السخيفة التي تشغل بالي، هي التي ستوفر إجابات حقيقية عن معان كبيرة غائبة عني، ستجيبني عن معنى الحب، والصداقة، والمصادفة، والتاريخ وكيف تتشكل فيه الحوادث.

تخيلت هذه الصبية المشعوذة، وهي تمر في شارعنا من دون أن ينبح عليها برياد، على العكس من ذلك، سيخطو نحوها يتشمم قدميها ثم يبتعد عنها مفسحًا لها الطريق، سيعطيني إشارة عن قبوله لها.

يصادف مرورها وجودي وحيدة في باب البيت، أقترب منها، أدعوها للدخول في حديقة بيتنا والجلوس على الأرجوحة، أجلس أمامها على العشب وأطرح عليها أسئلتي:

ـ لماذا أحبني فاروق من دون سائر بنات المحلة أو البنات اللواتي صادفهن في حياته؟

ـ لماذا أحبت نادية أحمد من دون غيره؟ ولماذا تعلقت به مروة من دون سواه؟

ترفع المشعوذة يدها اليمنى تتحسس جبهتها وتصمت لدقيقتين وتجيبني بهدوء وهي تحرك رأسها في أرجاء المكان:

ـ اسمعي يا عزيزتي، لو عرف الناس لماذا يقعون في الحب، لما وقعوا فيه من الأساس، ولو أتيح لهم معرفة لماذا أحبوا هذا الشخص من دون سواه لما أحبوه من الأساس.

الحب يا صديقتي من صنف الأشياء التي لا تصنع في حياتنا هذه، إنها تسبق حياتنا وتتقدم عليها، الحب ليس عضوًا طبيعيًّا في جسدنا، ولا مادة خام موجودة في الطبيعة، هو ليس تفاعلًا كيمياويًّا، ولا عنصرًا فيزياويًّا، ليس هو من طبيعة الجغرافية، ولا هو بالحدث التاريخي، الحب ليس معادلة رياضية ولا فرضية هندسية.

السؤال عن معنى الحب هو السؤال نفسه عن معنى وجودنا، سيبقى سؤالًا بلا إجابة واضحة وإلى الأبد، لهذا السبب اخترع له أجدادكم القدماء آلهة عشتار وأنانا وأدونيس وفينوس وأفروديت وكيوبيد وسواهم، اخترعوا له آلهات كثيرات، لكي يكفوا أنفسهم مشقة هذا السؤال، فكل شيء تصنعه الآلهة تجيب عنه الآلهة وحدها، ونادرًا ما تشارك الآلهات البشر فيما يتعلق باختصاصهن.

أنت موجودة، إذًا أنت تقعين في الحب.

تخيلي أنك تعيشين بلا رئتين فهل سيكون للهواء المعنى نفسه الذي يحمله الآن؟ الحب هواء لا يحتاج إلى رئتين، تخيلي أنك بلا عينين، فهل سيكون للأشياء الوضوح نفسه؟ الحب هو أن ننظر إلى الوجود بلا عينين، أن نسمع ونتذوق ونلمس الأشياء بلا حواس، هناك حاسة واحدة للحب، هي نحن، وجودنا كله بحواسنا الخمس ومن دونها، الحب هو الضوء الروحي في أعماقنا، والضوء كما تعلمين بلا

كتلة، بلا وجود مادي ملموس، لكنه موجود، موجود حتى في معنى الظلام نفسه، السؤال عن كتلة الضوء سؤال فيزياوي مغلوط من أساسه، والسؤال عن الحب جملة غير صحيحة حتى لو وضعنا أمامها ألف علامة استفهام.

طلبت مني المشعوذة قليلًا من الماء، دخلت إلى البيت لكي أحمل لها إناء كبيرًا وضعت فيه قليلًا من الثلج، حتى لا تعود وتطلب مني ذلك ثانية، إذ إن الحديث معها فرصة ثمينة لا يمكن إهدارها، وإن إجاباتها تحتاج إلى تركيز، لأنها أحيانًا تتحدث لكنها لا تقول شيئًا، قدمت إليها قدحًا شربته ووضعت الإناء قريبًا منها.

ـ لماذا أصبحت أنا صديقة لنادية منذ أول لقاء في الملجأ مع أن هناك بنات أخريات من أعمارنا كن يأتين مع أهلهن كل مساء وتجاهلناهن منذ أول تعارف بيننا؟

لم تضع يدها فوق جبينها كما كنت أنتظر حركتها، عدلت من جلستها وجالت ببصرها في الحديقة كأنها تحصي نباتاتها، ركزت نظرها في شجرة التين، ثم التفتت إليّ لتقول:

ـ الصداقة في بعض جوانبها تشبه الحب، لكن الآلهة تركتها للبشر وحريتهم.

الصداقة في طبيعتها لا تأتي من نظرة، أو ابتسامة، أو رسالة إعجاب، الصداقة تنمو نموًّا طبيعيًّا وتتطور مع الوقت، يجري من خلالها الاتفاق على الاختلافات الطبيعية بين الأصدقاء، فهي مفتوحة المجال على عدد غير محدود من الناس، تختلف درجاتها من صديق إلى

آخر، في إمكانك أن تتعرفي على ألف صديق من دون أن يسميكِ أحدهم خائنة.

أنت ونادية لا تحبان بعضكما من أجل الصداقة العميقة بينكما فحسب، أنتما تحبان ذكرياتكما معًا.

أنتما الاثنتان، وبشكل أكثر أنتِ، تخافان على هذه الذكريات، لأن زوالها يعني انسحاب بساط الطمأنينة من تحت أقدامكما. الماضي للذين يخافون من المستقبل هو الكهف الرحيم الذي يلجأ إليه الناس عندما ينفرون من قسوة الحاضر.

الصداقة خيار بشري بلا غموض، وهي بهذا أكثر قداسة من الحب، لأنها لا تشترط أي نوع من العبودية والتنازل عن الكرامة، كما يحدث مع الأخير، الصداقة من طبيعتها تترك مسافة مناسبة بين الأصدقاء، حدودًا واضحة لا يجب تخطيها، وهي مع كل هذا وذاك ليست فعلًا أنانيًا لا يعترف للآخر في أن يعيش حياته على هواه وبما يروق له.

تأملت كلماتها وقلت في نفسي... هذه المشعوذة شيطانة، تقول كلامًا جيدًا لكنه ليس بالضرورة صحيحًا، فكرت في أن أنهي الحديث معها لكنني تجاوزت بعض الأسئلة وطرحت عليها سؤال الحرب والحصار.

- ماذا لو أن الحرب لم تقع؟ وماذا لو أن الحصار لم ينفذ؟ كيف ستكون حياتنا؟ وكيف ستكون بغداد في هذه الحال؟

حسنًا، قالت المشعوذة، هذا سؤال جيد جدًا، مررت يدها اليمنى على جبينها، صمتت دقيقتين وقالت:

ـ اسمعي يا عزيزتي، أنا أعرف أنك تريدين أن تقولي: لولا الحرب والحصار لكنا في حال أفضل، قد يكون هذا صحيحًا، لو تجاهلنا الجغرافية والتاريخ، فأنتم ضحية الجغرافية أولًا، بلدكم ليس متوسطيًّا ويتنفس هواء البحر المتوسط وليس صحراويًّا فيعيش رفاهية النفط. أنتم في منتصف المسافة يغمركم ضوء الشمس الساطع طوال السنة، وهذا أمر جيد من ناحية، لكن الضوء يشبه العماء المطلق، فإنه يمنع تراكم الأحلام. انظري في عينيّ أي أوروبي مثلًا، ستجدين رواية غامضة في حين أن في عينيّ أي عراقي هناك جملة عابرة تقول كل قصته على الفور. الشمس تجفف الأفكار كما تجفف القمصان على حبل الغسيل. لذلك أنتم لا تراكمون الأفكار ولا تحتفظون بأحلامكم. قد يبدو كلامي هذا غريبًا، لكنها الحقيقة. لأن الحضارات الحديثة بطبيعتها حضارات شتائية تندر فيها الشمس الساطعة. الضوء الوفير يجعل الأرواح بلا عمق. هذا ما يتعلق بالجغرافية، أما ما يخص التاريخ، فإنكم أبناء تاريخ طويل غير متصل، بلادكم تعيش جزرًا تاريخية مفصولة بعضها عن بعض. فقط تاريخ الألم هو النهر الوحيد الذي يجري في زمنكم، فأنتم والحزن صداقة أبدية، وكلما جف نهره ملتموه بدموعكم. أنا في الحقيقة لا أدري هل أنتم من يطارد الحزن أم هو الذي يتبعكم. أنتم تتفنون في صناعة الأحزان وتجهلون ألف باء الفرح. تأملي غناءكم وموسيقاكم. تأملي دموعكم وأنتم تضحكون. تأملي قصائدكم وأمثالكم. حتى الحب عندكم كناية عن الحزن والغياب واللوعة والفراق.

ـ وما الحل؟

ـ الجغرافية قدر لا مهرب منه لكن التاريخ صناعة، تكيفوا مع الجغرافية وغيروا التاريخ.

ـ كيف نغير التاريخ؟ هل نزوّره؟

ـ كلا، فقط انسجوا من قماشته ثوبًا جديدًا. أجمعوا الجزر الجيدة بعضها إلى بعض واتركوا المؤلمة منها. أصنعوا ذاكرة طرية فيها للفرح مساحة جيدة، باختصار غيروا الثقافة كلها أو بعضها على الأقل.

ـ لا أفهم ما تقولين؟!

ـ ليس مهمًا أن تفهمي. قد يكون الوقت تأخر كثيرًا على أن تفهمي، ولكن اكتبي كلامي واحفظيه لأطفالك، احفظيه للمستقبل.

قالت ذلك ونهضت تهم بالخروج، ابتسمت لي وطلبت مني أن أهديها سوارًا فضيًا كان بيدي كتب عليه اسمي بحروف صغيرة كذكرى مني تحتفظ به للزمن، ودعتها وأغلقت الباب دونها، قفز برياد الذي كان مختبئًا من فوق سياج بيتنا وتوجه نحو بيت صاحبه، هل كان يتنصت علينا؟ ربما!

(٢٥)

أن تتعثر قدماكِ وانتِ طالبة في الكلية، ليست كما كانتا تتعثران وأنت تلميذة في الابتدائية أو الثانوية، الطفولة كانت مسرحًا للتجارب، التي نتعلم منها كيف ننهض بسرعة عندما نتعثر، عندما تقدمنا في العمر تعلمنا كيف يجب علينا ألّا نتعثر أبدًا، هكذا وبمرور الزمن نفقد حتى حرية أن تتعثر أقدامنا.

شكرت الطالبة التي مدت لي يدها وساعدتني في عثرتي في حديقة الجامعة، واصلت طريقي من دون أن ألتفت، من خجلي قررت ألّا أذهب إلى قاعة الدرس، اتجهت بعيدًا من أعين الطلاب، وجلست وحيدة على مصطبة معزولة وكادت العبرة تخنقني:

هل كان فاروق عثرة عاطفية في طريق مراهقتي، عليّ في هذا الوقت أن أنهض منها وأنظف تنورة ذكرياتي؟ هل أنا في حاجة إلى حياة جديدة؟ حياة تبدأ منذ هذه اللحظة وتغامر في المستقبل.

لا... قلت لنفسي: الموضوع ليس كذلك، فاروق هو الحقيقة التي تشدني إلى زمني الجميل، هو حلقة الوصل بيني وبين نفسي، بيني وبين عالمي في محلتنا، بيني وبين أغنياتي، بيني وبين ذكرياتي العاطفية.

فاروق هو الكلمة الأولى، هو لمسة اليد الأولى، هو القبلة الأولى، هو الخجل الأول، والخطأ الأول، والمغامرة الأولى، هو النورس الأبيض الذي حط صباحًا على نافذتي، وجاء بالشمس معه إلى حياتي وقال لي أنا معجب بكِ، وعندما تلعثمت أمامه قال أنا أحبك.

أول إعجاب يتقدم به أحدهم نحوك، هو الإعجاب الحقيقي الذي يولد بلا تاريخ، هو المباغتة غير المتوقعة التي نستقبلها كما هي من دون استعداد، ونحتفظ بذكراها إلى الأبد.

الإعجاب الأول هو اللغة الروحية السامية، التي ندشن بها عصرًا جديدًا لحضارة جديدة من الحب، مملكة مترامية الأطراف، تبني أبراجها وزقوراتها وحدائقها المعلقة في القلوب الفتية.

مرت أسابيع طويلة، وأنا لم ألتق هذا المجنون سوى مرة واحدة عابرة، التقيته في الشارع مصادفة، وتمشينا في دروب المحلة، لم يكن لدينا ساعتها الكثير لكي نتحدث عنه، كل الأغاني التي نعرفها غنيناها سويًّا، أغانينا القديمة وحدها تمنحنا ذلك الإحساس الفريد بالنشوة والخدر.

كتبي الجامعية، لا تشبه كتبي القديمة، فهي خالية من الشخابيط، خالية من العبارات المبهمة التي كنت أدونها لنفسي كي لا يفهمها الآخرون، تلك الكلمات التي اعتدت كتابتها من غير وعي، دفاتري أيضًا خالية من حرف (الفاء) الذي كنت أرسمه كبيرًا بألوان مختلفة، هل صرت أفكر في المستقبل؟

نحن لا نخاف من الماضي، لأن كل ما يمكن أن يحدث قد حدث فيه، وأصبح بمتناول ذكرياتنا، نحن نخشى المستقبل.

هل يمكن أن يصبح فاروق حكاية من الماضي؟ هل يمكن لنادية أن تكون في يوم من الأيام شيئًا من الماضي؟ منذ أن أصبحت هي في

جامعة بغداد، وأصبحت أنا في الجامعة التكنولوجية، صرت أخاف كثيرًا، أخاف على صداقتنا أن يسلبها المستقبل من بين أيدينا، كيف لا نذهب أنا وهي صباحًا إلى المدرسة نفسها، وندخل الصف نفسه، ونجلس على الرحلة نفسها؟ كيف لا نقرأ الدروس سويًا، ولا نخلق الأعذار لبعضنا أمام الأهل، وأمام المعاونة ست أثمار؟ كيف سنمشي من الشارع إلى البيت من دون أن نكون معًا؟ ماذا سيقول برياد عندما يراني وحيدة من دون نادية؟ هل سيعرفني؟

هل سيأخذها المستقبل مني؟ هل ستتحول بمرور الوقت إلى مجرد صديقة قديمة أستعيد معها كلما صادفتها ذكريات الملجأ والمدرسة وساعة بغداد والزوراء؟ ماذا سأفعل بأحلامها التي أدمنت مشاهدتها؟

أصادفها أحيانًا في رأس الشارع وهي في انتظار الباص، وأكون أنا أيضًا في انتظار باص آخر، نتحدث قليلًا ثم يأتي أحد الباصين قبل الآخر وينهي حديثنا، هي تذهب إلى الجادرية، وأنا إلى شارع الصناعة، المسافة ليست بعيدة لكنها ليست قريبة كذلك.

سيأتي المستقبل بكل وقاحة، ويجعل منا جيلًا قديمًا، بأغانٍ قديمة، وأزياء قديمة، ولهجة هي الأخرى قديمة، يا إلهي نحن نكبر أيضًا، لقد شاغلتنا الحروب ونسينا أننا نكبر، الحروب الحديثة تبقى مراهقة ونحن نتقدم في العمر، الصواريخ فتية ونحن نمضي في السنوات بعيدًا.

سيفاجئنا الزمن، يصير حاتم العراقي مطربًا قديمًا، وكذلك هيثم يوسف، ومهند محسن، ورائد جورج وإسماعيل الفروجي، سيكبر

عدنان وتتزوج لينا ويكف السندباد عن التجوال، ستتغير لهجتنا وتبدو كلماتنا غريبة، ستتغير العادات بدورها وتنقلب المعايير، مع تغيير لهجتنا، سيتغير كل شيء، اللهجة هي المستودع الأخلاقي والموجه السلوكي للناس، عندما نتخلى عنها نخسر ذواتنا وتتشوه مشاعرنا.

في الجامعة، أسمع كل يوم مفردات جديدة، غريبة بعض الشيء، وخالية من اللطف.

قفّاص، نگري، حاتة تملخ، باي، أصيلة، طگوگ.

مفردات قليلة بحروف مدببة، تحشر نفسها في اللهجة، وتحاول أن تخترق ذاكرتها، لكنها من ناحية أخرى، تنذر بخراب روحي عميق، اللهجة المحلية في طبيعتها تتطور تلقائيًّا، وتستجيب لنموها الداخلي، إنها وبمرور الوقت، تحور الواقع وتعيد صياغته.

في ممرات الكلية، في الصف، في النادي، أعيش غريبة بين الآخرين الغرباء، لست أنا نفسي كما كنت في مدرستي القديمة، في محلتي، في بيتنا، أنا الآن مضطرة لإعادة تعريف شخصيتي، يجب أن أقدم للآخرين انطباعًا مزيفًا عن الطالبة التي هي أنا، لأنني أنا في الحقيقة مجموعة نسخ مزيفة عن هذه الأنا.

هل هذا صحيح؟ ربما هو صحيح.

كلا، أنا مخطئة، أنا هنا في الجامعة أكثر وضوحًا مع نفسي، أكثر انسجامًا مع ذاتي، أطرح على نفسي عشرات الأسئلة المعقدة، وأتلقى منها عشرات الأجوبة البسيطة.

في البداية، في الأيام الأولى للحياة الجامعية، كان لدي بعض الخوف من الشباب الغرباء، مخاوف عادية ومفهومة من كل ما هو غريب.

نحن نخاف غريزيًّا من الأشياء التي نجهلها، نخاف من الغموض الناجم عن الانطباعات الأولى، هذا شاب طيب حد السذاجة، هذه فتاة مسكينة، هذا الطالب شيطان، هذه البنت مغرورة، وهؤلاء شلة شريرة، هذه الطالبة معقدة، هذا متعجرف، وهذه متواضعة، هذه حديثة نعمة، وهذا ابن عائلة.

هكذا يجري تقييم الآخرين بلا خبرة، ثم شيئًا فشيئًا، تكون الأشياء أكثر وضوحًا، يتكفل الوقت بالسخرية من انطباعاتنا الأولى، لماذا علينا في الأصل أن نكوّن انطباعات أولية؟ لماذا لا نترك الوقت يتصرف من دون أن نتورط بالآخرين أو نورطهم معنا؟

مع بيداء وحدها كنت أشعر بالطمأنينة، ليس لأن انطباعي الأول عنها كان جيدًا، لكنه الوقت الذي تكفل بمكافحة الغموض، وإزالة العتمة عن طبيعة روحها، وجعلني أتعلق بها إلى هذا الحد، إنه الوقت الذي تراكم بيننا على هيئة ذكريات.

هل أغير القسم الذي أدرس فيه، وألتحق بالقسم الذي تدرس فيه بيداء، لأبقى قريبة منها؟

ماذا لو تغيرت بيداء نفسها؟ ماذا لو لم تعد تحب ذكرياتها؟

هذا الصباح، تحدثت عنها إلى نادية في الدقائق التي كنا ننتظر فيها

الباص، قلت لها: إن بيداء تدرس في قسم قريب مني، وأذهب للقائها بين المحاضرات، لم تهتم نادية بالأمر كثيرًا، ولم تعلق عليه، يبدو أنها لم تعش غربة شبيهة في كليتها، لم تجرب معنى أن تعلن عن حضورها بين الناس، كما لو أنها تولد فجأة وبلا تاريخ.

كانت نادية هذا الصباح على غير عادتها معي، في الحقيقة لم تكن على عادتها مع نفسها هي، لقد كبرت هذه البنت كثيرًا، أكثر مما يستحقه زمنها، كانت تضع طبقة من مساحيق التجميل فوق وجهها، مساحيق تحجب عني نضارتها القديمة، طبقة لونية مبالغ بها نسبيًا، لم تكن في حاجة إليها بهذا القدر، نادية في طبيعتها أجمل من نادية مع المساحيق.

ولكن في أيّ طبيعة هي أجمل؟ هل في الطبيعة التي أعرفها أنا وأدخلتها في إطارها المؤبد لأنها كل ذكرياتي وأريد أن أحبسها هناك، أنا أعرف نادية الصغيرة، التي التقيتها في ملجأ محصن ضد الحرب، وكبرت معها في الابتدائية، والمتوسطة، والإعدادية، أنا صديقة طفولتها ومراهقتها، أما هذا (الميك آب) فهو دخيل على علاقتنا، إنه يذهب بها إلى عالم جديد بعيد مني، (الميك آب) ممارسة عدوانية ضد ذكرياتنا، مجرد وسيلة باهتة للمصالحة مع الحاضر أو وسيلة غبية لتشويه الماضي، أو بالأحرى هي سلاح ناعم لتأجيل غدر المستقبل.

فاجأني فاروق مرة بهدية غريبة، هدية لم أكن أتوقعها منه، فبعد عودته من إحدى سفراته مع منتخب الشباب، أهداني علبة (ميك آب) متعددة الطوابق، تتدرج ألوانها من البني الغامق حتى الوردي الفاتح، هذه أول مرة في حياتي تكون عندي علبة من هذا النوع، وهذه أول مرة،

أكتشف أن وجهي مهدد بألوان غريبة عليه، صعدت إلى غرفتي وجربتها، وضعت الأحمر والأزرق والأخضر فوق خدي وتحت عينيّ وصرت أشبه المهرجين، كنت في السابق أشاهد أمي وهي تضع قليلًا من المرطب الأبيض على وجهها، ثم تمسك بقلم حمرة فاتح وتمرره فوق شفتيها، لكنها لا تستخدم هذه الألوان كلها، مرة صعدت خفية إلى غرفتها، جلست على الكرسي الذي تجلس عليه وهي تتجمل، وعبثت بمساحيقها أمام المرآة، دخلت فجأة وأخذتني من يدي وهي تضحك عليّ أمام أبي، أخذني في حضنه وقال لي: ستكبرين وتضعين المساحيق على وجهك وتصبحين جميلة.

هل كان فاروق يريد أن يقول لي كوني جميلة؟

هل أنا لست جميلة من دون هذه الألوان؟

لم يكن فاروق يفكر في ذلك كما أظن، ربما كان يريد أن يقول لي لقد أصبحتِ امرأة.

فاروق... أنت أيضًا أصبحت رجلًا، لم تعد تكتب لي الرسائل الملونة وترشها بالعطر، صرت تحمل الهدايا مثلما يحملها نجوم التلفزيون، هدايا جديدة تشتريها من عالم الكبار.

لم أذهب في باص الطالبات هذا اليوم، سأذهب لألتقي فاروق، سأترك لكم المستقبل هذا اليوم، وأترجل نحو الماضي، سأذهب مع فاروق أتمشى معه في الشوارع التي تعرفني وأعرفها، لا أريد الذهاب إلى المستقبل، أنا أخاف من غياب الماضي، أخاف من المجهول، المستقبل مفتوح على كل الاحتمالات، وكل الاحتمالات في الأفق هذه

الأيام تخيفني، ليست هناك معجزات يحققها المستقبل، إنه شيخ مريض يستند إلى عكاز الماضي ويتقدم نحونا.

المستقبل ليس طريقًا سريعًا يمضي بنا نحو الأمام، هذه كذبة، كذبة تافهة وسخيفة، نحن نعيش على ظهر مركب عملاق، تدفعه الأمواج في اللا اتجاه، تعبث به العواصف وسط بحر هائج من جنون العالم، كيف نثق بالمستقبل ونحن لا نتقدم؟ كيف نسلمه أمرنا ونحن نتراجع؟ كم مرة تركنا مستقبلنا خلفنا وتهنا في الطريق إلى أنفسنا؟

الماضي هو الحقيقة الأكيدة الوحيدة التي أثق بها، التي أعرفها جيدًا وأطمئن حتى لخرابها، لدي خوف مبهم من القادم، شعور عميق بالهزيمة، حدس جنوني بأننا ماضون نحو الفوضى، كل شيء يتدهور أمام عيني وهذه هي ثمرات المستقبل تتعفن فوق أغصانها وتسقط على الأرض، إنها تغريني بطعم مر، بمصير غامض ومجهول، أنظر باتجاه الآفاق الفسيحة وهي تضيق مثل زقاق نحيف في محلة بغدادية قديمة، شاهدته مرة في أحلام نادية ولم أنسه إلى الآن.

سأذهب مع فاروق هذا المساء، سأتجول معه في درابين الماضي، سأعيد معه كل الحكايات التي لا تقبل الإضافات، سأتحدث إليه بلهجة أحبها، لهجة هي أنا شخصيًا، من نحن من دون لهجتنا؟

(٢٦)

الحرب قادمة، لم يعد هناك مجال للشك في هذا، نحن نعرفها جيدًا ونتنفس رائحتها في الهواء، ها هو مغناطيسها يحرك الأشياء عن أماكنها من دون أن يلامسها، نحن نتحرك كالدبابيس الناعمة تحت تأثير شحناتها السالبة، لقد فقدنا الحس بمعرفة الاتجاهات.

من فوق سطح بيتنا، أقف مرة أخرى فوق خزان المياه، أتفقد سفينتنا وأشرعتها العالية في الآفاق البعيدة، أفرك عيني وأترقب الحرب، أحدد لها أهدافها بدقة، لقد أصبحت خبيرة بالمكان، خبيرة بالحروب وأهدافها، أعرف ما الذي تبحث عنه بالضبط.

تعالي أيتها الحرب الصديقة، هذا برج المأمون، وهذه ساعة بغداد، تلك البناية العالية، وذاك المطار، اذهبي إلى شارع الرشيد ثمة أبراج وبنايات في انتظارك، اذهبي نحو جسر الجمهورية هناك بناية جميلة اسمها وزارة التخطيط، تعالي من هذا الاتجاه، ارمي حمولتك هنا، استديري قليلًا إلى الوراء، هذه محطة الكهرباء، ليس بعيدًا منها هناك خزان المياه الكبير، تقربي قليلًا وأنزلي الصواريخ علينا، أرمي أثقالك في أي مكان ترغبين، أنت هذه المرة وحيدة في الساحة، نحن منهكون، وتعِبون، ويائسون، تعالي وتخلصي منا مثل نفايات بشرية لا حاجة لهذا العالم بها، نحن أيضًا لم نعد في حاجة إلى هذا العالم.

يمر سرب من الطيور في السماء، أرفع عيني نحوها وأدير رقبتي صوب مجال طيرانها وأشتهي خفتها، كم هي سعيدة هذه المخلوقات

التي تعيش بلا وطن، أريد أن أطير معها، أحلق بعيدًا، أريد أن أعيش في عالم جديد، عالم بلا حروب، أيتها السماء تلطفي بي مرة واحدة، لقد تعبت من الوطن.

بناية مدرستنا الابتدائية تحولت إلى ثكنة عسكرية، وتحولت المتوسطة إلى مستودع للصواريخ، فوق البنايات العالية انتصبت مضادات الطائرات وهي تدور بفوهاتها في السماء.

دخلت نادية بيتنا تبحث عني، عثرت عليّ فوق السطح أراقب الحرب، تعالي... قالت لي وأخذتني من يدي ونزلنا نحو حديقة البيت:

- أريد أن أبات في الملجأ هذه الليلة، أريد أن أعيش فيه مرة أخرى، لقد كنت حينها طفلة ولم أفهم معنى أن يهرب أحدهم من الموت، تعالي معي الليلة.

- هل جننتِ يا نادية؟

- لا، لست مجنونة، أريد أن أجرب معنى الهرب من الموت.

- لكن الحرب لم تبدأ، والملاجئ مغلقة.

- تعالي نجرب، تعالي نسبق الحرب ونضحك عليها، تعالي نجرب الهرب من الحياة إذًا.

خرجت معها صوب الملجأ في جولة استطلاعية نستكشف المكان، كانت البناية الكونكريتية مسورة بالأسلاك الشائكة، يعلوها غبار اثنتي عشرة سنة من الإهمال، تنام في ظلها الكلاب السائبة والقطط النافقة.

اثنتا عشرة سنة مرت على تعارفنا في هذا المكان الموحش، منذ أن غادرناه آخر مرة لم يدخل إليه أحد، لم تعد البلاد في حاجة إلى ملاجئ محصنة ضد الحروب، لم يعد الهروب من الموت أمرًا مهمًّا، المهم الآن هو الهروب من الحياة. تجاوزت نادية الأسلاك الشائكة وتبعتها، توجهت نحو فتحة الباب الصغيرة التي كنا ندخل منها وخطوت معها، وصلنا السلّم الضيّق الذي كنا نلعب فوقه في طفولتنا، وقفت على طولها عند الدرجة الخامسة ونطت في الهواء، لامست قدماها الأرض وصفقت لنفسها من الفرح، توسلت إليّ أن أنط أنا أيضًا، وقفت عند الدرجة الخامسة، مثلّت عليها دور الخائفة، نزلت وأنا أضحك من جنونها ثم عدت وقفزت عاليًا في الهواء.

عادت مرة أخرى، وفعلتها ثانية، ثم ثالثة ورابعة ولم تتعب، عندما توسلت إليها أن تكف عن هذه اللعبة لنغادر هذا الجحر شبه المظلم بروائحه الرطبة، تجاهلتني وتوغلت عميقًا في ظلام المكان وتبعتها بخطوات خائفة.

عند الزاوية التي كنا ننام فيها عام ١٩٩١، اكتشفنا سريرًا خشبيًّا عريضًا، إلى جانبه وضعت فخارية ماء تنزّ من تحتها بقعة رطبة وعصا طويلة ونظارة شمسية وساعة جيب وعلبة دواء وكتاب قديم بغلاف ممزق، تقدمنا نحو السرير مذهولتين، كان أحدهم ينام فيه، من دون أن يصدر منه صوت أنفاس أو حركة دقات قلب، أحد ما يرقد هنا من دون شهيق أو زفير، اقتربنا منه كثيرًا، لكنه بقي ساكنًا في مكانه مثل جثة هامدة، تلتحف شرشفًا أبيض وتغطي الرأس تحتها، ترددت نادية في

رفع الغطاء عن الوجه لكنه فاجأها ورفع الغطاء وهو يضحك بصوت عال:

ـ المشعوذ!!!!

تبسم ابتسامة ميتة بوجوهنا، ثم تناول مصباحًا يدويًا كان يخبئه تحت الوسادة وراح يوجه الضوء نحو أعيننا وهو يختنق من الضحك وتتحشرج في صدره نقنقة تشبه صوت فأر محاصر بالخطر، ركز الضوء في وجهي:

ـ لا تخافي، قال لي ثم حرك الضوء نحو وجه نادية وقال لها:

ـ لا تخافي.

نزل نوع من الطمأنينة على أرواحنا وزالت بعض آثار الخوف، عدّل المشعوذ من جلسته وخاطبني:

ـ أعرف أنك غير معنية بمعرفة ما هو قادم لكنني سأبعثك هذه اللحظة إلى مدينة ما بعد المستقبل، ثم استدرك وقال:

ـ سأبعثكما أنتما الاثنتين إلى حياة ما بعد هذه الحياة.

تقدمت منه قليلًا وقلت له:

ـ قبل أن ترسلنا إلى أي مكان، يجب أن تقول لنا من أنت؟ كيف دخلت إلى محلتنا؟ لماذا اخترتنا نحن دون سوانا؟ من أرسلك إلينا؟ وما هدفك من هذا كله؟ هل تعلم أنه منذ يوم ظهورك وإلى الآن ونحن لم نعرف راحة البال؟

عدّل من جلسته وأسند ظهره إلى حافة السرير من جهة الرأس وراح يضحك ثم تنحنح وقال:

- هذه أسئلة كثيرة، كيف يمكن أن أجاوب عنها دفعة واحدة؟ ليس من عادتي أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع ولكن مع ذلك، سأقول لك أمرًا واحدًا، أنتِ شخصيًّا سمعتِه من قبل، هل تتذكرين قبطان السفينة الذي صادفتِه على متنها ليلًا؟

- نعم أتذكر ذلك جيدًا.

اقتربت نادية وهي مستغربة لسماعها هذا الكلام وقبل أن تنطق بكلمة واحدة قلت لها: سأشرح لك ذلك في ما بعد... هذه مسألة معقدة، سأوضحها لك بالتفصيل، ثم أعدت جوابي مرة أخرى على المشعوذ:

- نعم أتذكر ذلك جيدًا.

- حسنًا يا صغيرتي أنا مجرد فكرة في خيال المحلة، والمحلة مجرد فكرة في رأسي، إن كل ما تقع عليه أعيننا هو مجرد فكرة، لا شيء حقيقيًّا في الواقع، كلنا مسجونون في خيالنا والواقع أن تجاربنا عبارة عن أفكار فقط، الوجود كله مجموعة من الأفكار، هذه هي الحقيقة الوحيدة، لا تصدقي غيرها ولا تخبري أحدًا بها، لأن الناس لا يصدقون الأشياء التي لا تدخل عقلهم، وهم لا يعرفون أين يقع عقلهم، لم يسألوا أنفسهم يومًا هل هم حقًّا يمتلكون شيئًا اسمه العقل؟ كيف شكله؟ ما لونه؟ العقل يا صغيرتي هو الآخر مجرد فكرة، فكرة معقدة تجعل من الأفكار الأخرى كأنها حقائق.

تذكرت هذه الكلمات، لقد سمعتها نفسها بالضبط من القبطان، وها هو المشعوذ يكررها أمامي، هل كان هو نفسه القبطان، فكرت أن أسأله هذا السؤال لكنه لم يدع لي فرصة، وجّه ضوء المصباح اليدوي نحو مركز عيني نادية ولما استقر تمامًا في البؤبؤ سحبها بقوة شديدة ورماها بعيدًا في عالم من الضوء، ثم عاد وفعل الشيء نفسه معي.

دخلت مدينة واسعة أسيجتها مبنية من طابوق أشعة الشمس الخافتة، مررت من تحت قوس من النيون الأبيض، كأنه يصدر عن ضوء كواكب قريبة، مشيت طريقًا ضيقًا مرصوفًا بحجر أحمر يتوهج من داخله مثل مكعبات من الثلج، خطوت فوقها بهدوء تتقدمني طيور السنونو بأجنحتها الذهبية، في نهاية الطريق انفتحت أمامي بوابة عظيمة تفضي إلى صالة هائلة يكاد يلامس سقفها النجوم وتهب من أركانها عطور منعشة.

تقدمني طائر سنونو صغير خرج عن سربه وقادني نحو غرفة جانبية من النور العميق، أمرني بالجلوس على أريكة هي تقريبًا أريكتنا نفسها في البيت التي تعودت الجلوس عليها، لكنها هذه المرة مصنوعة من زجاج شفاف، تتوسط بهوًا تهب عليه نسائم باردة.

خرج الطائر مصفقًا جناحيه البرونزيين وتركني لوحدي، لا أعرف ما الذي ينتظرني في هذا المكان الغريب والموحش.

مرت ساعات، ربما أيام، وأنا على هذه الحال، أجلس في مكاني وعندما أجوع تتدلى ثمار غريبة من شجرة جذعها من لون الباستيل الأحمر القاني، وأغصانها بألوان تتدرج من الأصفر، الأزرق، الأخضر،

البرتقالي إلى ما لا نهاية من التدرجات، حاولت أن أتذكر كيف وصلت إلى هنا، لكنني لم أعد أعرف شيئًا من خارج هذا العالم المضيء سوى ذكرى هذه الأريكة، أسمع صوت أهلي ينادون عليّ من البعيد لكن صدري كان بلا هواء.

فتح الباب ومر طائر السنونو وهو يقود نادية من خلفه، ثم أومأ لها أن تجلس إلى جانبي، فجلست بعيدًا مني كأنها اندهشت من وجودي، أو أنها لم تتعرف عليّ، وراحت تدقق في ملامحي لكي تتذكرني لكنها فشلت، نظرت إليها وحاولت أن أقول لها أهلا نادية، لكن صدري كان بلا هواء.

جاء ملاك أبيض بجناحين صغيرين لا تناسبان حجمه يمشي على قدميه الرقيقتين وأمرنا بإشارة من جناحه الأيسر بأن نتبعه، خرج بنا إلى فناء واسع ترصع سماءه كواكب خافتة الإضاءة، تنتشر حولها دوائر هائلة من الظلمة السحيقة، مررنا في شوارع شبه معتمة، ودرنا عشرات المرات حول غابات من الأشجار المضيئة تتحرك من حولنا وتغير اتجاهها في كل دورة، من بعيد شاهدنا كوخًا صغيرًا يستند إلى سفح تلة خضراء تحيطها أشجار السرو من ثلاث جهات وتهبط فوقها شهب من نور غريب.

فتح باب الكوخ واستقبلتنا صبية في العشرين من عمرها، ترتدي وشاحًا أصفر وأحذية من ريش، في معصمها سوارًا فضيًا نقش عليه اسمي، تتبعها قطة بيضاء، قادتنا نتجول معها في الحجرات الصغيرة للكوخ ودلتنا على المطبخ والطعام الذي قالت عنه إنه يكفي لبقائنا قرونًا عدة.

كان الكوخ بحجراته ومطبخه وصالته يشبه بيتًا ريفيًا من تلك التي تظهر في الأفلام ويتساقط عليها الثلج في كل الفصول.

ودعتنا الصبية بإيماءة من رأسها وخرجت تبتسم لنا ابتسامة بلا معنى وتركت القطة معنا، جلست نادية على مقعد من ريش وجلست أنا على مقعد آخر قريبًا منها، ابتسمت لي فابتسمت لها، عاد الهواء يملأ صدري، صحت بها... نادية!! وقفزت نحوها أحتضنها، اقتربت منا القطة البيضاء وقفزت في حجر نادية، كانت هي نفسها قطتنا التي وجدناها ترتجف من البرد وذهبنا بها إلى البيت.

جلسنا أنا ونادية والقطة بيننا، نتحدث إلى الصباح ونؤسس ذاكرة جديدة في هذا العالم الجديد، نمنا على بساط ملون، أغمضت عينيها، وراحت تتحدث إلى نفسها وتبتسم، عرفت أنها تحلم، اقتربت منها، وضعت وجهي مقابل وجهها ورحت أراقب أحلامها لكنها هذه المرة منعتني وأغلق باب الأحلام بوجهي.

في الصباح، أشرق كوكب صغير من النافذة، قال لنا: إنه ابن الشمس، حط طائر السنونو على غصن صغير وأزاح الكوكب بجناحه.

طرق أحدهم الباب، قامت نادية تفتحه، دخلت علينا الفتاة نفسها التي استقبلتنا ليلة البارحة ومعها تسع فتيات حسناوات إحداهن تشبه ميادة حين كانت طالبة مراهقة، يرفلن بالبياض الناصع ويضعن وشاحات صفرًا، تقدمن نحونا وسلَّمن علينا، نهضت من مكاني ودخلت المطبخ أعد لهن شايًا، تبعتني الفتاة التي تشبه ميادة تتأكد من قدرتي على استخدام أدوات الطبخ، ولما وجدتني حفظت الدرس جيدًا سألتني:

ـ هل تعرفين الدكتور توفيق؟

ـ لا... لا أعتقد أنني سمعت باسمه.

ـ إن عيادته في الشارع العام، أرجوك اذهبي إليه وقولي له: إن ميادة تحبك وتنتظرك هنا.

ـ سأفعل، قلت لها.

قبلتني من جبهتي وعادت إلى الصالة ووقفت تراقب من بعيد الفتيات اللاتي رحن يتحدثن إلى نادية وكأنهن صديقات قديمات حضرن للترحيب بها.

حملت لهن الشاي، شربن بحركات متسقة كأنهن يؤدين رقصة صامتة في فرقة باليه، بعد دقائق جاء شيخ عجوز يتوكأ على عصاه، دفع بها الباب ودخل علينا، أخرج من جيبه ورقة صغيرة، قرأ منها اسم نادية وأمرها بالوقوف:

ـ سوف تعودين من حيث أتيتِ.

تقدم نحوها وأخذ بيدها وخرج، بقيت وحدي مع القطة أنظر في وجوه الفتيات. خرجت ذات السوار الفضي وتبعنها واحدة بعد الأخرى بوجوه حزينة وأغلقن الباب عليّ.

صرخت بأعلى صوتي... أريد أن أرجع.

ظهر وجه رجل في منتصف الأربعين من عمره وأطل من النافذة الجانبية وهو يبتسم.

- أريد أن أرجع.... قلت له.

تواصل صراخي بوجهه وهو يبتسم من دون أن يتحرك من مكانه، بعد قليل استدار من ناحية الباب، دفعه بيده ودخل يوبخني.

- إلى أين تريدين أن ترجعي؟

- إلى بيتنا، إلى أهلي، إلى محلتنا، إلى صديقاتي، إلى الجامعة أريد أن أذهب مع نادية، أريد بغداد..

- ماذا تفعلين وسط ذاك الخراب والحرب على الأبواب؟

- وماذا أفعل هنا في هذا المكان الموحش وصدري بلا هواء.

- لأنك...

- ماذا؟! لأنني ميتة؟

- كلا، أنت بين بين.

- ماذا تقصد؟!

- أنت في مكان ما بين الحياة والموت، نحن هنا ندقق الأسماء جيدًا ونتأكد من الموتى قبل موتهم.

- وهل أنا منهم؟

- ليس بعد.

- إلى متى سأبقى على هذه الحال؟

ـ حتى نعرف اسمك، أنتِ حتى الآن لم تذكري لنا الاسم، ولم نتمكن من العثور عليه في السجلات، نحن لا نعرف عنك شيئًا.

تقدمت منه خطوات وهمست باسمي في أذنه، طلب مني أن أكرره عليه وكررته، قال لي:

ـ يا إلهي، لقد عرفتك، أنا أعرف أهلك جيدًا، إنهم أهلي وأحبهم، أنا أبو أحمد هل تعرفينه؟

ـ نعم أعرفه وأعرف أمه، هل أنت الذي استشهدت في الحرب العراقية ـ الإيرانية؟

ـ نعم أنا، قبل أن أموت كنت جاركم، وكان أهلك أصدقائي، أنا أحبهم، كيف حالهم؟ كيف حال زوجتي وابني الصغير أحمد؟

ـ كلهم بخير، وأحمد لم يعد صغيرًا، هو الآن يدرس الهندسة في جامعة الموصل وهو يحب نادية التي غادرت للتو.

ـ هل حقًا أصبح كبيرًا وجرب الحب أيضًا؟

ـ نعم هو شاب وسيم يحب الحياة ونادية تحبه من كل قلبها.

ـ يا لها من سعادة، أن تحب وتعيش قصة الحب في بغداد.

ـ أيّ سعادة يا عمي، إن بغداد لم تعد كما تعرفها.

ـ أعرفها، أعرفها جيدًا، لكننا نحبها ولا نراها إلا كما نتخيلها، تعالي معي إن جدك يعيش معنا في ذلك القصر الزجاجي في الجانب الآخر، لقد تعرفت عليه هنا قبل سنوات، إنه رجل كريم وطيب ونحن نسميه هارون الرشيد.

أصابني كلامه بالارتباك، كنت متلهفة لرؤية جدي لكنني خفت أن يبقيني معه، أحببت أن أسأله لماذا يسمونه هارون الرشيد لكنه قاطع سلسلة أفكاري وقال:

ـ جدك يحب بغداد، يحب أهلها، يحب كرخها ورصافتها، حتى هنا، في هذا النعيم هو لا يشرب المياه العذبة ويطلب ماء يؤتى به إليه من نهر دجلة، انظري إلى ذلك السور حول بيته، هل ترينه؟ لقد بنى حول بيته سورًا طابوقه من طين بغداد وسماه سور بغداد، عندما يأتي المساء، ويهزه الشوق، يذهب إلى بغداد في العصر العباسي ويتجول في قصورها ثم يجلس في مكان هارون الرشيد ويستدعي الشعراء والحكماء ويستمع إليهم، ثم يطلب المغنين والعازفين ويسهر معهم إلى الصباح، هو يريد من بغداد ألا تنام.

ـ لكن بغداد بناها المنصور؟

ـ هارون الرشيد فكرة بغدادية، حلم من أحلام أهلها، (بغداد هارون الرشيد) حكاية ترويها المدينة عن نفسها، ليس مهمًا الخطأ والصح في هذه الحكاية.

ـ نعم، فهمتك الآن، قلت له ذلك وأنا في الحقيقة لم أفهم جيدًا ماذا يقول، أخرج من جيبه ورقة صفراء قرأها وقال لي:

ـ انتظري قليلًا، سأعود وأحررك من هنا.

جلست أنتظر أكثر من ساعة، أو أقل من يوم أو أكثر، لا أدري كم من الوقت انتظرته، لأنهم هنا بلا وقت، بلا ساعة تشبه ساعة بغداد تعد

عليهم الثواني، عاد بملابسه العسكرية التي مات وهو يلبسها، صحبني إلى كوخ من الزجاج يمتد في الأفق بلا حدود يعيش فيه جدي.

تحت شمس حديقة واسعة، يستظل بأشجارها الوارفة يجلس جدي على كرسي من الألمنيوم تلفه شرائط بلاستيكية ملونة وفي حضنه القطة الصغيرة البيضاء، كان يرتدي ملابسه نفسها ونظارته نفسها اللتين رأيتهما في الصورة المعلقة على جدار غرفة جدتي، إلى جانبه علبة قديمة تحمل علامة حلويات الماكنتوش رتبت فيها أدوات حلاقته بعناية، يجلس إلى جانبه على تخت صغير رجل لا أعرفه يغمس فرشاة حلاقة صغيرة في وعاء من الصوابين العطرة ثم ينشرها على بشرة جدي، بعد أن ينتهي، يضع الفرشاة جانبًا، ثم يتناول ماكنة حلاقة ذهبية ويمرر الشفرة لحلاقة ذقنه بحذر شديد، بعد أن فرغ منه هذا الرجل الذي ظلّ صامتًا من دون أن ينظر في وجهي، تناول جدي زجاجة الكولونيا وعطّر وجهه ثم مسحه بمنشفة حريرية ونهض يتقدم نحوي وأخذني بحضنه، تشممت روحه والتصقت بها:

- كيف حالك يا حبيبتي؟

قال ذلك بنبرة عميقة، ثم عاد وجلس وأجلسني في حضنه بعد أن أخلت القطة مكانها ووقفت تحت قدميه وهي تموء بحنان.

- جدي، أنا خائفة.

- لا تخافي يا حفيدتي، كيف حال جدتك وأولادها وبناتها؟ كيف حال بيتنا وبستاننا؟ كيف حال الناس هناك؟

ـ جدي أنا خائفة، أنا أحبك لكنني لا أريد أن أبقى هنا.

ـ لا تخافي، ستخرجين من هنا، احكي لي عنكم، وماذا جرى لكم من بعدي؟

جلست ساعات طويلة أروي له بالتفصيل كل ما أعرفه عن الحياة هناك، وهو يضع يده على خده ويتأملني من دون أن يستغرب شيئًا، وبعد أن شعرت بالتعب قلت له:

ـ ليس لدي ما أضيفه.

ـ حفيدتي العزيزة، نحن عالم الموتى لم نمت جيدًا، لأننا نتألم لبلادنا، لأننا نشعر بالخذلان، بالخجل منكم حين تركناكم تتعذبون على ظهر سفينة اخترناها لكم من دون إرادتكم.

ـ جدي، هل صحيح أننا نعيش على ظهر سفينة؟!

نهض من مكانه وأخذني من يدي وصعدنا إلى تلة صغيرة وراء الكوخ، ثم مشينا في واد عميق من الورد، بعد ذلك، وقفنا عند حافة بئر عميقة مفتوحة على كوكب الأرض، رمى فيها وردة قطعها من غصن يتدلى على حافتها، بعد ثوانٍ انكشفت محلتنا أمامي بوضوح، كانت من هذا المكان العالي في السماوات البعيدة تبدو سفينة حقيقية بشراعها وبرجها ومرساتها، تعرفت على مدرستي ثم رأيت الملجأ، بعد ذلك شاهدت ساعة بغداد وبرج المأمون والجسر المعلق ثم عثرت على بيتنا وصحت بأعلى صوتي:

ـ أريد ماما وبابا.

ـ اذهبي بسلام يا حفيدتي، قولي لجدتك إنني بخير وأعيش في النعيم، قبّلي لي كل نخلة وكل شجرة في مدينتنا، قبّلي النهر والأرض والهواء هناك، اذهبي يا حفيدتي، لقد تأخرتِ، الحياة هناك، الحياة في مسقط الرأس أجمل حتى من هذا النعيم.

قفزت منه دمعة كأنها كرة من البلور، وقبل أن يغادرني نظر في عيني وقال:

ـ هل تتذكرين كم نخلة في بيتنا؟

ـ داخل السياج، هناك أربع نخلات يا جدي.

ـ قولي لجدتك أن تهتم بهن.

ـ نعم يا جدي سأقول لها، ولكن هل يمكنني أن آخذ القطة معي، إن صديقتي تبحث عنها منذ زمن بعيد وقد فرحت كثيرًا عندما وجدتها هنا؟

ـ لا يا ابنتي، هذه قطتي التي تسليني، إنها في عالمكم تعيش عمياء.

قفزت القطة نحوي تقبلني ثم قفزت نحو جدي الذي حملها على صدره وهو يبتعد عني ويردد مع نفسه:

ـ أربع نخلات يا إلهي، أربع نخلات تركتها في بيتي القديم وأريدها هنا.

بعد قليل، جاء طائر السنونو وقادني نحو البوابة النينونية التي دخلت منها أول مرة، خرجت ووجدت نادية تنتظرني في باب الملجأ أخذت بيدها وذهبنا إلى البيت.

(٢٧)

ـ اشتاقيتلك.

ـ آني أكثر فاروق.

راح المطر ينزل بقوة، ابتعدنا عنه نلوذ بشجرة كبيرة، بينما تدافع الطلاب يتراصفون تحت سقف الممرات الضيقة لكليتنا.

قال لي كأنه يصدر أمرًا:

ـ اذهبي، احملي كتبك وتعالي معي من دون نقاش.

ـ إلى أين؟

ـ نتمشى في كورنيش الأعظمية.

تركته في مكانه وذهبت إلى قاعة الدرس، حملت كتبي وعدت إليه، خرجنا من بوابة الجامعة، صعدنا في سيارته وانطلقنا إلى كورنيش الأعظمية، كانت النوارس تناور حول بقايا طعام تطفو على سطح النهر، تذكرت حقيبة نادية التي حلمت مرة أن النوارس سرقتها.

كان فاروق يقترب مني ونحن نقف إلى القرب من بعضنا عند حافة النهر، أشم عطره الذي يربكني، أحاول أن أبتعد عنه وأترك بيننا مسافة، لكن شيئًا ما في داخلي يمنعني من الحركة، كنت أتنفسه مع رائحة النهر، أشتاق في هذه اللحظة أن أحضنه إلى الأبد، أن أغفو على صدره، أن أقبله من رقبته عشرين قبلة، أن يمرر يده فوق شعري، أن

يأخذني بقبلة مباغتة ويرطب حياتي مثل موجة لا تعرف الجفاف، حاولت أن أمسك يده لكنني تلفت حولي وترددت.

هل كان هو يفكر في أن يحضنني أيضًا؟ هل يرتجف من أعماقه ويود لو أننا نذوب في لحظة عناق مستمرة مثل جريان نهر أبدي، كان نظره يسرح مع الموجات وكنت أتأمل صمته. كم أحبك يا فاروق، كيف أقولها لك وتسمعها من روحي، اقتربت يداه من يدي وتلامست أطراف أصابعنا، هبت نسائم منعشة من جانب النهر وحركت خصلات شعري إلى الوراء، نزلت الشمس على سطح الماء، وحلقت حولها النوارس تحسبها رغيفًا كبيرًا خرج للتو من تنور قروية طيبة الروح.

التقط نورس صغير قطعة من الخبز من حافة النهر وحلق بها عاليًا تطارده النوارس الكبيرة، مر من تحت الجسر الحديدي واختفى.

- ستندلع الحرب قريبًا.

- متى؟

- قريبًا، كل شيء يقول إنها آتية تحمل معها الأخبار غير السعيدة.

- هل تخاف من الحرب؟

- أخاف عليك، على حبنا، على ذكرياتنا، لا أعرف إلى أي مصير ستأخذنا. الحرب ليست معركة بين طرفين فيها منتصر ومهزوم، الحرب تقلب الحياة على رأسها وتبعثر الأشياء مثل كرة مرمية لا على التعيين، ربما هذه آخر مرة نقف فيها عند ضفة النهر، آخر مرة نستطيع أن نتمشى فيها في وضح النهار.

ـ فاروق لا تقل لي مثل هذا الكلام، أنا أخاف.

ـ كلنا نخاف، حتى هذه الشمس تخاف.

ـ ما الحل؟ لقد تعبت من الأخبار.

ـ لا أحد بيده الحل، الأسماك الصغيرة في النهر ليس بيدها أن تقرر اتجاه جريانه، وحتى الأسماك الكبيرة لا تؤثر في هذا الاتجاه، نحن مثل الأسماك الصغيرة في هذا النهر، لا نعرف أين ستلقي بنا الأمواج.

ـ فاروق أنت كبران وصاير عاقل.

ـ في هذا البلد يكبر الإنسان كل يوم عشر سنوات.

ـ أريد أن أبقى صغيرة، لا أحب أن أذهب إلى عالم الكبار، أريد أن نبقى صغارًا إلى الأبد، أنا وأنت ونادية وكل المحلة.

ـ بالمناسبة ما أخبار نادية؟

ـ نادية كبرت، لأنها تريد أن تكبر، حتى إنني صرت لا أعرفها، صرت أخاف أن تذهب إلى عالم الكبار وتتركني، هل تحب أن نذهب إليها الآن؟

ـ أين هي؟

ـ في الجامعة، بالجادرية.

ـ تعالي.

قبل أن ندخل إلى بوابة الجامعة، وجدنا نادية في طريقها للخروج متوجهة نحو الباص، ابتهجت لمصادفة لقائنا، وابتهجت أكثر عندما علمت أننا هنا من أجلها، اعتذرت لسائق الباص وجاءت تتمشى معنا، سرنا نحن الثلاثة باتجاه الجسر، وقررنا أن نتسكع من دون هدف.

في الطريق، بعد دقائق من الصمت، أخرجت نادية من حقيبتها رسالة مرفقة بصورة، بعثها أحمد من الموصل مع أخت صديقة له تدرس معه في الكلية نفسها، أعادت الرسالة إلى حقيبتها وناولتني الصورة لوحدها، فهمت من نظراتها، أن الصورة تحمل أخبارًا غير سارة.

في الصورة، يظهر أحمد مبتسمًا وهو يقف على الطرف الأيمن من صف زملائه في لقطة جماعية لقسم العمارة، كتفه لصق كتف فتاة شقراء تكشف ملامحها الأولية عن جمال باهر، مررت الصورة لفاروق الذي تمعن فيها جيدًا، ليقرأ تفاصيلها بشكل أكثر دقة، ألقى عليها نظرة عابرة ثم أعادها إليّ من دون أن ينبس بكلمة واحدة، راقبت نادية صمتنا المعبر وقالت بعد أن تنهدت بألم:

- هذا ما كنت أخاف منه.

- لكنها صورة بريئة يا نادية.

- إذا تقرين الرسالة وتربطين بينها وبين الصورة راح تعرفين مو بريئة.

- لكن أحمد يحبك.

- كان يحبني.

ليست نادية وحدها من سمحت لدموعها أن تتحرر هذه اللحظة، دموعي أنا كانت تبحث عن حريتها من أجل صديقتي وهي تتعثر في الحب، نادية مثلي أنا، لم تجرب من قبل معنى الخذلان في المشاعر، لم تعرف معنى أن يتغير عليها من تحبه وأن يرمي بقلبه في اتجاه بعيد، كيف يمكن لمن أحب أن يتخلى عن ذكرياته؟ أن يؤسس ممالك جديدة من الكلمات والغناء واللهفة في مدن بعيدة؟ كيف ستعود أحلامه على وجوه جديدة؟ صحيح أن الحب قد يولد من لحظة واحدة، لكنه يتأسس في ما بعد كمدينة كبيرة مبنية من شهيق الروح.

بعد ساعة من التجوال، شعرت نادية بالتعب وبان على ملامحها الحزن، توجهنا إلى المكان الذي ركن فيه فاروق سيارته، جلست إلى جانبه وجلست نادية خلفنا، كان راديو السيارة يبث أغنية هيثم يوسف:

قصرت وياك يوم

گلي لو زليت مرة

شمعة إلك ضويت دوم

عمري ضاع أيام مُرة

وصلنا قرب شارعنا، نزلنا أنا ونادية ودارت السيارة في الاتجاه الآخر، من بعيد هب برياد يهرول نحونا فرحًا بقدومنا، وقفنا دقائق نداعبه ونربت على ظهره وهو يتقافز نشوان.

قبل أن تنام في تلك الليلة، كتبتْ نادية لأحمد رسالة طويلة ثم مزقتها، كتبت له رسالة ثانية ثم مزقتها، وهكذا راحت تكتب وتمزق حتى غلبها النعاس ونامت.

في حلمها كانت تجلس على مصطبة تحت شجرة اليوكالبتوز، التي تعودا أن يجلسا عندها في الزوراء، بين يديها كتاب مدرسي وهي منهمكة بقراءته، فجأة فزت مع قبلة ودودة على خدها ولمسة حنونة على كتفها، جاء أحمد من وراء الشجرة وقبلها.

هناك قبلات لا تأتي من الرغبة ولم نكن مستعدين لها، قبلات لا نذوب معها لكنها تجعلنا نحب أنفسنا ونحب كل شيء من حولنا.

(٢٨)

أخرج عمو شوكت معطفه الشتائي من الخزانة ولبسه فوق ملابسه، خرج إلى حديقة بيته الخلفية وسرّح البلبل من قفصه، حرر طيور القبج بعد أن وضع لها طعامها في الساقية.

من دون أن ينظر إلى هيئته في المرآة كما تعود في كل سني حياته، خرج إلى الشارع يتبعه برياد، الذي أصبح الآن كبيرًا ويتصرف بمسؤولية، يجري أمام صاحبه يؤمّن له الطريق، مر على بعض البيوت المتروكة، ثم توجه نحو دكان أبي نبيل، انضم إلى حلقة من رجال المحلة القدماء الذين اعتادوا الجلوس مساء في هذا المكان، في حين جلس الكلب بعيدًا منهم بخطوات وهو ينظر إلى عيني صاحبه.

عانى أبو حسام كثيرًا من إلحاح عمو شوكت، لكي يعيد على مسامعه حكاية قديمة سمعها منه مرات عدة في السابق، حصلت معه في أثناء عمله مديرًا في السكك الحديد، كان أبو حسام في هذه الأيام قليل

الكلام، وهو يعيش في داخله أحزان مقتل ابنته وهروب شقيقها، لكنه يحب عمو شوكت فراح يعيد عليه الحكاية بصوت منهك، لكن عمو شوكت لم يسمعها جيدًا، لأن سمعه أصبح ثقيلًا، ظل أبو حسام يكررها مرة بعد مرة وهو يرفع صوته لكي يسمعها له ولكن بلا فائدة.

تأسف باقي الرجال في دواخلهم على الحال التي بلغها جارهم المعروف بعنايته الفائقة بصحته، وأناقة هندامه وهو بهذا المنظر المزري الذي لا يليق به، شعر هو بنظراتهم الحانية نحوه، التي حملت معها نوعًا من العطف يشبه الشفقة التي لا يقبلها على نفسه.

ـ أنا شوكت إبراهيم أوغلو عشت حياتي كريمًا وسأموت كريمًا.

قالها في نفسه ولكن بصوت سمعه الجميع، نهض وغادرهم يتقدمه كلبه بخطوات من دون أن يضيف كلمة واحدة.

لم ينزعج أحد منهم، بل على العكس، راحوا يستذكرون في ما بينهم مواقف جارهم وأخلاقه الرفيعة وسيرته المشرفة مع كل الجيران، وهم حزانى على تدهور حالته. كان عمو شوكت أكثر الرجال في المحلة انشراحًا وطيبة قلب، كما أن مظهره الخارجي كان مثالًا في حسن الذوق.

من جهته هو، كان يخمن أن الحديث سيدور عنه عندما غادر مجلسهم، يعرف من أعماقه كم يحبه الآخرون ويقدرون له تلك العلاقة الطيبة التي استمرت لسنوات طويلة:

ـ لا أمل في هذه الحياة، لقد انقضت الأيام الجميلة بغير رجعة، لم

تعد المحلة كما كانت منذ أن غادرتها أول عائلة وهاجرت بعيدًا، أنا في هذا الوقت، لا عمل لي سوى أن أعد الأيام غير المهمة في الحياة وأعيشها بحكم العادة، لولا مسؤوليتي عن البيوت المهجورة لتركت المكان، وذهبت أقضي سنواتي الأخيرة في قريتي بمدينة كركوك.

دخل بيته، وأخرج بساطًا ثقيلًا فرشه خلف سيارته المعطلة، وقرر أن ينام هنا هذه الليلة، لقد تعب من النوم في الغرفة المعتمة، صار يختنق من الجدران والسقوف، تمدد على ظهره ووضع الراديو على صدره وهو يتأمل النجوم في السماء.

تمدد برياد قريبًا منه وفي عينيه حزن عميق، كان الطقس معتدلًا في أول المساء، لكن نسائم باردة مصحوبة برذاذ مطر خفيف، هبت عليهما بعد منتصف الليل، حمل البساط إلى داخل البيت، كوّره تحت السلّم من دون ترتيب وتمدد على الأريكة.

قبل أن تغفو عيناه، تذكر برياد الذي تركه في الخارج، نهض وخرج يناديه، أدخله لينام معه في الصالة، انفرجت أساريره لهذه الخطوة الرحيمة تجاه رفيق حياته.

في صباح اليوم التالي، شاهده الجيران عند باب بيت أم ريتا، وهو يجثو على ركبتيه ويطلق صراخًا مبحوحًا، بعدما اكتشف أن أثاث البيت قد سرق بالكامل، ولم يترك فيه اللصوص سوى تمثال صغير للسيدة العذراء مرمي بشكل حزين في مدخل الصالة وعلى رقبته تلتف مسبحة سوداء.

اجتمع حوله الجيران، ممسكين بذراعه في محاولات منهم لثنيه

عن البكاء، لكنه التصق بباب البيت، وواصل الشكوى بقلب يتفطر ألمًا، التفت إلى الكلب وراح يشتمه بحرقة، لأنه لم يقم بواجبه جيدًا، هرب برياد بعيدًا منه وراح يبكي هو الآخر.

في المساء، حمل فراشه وأغطيته وبعض الأدوية وجهاز الراديو وقرر أن ينام عند مدخل بيت أم ريتا متحديًا اللصوص.

من هذه الحادثة، لم يعد عمو شوكت يثق بالكلب كثيرًا، أصبح هو شخصيًّا بمنزلة حارس ليلي طوعي للسهر على البيوت التي هجرها أهلها، يراقب حركة الغرباء بريبة وحذر، ويتابع خطواتهم من بعيد، يطلق صوت صافرة رياضية منحها له فاروق. كان يحاول جاهدًا حراسة الماضي من الزوال.

يومًا بعد يوم، تدهورت صحته وضعف بصره، وصار يجرجر قدميه في الطريق بصعوبة، لم يتخل عن معطفه الشتائي الثقيل حتى في الأوقات الحارة في منتصف الظهيرة، نسي عادة الاستحمام اليومي، ولم يعد يدخل بيته إلا لقضاء حاجاته الطبيعية، أو لإعداد طعامه والشاي الذي يسكبه في الترمس لحفظ حرارته طوال اليوم، لقد أضحى بيته شبه مهجور هو الآخر.

كان الجيران من الوافدين الجدد، يحسبونه رجلًا مجنونًا، أما نحن أبناء الجيرة القديمة فقد ترسخت في أعماقنا صورة عمو شوكت الأنيق ببذلته، وحذائه، وربطة عنقه، بوجهه الحليق، وطلته البهية وهو يرسم بأسنانه الساعات المدورة على أيدي الأطفال ثم يوزع بينهم الحلوى، كنا نعتقد أن حالته هذه، هي حالة طارئة، مثل كل شيء طارئ

في حياتنا، أزمة عابرة ستمر حتمًا وسيستعيد بعدها عافيته.

قبل وقوع الحرب بشهر، تم اعتقاله من جانب الحكومة، للاشتباه بسلوكه والتغيير المفاجئ الذي طرأ عليه، الحكومة تهتم كثيرًا عندما يتغير سلوك أحدهم، إنهم يشكون حتى في المرضى إذا تغيرت أحوالهم من جراء المرض، أخذوا عمو شوكت من دون ذنب ومن دون مراعاة لحالته الصحية.

عاش برياد في هذه المدة شبه مشرد، ويرفض دعوات الجيران له بالمبيت داخل بيوتهم، لم يعد يأكل الطعام الذي نضعه أمامه ولا حتى يقترب منا.

ندم الكلب كثيرًا على ما كان يعتقد أنها غلطته، على الرغم من أنها لم تكن كذلك، عمو شوكت هو الذي دعاه لينام معه تلك الليلة في الصالة، الأمر الذي استغله اللصوص وسرقوا بيت أم ريتا.

أطلق سراح عمو شوكت بعد سبعة أيام، وهو في حال أكثر تعاسة من التي كان عليها، لا يزيد مظهره سوءًا، إلا منظر الصورة التي علقها على صدره للرئيس، وهو يطلق النار في الهواء، فرح برياد بعودته كثيرًا وعاد يرافقه مثل ظله.

تصاعدت أناشيد الحرب بشكل جدي، وتأكد الجميع أن موعد هذه الحرب باتت وشيكة، حمل عمو شوكت سلمًا خشبيًا متحركًا، وأسنده إلى جدار بناية عالية في رأس الشارع، صعد السلم بصعوبة، وثبت بمسامير طويلة على واجهة البناية، قطعة كارتونية كبيرة كتب عليها: (المحلة للبيع أو للإيجار).

قامت الحرب بعد أيام، وأخذت الصواريخ تسقط منذ الفجر، عادت الأجواء نفسها التي عشناها عام ١٩٩١، لكننا هذه المرة تعودنا عليها، لم نعد نخاف كثيرًا، كما أن حياتنا لا تستحق أن نخاف، في داخلنا رغبة قوية للوصول إلى نهاية معروفة مهما كانت نتيجة هذه النهاية، الصواريخ تسقط هنا وهناك والطائرات تحوم في النهار والليل، لكننا لم نذهب إلى الملجأ، ولم نتكور تحت السلالم في بيوتنا.

الناس يجلسون أمام أبواب بيوتهم، ويستمعون من الراديو إلى آخر الأخبار، أستطيع أن أقول إن الحياة كانت عادية، لكن الجميع في انتظار النتيجة، كان الجو جميلًا هذه الأيام، على الرغم من الدخان الأسود الذي يتصاعد من كل الجهات، كانت فرصة لنجتمع في المحلة، لأن الدوام معطل في المدارس والجامعات والدوائر، الكل لديهم وقت جيد للخروج إلى الشارع والحديث مع الآخرين، كنا أنا ونادية وبيداء نلتقي في حديقة بيتنا ثم نخرج إلى الباب نراقب الحياة التي بدت هادئة، كيف كانت الحياة هادئة مع كل هذه الصواريخ والانفجارات؟ أحيانًا وفي اللحظات العصيبة يأتينا السلم من الداخل، تشرق في أرواحنا طمأنينة غير مألوفة يأتي بها اليأس أو الرغبة في الحياة أو شيء آخر لا أعرفه.

سقطت بغداد.....

اندلعت الحرائق في كل مكان وتصاعد الدخان في الأرجاء، التهمت النيران قطعة الكارتون السميكة التي علقها عمو شوكت في رأس الشارع وتفتتت في الهواء إلى غبار أسود.

هربت مع عائلتي إلى بيت جدتي في الريف، عشت هناك أشهرًا من الراحة النسبية بعيدًا من الفوضى التي ضربت كل شيء، تكيفت مع حياة الطبيعة والطيور وخرير مياه السواقي، تغيرت ملامحي، كما تغيرت ملابسي وطريقة نومي وأكلي وشربي، تغير كل شيء في حياتي.

في ساعات الغروب، أشتاق إلى نادية وبيداء وفاروق وبيتنا ومحلتنا، أجلس وحيدة عند ضفة النهر قريبًا من النواعير، أراقب الأمواج الصغيرة، وهي تدفع قوارب الصيادين تحت الجسر.

قبل سنوات، كنت طفلة صغيرة، عندما جئت إلى هذا المكان هربًا من حرب قديمة، وها أنا الآن أعود إليه هربًا من حرب جديدة، الطائرات نفسها، والصواريخ نفسها تطاردني بعد اثنتي عشرة سنة من الحصار.

ماذا كان يريد بوش الأب من حياتي؟

وما الذي يطلبه بوش الابن منها؟

كيف سأروي هذه الحكايات لأطفالي في المستقبل؟ وكيف سيصدق أحفادهم أن رئيسين لدولة عظمى كانا يطاردان حياتي بالصواريخ؟

ولكن من جانب آخر، عليّ أن أشكرهما، فمن دونهما ما كنت لأزور مدينة جدتي، هذه الجنة الساحرة، التي تغفو على نهر الفرات، حيث قبور أجدادي وأرواحهم تملأ المكان.

لم تعد جدتي كما كانت تتمتع بكامل صحتها ونشاطها، لقد أخذت منها الأيام مأخذها، وصارت تتوكأ في مشيتها على الجدران، لم

تعد تنام في غرفتها القديمة، التي تدخلها النجوم من النافذة، سهرت إلى جانبها أتوسل إليها أن تحكي لي قصة، أريد أن أعود صغيرة في حضنها، أريدها أن تكرر عليّ أنها أمي:

ـ لقد ولدتك من بطني قبل أن ألد أمك.

تبتسم جدتي بوجهي وهي تصارع الآلام في جسدها، كنت أفكر وأنا أنظر إلى ملامحها التعبة في أنها ستغادر هذه الحياة في يوم ما، وتنقطع علاقتي نهائيًّا بهذا المكان الذي يحميني من الحروب.

هذه البقعة الرحيمة من الأرض ليست سفينة راسية في انتظار إشارة الانطلاق، هذه أرض حقيقية ملتصقة بذاكرتها، قريبة من طبيعتها الأولى، حتى النخلة هنا، هي سليلة نخيل تجذر في هذا المكان منذ آلاف السنين، والطيور هنا لا تبني لصغارها أعشاشًا جديدة، إنها ترمم القديمة وتستقر فيها، الأسماك هنا تعاند مجرى النهر، تحتال عليه لتراوح مكانها وتلهو مع النواعير، قبّلت النخلات، قبّلت الأشجار، قبّلت الأرض والماء، قبّلت الهواء قبّلت كل شيء يحبه جدي، دخلت غرفة جدتي المعتمة نظرت في صورته التي كانت تحميني من اللصوص:

ـ لقد قبّلت لك كل ما طلبته مني يا جدي، هل تريد مني شيئًا آخر؟

ابتسم لي جدي من صورته، رفع سدارته من على رأسه ثم وضعها جانبًا.

تذكرت كوخه في مدينة النور، تذكرت رائحة الجنة التي يسكن فيها، تذكرت حبه للأرض ونزلت من عيني دمعة.

في الليل، جلست أقبل جدتي في جبينها واحتضنتها ونمت إلى جانبها، غدًا سنعود إلى بغداد، الأمور تتدهور ولا أمل في استقرارها، لابد من أن نقبل الأمر الواقع ونتكيف معه، يردد أبي هذه الكلمات وتهز أمي رأسها موافقة.

نهضت صباحًا وأعددت لها فطورًا يشبه تلك الفطورات التي كانت تعدها لي في طفولتي، تناولته معها من دون أن أنبس بكلمة واحدة، قبلت يدها ونهضت ألملم حقيبتي.

عدنا إلى بيتنا في بغداد، تعاونا جميعًا على تنظيفه ومسح الغبار المتراكم في كل مكان، أحكمنا إغلاق النوافذ والمداخل بأشرطة حديدية سميكة ونمنا من التعب.

بيتنا الواسع المريح، بهوائه النقي، حيث تدور الشمس عليه من كل اتجاه، صار كئيبًا ومعتمًا، تتحرك على سقوفه أطياف غريبة. راحة البيوت من راحة أهلها، لم يكن بيتنا سعيدًا هذه الأيام، كان يتألم من الوحشة، كان يتنفس الهواء الملوث ويختنق بالبكاء. هل رأيتم بيوتًا تبكي؟ أنا سمعت كثيرًا أنين جدران بيتنا، ورأيت بعيني دموعها وبكيت معها.

في هذا البيت ولدت، وفيه نطقت الحروف الأولى، هنا قلت أول (بابا) وأول (ماما). على هذه البلاطات تعلمت أن أقف وأخطو، وأسقط ثم أنهض وأخطو. عندما خطوت نحو الباب لأول مرة،

انكشف أمامي ضوء العالم ودخلت منه الحروب. في هذا البيت، كنت أرى الأشياء كما هي في حقيقتها، أرى الباب بابًا، والشارع شارعًا، والنافذة نافذة. أرى الشجرة شجرة، والوردة وردة. أين ذهب ذلك الوضوح القديم، الذي كانت تحمله الأشياء الصلدة، لماذا فقد الباب قوة وجوده والشجرة حضورها والوردة ملمسها. في الطفولة، نحن نرى الأشياء كما هي بدرجة وضوحها العالي، نعيشها عن قرب كأشياء حقيقية، نتحسسها ونفطن لقوة انبثاقها أمامنا. لماذا تغيرت هذه الأشياء وأصبحت غريبة ومشوشة وفقدت ثقلها؟.

باب، شباك، بيت، شجرة، كلب، قطة، عصفور، مدفأة، كرسي، منضدة، الأشياء عندما نقولها منفردة نشعر بثقل روحها، وعندما نضعها في جمل مفيدة نقتل هذه الروح. لماذا تعلمنا أن نقول الأشياء في جمل مفيدة. الأشياء بحد ذاتها تكون مفيدة بلا جمل.

في هذه الأيام العاطلة عن المعنى، عثرت على رواية (مئة عام من العزلة) في مكتبة والدي، وسافرت خلالها من محلتنا إلى قرية ماكوندو، التي أصاب أهلها نفس الأرق الذي نعيشه هنا. نحن أيضًا لم نعد ننعم بالنوم. بدأ النسيان يمسح سبورة ذاكرتنا المشتركة. نمر على عمو شوكت، وكأننا لا نعرفه كما كنا نعرفه. نمر على البيوت وننسى أسماء ساكنيها. تغير شكل الأشياء، وأصبح الشيء الواحد يمتلك أسماء كثيرة. لم تعد اللغة تتمتع بصحة جيدة: تحرير. سقوط. احتلال. غزو. اجتياح. حواسم.

كيف يمكن أن يكون ليوم واحد كل هذه الأسماء؟.

الأيام التي ليس لها اسم واضح، هي الأيام التي ينتهي معها الأمل، هي الأيام الرخوة التي ليست لديها قوة كافية لمواجهة المستقبل.

انتقلت عدوى تعددية الأسماء إلى الناس أنفسهم. لم يعد الاسم يعني الشخص نفسه، صارت هويته الطائفية. عدد كبير من الشباب عاشوا أيامًا صعبة بأكثر من اسم ولقب وعنوان، عندما تتخلى عن اسمك كيف ستعرف الآخرين؟

وحده فاروق لم يستطع تغيير اسمه، فهو لاعب مشهور ويعرفه الجميع. جاء في ظهيرة أحد الأيام، استجمع شجاعته وطرق باب بيتنا، ولما لم يفتحها أحد له، رمى في كراج البيت رسالة قصيرة يودعني فيها، قال إنه سيسافر بعد ساعة من الآن إلى الأردن. عثرت أمي على الرسالة وحملتها بيد مرتعشة، لقد حسبتها واحدة من تلك الرسائل التي تتوعد الناس وتهددهم بترك بيوتهم. قرأت الرسالة بسرعة وهدأ خوفها، وبدل أن تمزقها كما هو متوقع منها، دخلت عليّ الصالة ورمتها بوجهي، من دون أن تنبس بكلمة واحدة. تناولت الورقة وصعدت بها إلى غرفتي أقرأها وأبكي:

حبيبتي الغالية.....

أنا مضطر للسفر مع منتخب الشباب، كنت أحب أن أراك في هذه الساعة الحزينة. ألم أقل لك: إن الحرب ستحرمنا من أجمل الأشياء. هل تتذكرين ذلك، حين كنا نراقب سقوط الشمس في دجلة. أحبك...

فاروق.

بعد الغداء، طلبت من أمي أن تأخذني إلى بيت نادية، لقد اشتقت إليها، أريد أن أذرف دموعي على كتفها، فتحت أمي باب البيت، نظرت بعينين خائفتين تتفحص المكان يمينًا ويسارًا، عندما شاهدت برياد يتجول في الشارع عاقفًا ذيله الأبيض، تأكدت حينها أن شارعنا خال من الغرباء، وضعت العباءة على رأسي وهذه أول مرة أرتدي فيها عباءة تعود في الأصل إلى أمي، مشينا مسرعتين باتجاه بيت نادية، كان شقيقها مؤيد يجلس على كرسي عتيق عند مدخل باب البيت، نهض يرحب بنا، عادت أمي أدراجها ودخلت أنا من دون أن أطرق الباب الداخلي لصالة البيت كما كنت أفعل ذلك في طفولتي، فزّت نادية من مقعدها وعانقتني بدهشة تشبه سقوط مدينة، هذه أول مرة ألتقيها بعد سقوط بغداد.

صعدنا إلى غرفتها وانهمرت دموعي على كتفها، بكت معي هي الأخرى، بقيت عندها حتى ساعة غروب الشمس ورجعت إلى بيتنا برفقة مؤيد، الذي أطمأن إلى وصولي ثم ودعني وعاد.

تحولت زيارتي لبيت نادية إلى عادة يومية في هذا الزمن البطيء، كل يوم تقريبًا أضع العباءة على رأسي وأذهب إليها، في اليوم الذي غازلني فيه جندي أمريكي هو أحد أفراد دورية تطوف المحلة، توقفت عن الذهاب إلى بيتهم، وصارت هي من تزورني بشكل يومي، بعد أن يصحبها شقيقها حتى باب بيتنا، أحيانًا تقضي ليلتها معي نتسامر حتى موعد شروق الشمس ثم ننام.

أعرتها رواية ماركيز وأعادتها إليّ في اليوم التالي:

ـ طويلة والأسماء فيها معقدة ولم أفهم منها شيئًا.

بالنسبة إليّ، أعدت قراءة الرواية غير مرة، لقد شكلت لي عالمًا سحريًا موازيًا أهرب إليه من ضغط الأيام الصعبة التي تعيشها محلتنا.

اعتقل الأمريكان والد نادية، ثم جاؤوا في ليلة ثانية واعتقلوا شقيقها، بعد أيام أطلق سراح الأب، وبقي الابن أكثر من أسبوع ثم أطلق سراحه بتدخل من مروة، التي صارت تعمل بصفة مترجمة مع الجيش الأمريكي، واضطر أهلها حفاظًا على حياتهم لمغادرة بيتهم إلى جهة مجهولة.

(٢٩)

في أحد أيام شهر تموز من العام الأول للاحتلال، زارتنا مروة متخفية بعباءة ونظارات شمسية كبيرة الحجم، حذرتنا بصوت منخفض وهي تتلفت يمينًا ويسارًا لكي تمنح حديثها أهمية:

- الأمريكان يشتبهون بوجود جماعات من المسلحين في البيوت المهجورة، وستقوم وحدات المارينز غدًا بتطويق المكان، وتفتيش البيوت بيتًا بيتًا، ستجرى مداهمات ليلية على الجميع.

قالت لنا ذلك، ثم نصحتنا أن نكون متعاونين معهم، لأن التعليمات التي لديهم حاسمة في إطلاق النار على أي مشتبه به.

قبل أن تغادرنا، قالت بهمس وكأنها تفشي سرًا خطيرًا:

-إنهم يبحثون عن أحد.

تابعتها عيناي وهي تمشي في الاتجاه الآخر من الدربونة، تذكرت العلم، وتحية العلم، ورصاص بندقيتها، الذي كان يفزع العصافير لتفر من أعشاشها، لكنني وعلى الرغم من ذلك كله، كنت أحبها، أحب شيئًا ما في داخلها، هناك في أعماق روحها، ثمة مروة أخرى تشبه طفولتنا، على الرغم من أنها كانت تتحدث إلى أهلي وتتجاهلني بنظراتها، كنت أنا أركز نظري في وجهها، أبحث عن عينيها القديمتين، عن أنفها، عن فمها الطفولي وهي تشاكسنا في الطريق، لقد كبرنا في المكان نفسه وتنفسنا الهواء نفسه ولهونا هنا على أسفلت هذا الشارع وتحت مصباح العمود الكهربائي.

-إنهم يبحثون عن أحمد.

لقد كان قلبك الصغير من يبحث عن أحمد يا مروة. حين كنا نعيش مراهقتنا، حاولت اصطياده بالأغاني والابتسامات لكنه كان يحب نادية، واليوم تأتين بأكبر قوة عسكرية في التاريخ لاصطياده من جديد، كم أنتِ عاشقة عظيمة يا مروة، كم أنتِ عنيدة وقوية يا مروة، لكنها هذه الحياة، هذا هو الحب لا يأتي بالقوة، حتى لو كانت أكبر قوة عسكرية في التاريخ. الحب يأتي من مكان آخر لا يمكن لكل تكنولوجيا المارينز أن تعثر عليه، لكن قلب صبية عاشقة يعرفه جيدًا. أنت جميلة وفاتنة وألف أحمد يتمناكِ، دعي الحب يأتي إليك ويطرق باب قلبك من دون مقدمات، لا تزعجيه بالطائرات والمصفحات والبنادق، دعي أحمد وشأنه، دعيه يعيش على هواه في زمن حتى الأوكسجين فيه سام وقاتل.

قبل أن تغادر المحلة لآخر مرة، توقفت مروة عند بيت أم ريتا،

لتلقي التحية على عمو شوكت، اقتربت منه تلاطفه بمودة واحترام، حاولت أن تذكره باسمها، بعضات يده على معصمها، لكنه كان ساهيًا عنها، وضعت في جيبه مبلغًا نقديًا من المال، سقطت من عينها دمعة أخرجت منديلها وجففتها.

لما كان عمو شوكت، يعض معاصمنا يوم كنا صغارًا، لم يكن يعرف أننا سنكبر بهذه السرعة، كان يريد أن يبقينا أطفالًا نلبس ساعات وهمية، طبعتها أسنانه على جلودنا الرقيقة، كان يعرف أننا نتألم قليلًا لحظة انطباق الأسنان على لحومنا الطرية، لكنه ألم يتسبب بلذة للطرفين، لذة نحسها من دون أن نتمكن من الاحتفاظ بها، ظلت هذه الساعات التي محاها الزمن تدور في أعماقنا، وترسم خطوطًا متعرجة بين طفولتنا ومستقبلنا، جاء المارينز على مستقبلنا وحطموا نوافذه، لقد خربوا كل شيء، خربوا حياتنا نحن الأطفال الذين كبرنا في هذا المكان ومسحت دباباتهم آثار طفولتنا من الشوارع.

لما لم يعد في شارعنا أطفال، يمنحون عمو شوكت أيديهم ليرسم عليها ساعاته، صار في هذه الأيام يعض على شفتيه، أصبح العض على شفتيه تعبيرًا عن ردود أفعاله المختلفة، بل أصبحت هذه العادة القديمة لغته الوحيدة مع الجميع، فهناك عضة للذكرى وأخرى للألم، عضة خفيفة عندما يلتقي أحدًا ما يحبه، عضة في الهواء عندما يمر على بيت من بيوت الجيران هجره أهله، عضة قوية تنغرس فيها أسنانه العليا على شفته السفلى، عندما يشاهد دبابة أمريكية تجرح أسفلت الطريق، وتمحو خطوات أليفة مطبوعة عليه منذ عشرات السنين، هكذا فقد القدرة على الكلام، بعد أن تطورت لديه حاسة العض على شفتيه.

نهض صباح اليوم التالي، وتوجه يجر نفسه بتثاقل، وقف يطرق باب بيت أم أحمد، خرجت إليه الأم وحاولت أن تفهم معنى حركة العضات المتسارعة على شفته السفلى لكنها فشلت، نادت على ابنها، جاء أحمد الذي كان يستمع إلى آخر الأخبار من الراديو، وقف أمام عمو شوكت، تقدم نحوه الأخير وأمسك بيده اليسرى، ثم انحنى ليطبع على رسغه ساعة عميقة الأثر، لقد نسي أن يفعلها معه في طفولته، كان في نظراته الكثير من الكلام، لكنه يعجز عن نطق الحروف، سحب يد أحمد مرة أخرى ولوحها في الفراغ في إشارة:

ـ مع السلامة.

فهم أحمد معنى هذه الإشارة، التي عجزت أمه عن فهمها، انصرف عمو شوكت ووقف أحمد يشرح لأمه معناها، دخلت البيت ولملمت أغراضهما، خرجت تدير المفتاح بسرعة في الباب وغادرت مع ابنها من دون أن ينتبه إليها أحد.

جاء الأمريكان عند حلول المساء، وداهموا البيوت بعد أن طوقوا المنطقة كلها. جرى تفتيشها بيتًا بيتًا، غرفة غرفة، صعدوا إلى سطوح المنازل وحفروا في حدائقها، كسروا أقفال باب بيت أم أحمد بالمطارق الثقيلة ودخلته مجموعة منهم وبقيت مجموعة أخرى ترصد الشارع، فتشوا غرف البيت تفتيشًا دقيقًا وعبثوا بأثاثه، بعد أقل من ساعة أعادوا إقفال الباب وغادروا المكان، هل كانت مروة معهم؟! هل ترجمت لهم رسائل نادية التي خبأها أحمد في درج مكتبته؟ ماذا وجدوا في البيت غير رسائل الحب السرية؟

في رأس الشارع، سمعنا صوت انفجار أول عبوة ناسفة على مصفحة أمريكية، لقد بدأت معركة العبوات الناسفة.

في منتصف الليل، وزع مجهولون منشورات تعلن باسم المقاومة، تحطيم سيارة همر أمريكية، وتحذر الأهالي من التعاون مع العدو، أصبحت الحياة شديدة الغموض، طائرات تحلق ليل نهار فوق سماء المحلة، وفي أسفلتها تزرع العبوات.

انتشرت على جدران البيوت والمدارس والمرافق العامة عبارات تندد بالاحتلال، وتتوعد المتعاونين معه بالموت، تم طلاء باب بيت عائلة مروة بالأسود ورسمت عليه رصاصة كتب تحتها (الموت للخونة).

(٣٠)

غادرت أم فاروق بيتها وأحكمت إغلاق بابها، ولم تخبرنا بالمكان الذي توجهت إليه، لم يبق في شارعنا من سكانه القدماء سوى بيتنا، وبيت نادية، وبيت بيداء، بالإضافة إلى بيت عمو شوكت إذا عددناه موجودًا، لأنه في الحقيقة كان مهجورًا، ولم يدخله صاحبه منذ حادثة سرقة بيت أم ريتا.

تناوبت العوائل الثلاث المتبقية على الاهتمام بعمو شوكت، وتوفير الطعام والشاي وحاجياته الضرورية الأخرى، أحيانًا نحصل له على بعض الأدوية، لكنه كان يرميها بعد أن ندير ظهورنا، لم يكن مرضه

من النوع الذي يحتاج إلى وصفة طبية، إنه مصاب بجرح عميق في الروح، جرح بحجم سفينة عملاقة ترسو هنا منذ سنوات طويلة.

في هذه الأيام الموحشة، صرنا أنا ونادية نتبادل المبيت، كل ليلة نتام سوية في بيت إحدانا، صرنا نلتقي أربعًا وعشرين ساعة في اليوم تقريبًا، استعدنا خلالها شيئًا من سعادتنا الصغيرة.

يا لهذه السعادات التي يمكن ابتكارها حتى في الأزمنة القاسية، هل تحدثت حقًّا عن السعادة؟ ما شكلها؟ كيف كان طعمها؟ هل هي سعادة حقيقية يمكن أن يتحدث عنها الناس من دون أن يصابوا بالغثيان؟

في ساعات انقطاع الكهرباء في النهار، نجلس في الحديقة حتى المساء، أو حتى عودة التيار الكهربائي في بعض الأحيان، في أحد النهارات المشمسة، ونحن نثرثر على دكة جانبية صغيرة تشرف على حديقة بيتهم، اكتشفت أنا عن طريق المصادفة زجاجة نظيفة، يعكس لمعانها شيئًا من أشعة الشمس، كانت مركونة بين شجيرات نبات الياس التي تشكل سياجًا داخليًّا يحيط بالمستطيل الأخضر لعشب الحديقة، تقدمت نحوها ورفعتها من مكانها، كانت قنينة كحول أفرغ أحدهم نصفها، تبينت في ما بعد، أنها تعود إلى شقيقها مؤيد، خبأها في هذا المكان خوفًا من افتضاح أمر تناوله الخمور في هذه المرحلة المبكرة من عمره، وفي هذا الزمن الذي أصبح فيه الممنوع يعني الموت برصاصة واحدة.

عندما عاد مؤيد يبحث عنها، ساومناه أنا ونادية مقابل أن نعيد إليه الزجاجة شرط أن يتنازل لنا عن المسجل خاصته الذي يعمل

بالبطاريات الجافة، وافق على الصفقة وهو يضحك من طريقة ابتزازنا له، صار عندنا منذ ذلك الحين جهاز تسجيل لسماع الأغاني.

في كل صباح، نتناول إفطارنا على موسيقى فيروز، ويستمر النهار مع كاظم الساهر وحاتم العراقي، ومهند محسن، وهيثم يوسف ورائد جورج، وشريط واحد لنجاة الصغيرة فيه وشوشة تعيق سماعه بشكل جيد، وكذلك وجدنا بعض الأشرطة الأجنبية في خزانة أم نادية، لجين بيركن، ومادونا، وفرقة البيتلز.

في كل من هذه الأشرطة، هناك أغنيات تخص نادية وقلبها مباشرة:

سلمتك بيد الله،، يمحملني أذية

يا ريت ماشفتك،، شجابك عليه

يا خسارة تعبي وياك..

كانت تذوب مع هذه الأغنية رقصًا وتنسى كل شيء من حولها، هي وصوت كاظم والهواء وأنا أراقبها وأصفق لها بحماس، تنتهي الأغنية، تمسح دمعتها، تجلس ساهية تقلب الذكريات، لقد خذلها أحمد في منتصف الطريق، لكنها تحبه من أعماق قلبها، كانت تختلق له الأعذار تلو الأعذار:

- ظروفه في الغربة دفعته إلى قلب فتاة ثانية، فتاة شقراء من الموصل، أغرته بلكنتها المحببة وقوة شخصيتها وابتسامتها الساحرة، لكنه سيرجع.

دائمًا نقول لأنفسنا: سيرجع. لأننا لا نريد أن نستسلم، لا نريد أن نحول قصصنا الأولى إلى مجرد ذكريات فقدت صلاحيتها، ننساها كما نسيت محلتنا ماضيها وتعلقت في الفراغ.

في رواية ماركيز، اضطرت قرية ماكوندو إلى أن تواجه النسيان بالكتابة، سجلوا على كل شيء اسمه قبل أن يزحف عليه الفقدان، منضدة، كرسي، ساعة، باب، حائط، سرير، قدر إلى آخره.

ثم انتبه أهل القرية إلى أنه قد يأتي يوم يجري فيه التعرف على الأشياء من الكتابة المدونة عليها، ولكن من دون التعرف على فائدتها واستخدامها، فراحوا يزيدون في التوضيح، وكانت اليافطة التي علقوها حول عنق البقرة نموذجًا مثاليًّا للطريقة التي استعدوا بها لمكافحة النسيان، هذه هي البقرة، يجب حلبها كل صباح كي تعطي حليبًا، ويجب غلي الحليب من أجل مزجه بالقهوة، وصنع القهوة بالحليب.

الكتابة بهذا المعنى تعمل عمل حارس الذاكرة، تذكرنا بأسماء الأشياء وبعض وظائفها واستخداماتها، لكنها تتجاهل تاريخها الروحي، الذاكرة الحية هي وحدها التي تحافظ علينا ضد لعنة الغياب.

لو أنهم كتبوا كلمة: بقرة لوحدها وتركوها من دون جملة مفيدة، لربما عادوا ثانية بعد ذهاب داء النسيان واكتشفوها من جديد، وتعلموا كيف يحلبونها من جديد، ثم يأتي أحدهم ويخلط قهوته مع حليبها، بهذا يكونون قد صنعوا قهوة بالحليب بطعم جديد لم يتذوقه أحد قبلهم، لقد خربوا كل شيء عندما كتبوا جملًا مفيدة.

لمكافحة النسيان في محلتنا أيضًا، فكرنا أنا ونادية في كتابة عبارات توضيحية على الأشياء، بدأنا هذه التجربة بأنفسنا، كتبنا في سجل أزرق عثرنا عليه في مكتبة أبي:

هذه صديقتي نادية، عيناها خضراوان وشعرها أصفر، أنا أطول منها قليلًا، تعرفت عليها في ملجأ كونكريتي محصن ضد الحرب، كان ذلك عام ١٩٩١ وذهبنا إلى المدرسة الابتدائية، والمتوسطة، والإعدادية سويًا، هي الآن تدرس في جامعة بغداد، وأنا في الجامعة التكنولوجية، هي تحب أحمد، وأنا أحب فاروق.

عندما امتلأت الصفحات الأولى بكتابة أشياء بديهية، تشبه كتاب القراءة في الصف الأول الابتدائي، دار، دور، باب، نار وهكذا.

خرجنا صباح أحد الأيام وكتبنا على البيوت، أسماء ساكنيها القدماء، وتاريخ مغادرتهم الدار، والدول التي يعيشون فيها الآن، ثم نقلنا ذلك في السجل، على جدار بيت عمو شوكت مثلًا كتبنا:

هذا بيت عمو شوكت، غادرت زوجته باجي نادرة إلى كردستان بعد حرب الخليج الثانية، وهو يعيش حاليًا في بيت أم ريتا، منذ أن سرق لصوص مجهولون أثاث هذا البيت.

تطورت فكرتنا، وقررنا أن نكتب في السجل نفسه عشرين صفحة عن كل عائلة في المحلة، تلخص حياتهم وذكرياتنا معهم، وهذه أول مرة يجري فيها تدوين تاريخنا الشخصي كجيران بعد أن أصبحت ذاكرتنا مهددة بالزوال.

سألتني نادية:

ـ ولكن ما اسم هذا السجل؟

ـ (ساعة بغداد).

ـ لا، نسميه تاريخ المحلة.

ـ ساعة بغداد ـ تاريخ المحلة.

أجبتها من دون تفكير طويل، ومن دون معرفة لماذا خطر هذا الاسم ببالي، وافقت نادية على الفور، كتبنا على غلافه بخط عريض: (ساعة بغداد ـ تاريخ المحلة).

نموذج رقم ١ من السجل.

البيت ذو الباب الأسود العريض، هو بيت أم علي، البيت الذي تدخله سيارة حمراء هو بيت أم مناف، البيت الذي تتدلى كرومه على بيتنا هو بيت أم حسام، البيت الذي يتسلقه اللبلاب ويغطي نوافذه هو بيت أم وجدان، البيت الذي تلعب أمامه الشيطانة هو بيت أم أسامة، البيت الذي تزوجت ابنتهم وجاءت سيارات كثيرة ملونة وأخذتها مع الموسيقى هو بيت أم سالي، البيت الذي ندخله في رأس السنة الميلادية ونغني فيه هو بيت أم ريتا، إلى جانبهم بيت أم مروان، وبعدهم بيت أم أحمد، ثم بيت أم بيداء وبعده بيت أم فاروق ثم بيت عمو شوكت ودكان أبي نبيل.

لنأخذ بيت أم سالي مثلًا، وهم عائلة تتكون من الأم والأب وخمس بنات، كلهن جميلات بشكل لافت، حيث لم تنجب أم سالي ولدًا، تقول هي عن نفسها، إنها حلمت في ليلة زواجها أنها ستحرم من الأولاد ويعوضها الله ببنات جميلات، جميعهن سيتزوجن من غرباء يسكنون مدنًا بعيدة.

لنأخذ سهير مثلًا، هي الابنة الرابعة في تسلسل البنات الخمس لأم سالي، وهي عندما غادرت مع أهلها المحلة إلى الخارج، كانت صبية فاتنة، بعينين صفراوين وشعر أسود فاحم، بخدين ورديين ورصعتين جميلتين أسفل كل خد، جبهة عريضة ولثغة محببة في اللسان، وحاجبين كأنهما رماح رشيقة، كانت أكثر شقيقاتها غرورًا وأكثرهن إدراكًا لقيمة جمالها واستغلاله في حياتها.

كانت دائمًا تقول لا أتزوج إلا من طيار وسيم، ومن أجل تحقيق هذه الأمنية، التحق أمجد ابن أم علي بكلية القوة الجوية، لعله يحقق رغبته في الزواج منها، لقد أصبح بالفعل طيارًا، لكنها في هذا الوقت صارت تعيش مع أهلها في الدنمرك بعيدًا من الوطن، وتخلت عن كل أمنياتها القديمة، كتب إليها كثيرًا لكنه لم يحصل على أي جواب، آخر رسالة كتبها لها كانت قبل يوم واحد من سقوط طائرته، ولم يعثر له على أي أثر حتى ساعة الكتابة هذه.

أعرت رواية ماركيز لنادية مرة أخرى وتوسلت إليها من كل قلبي أن تقرأها، أعادتها بعد يومين:

- مزعجة وكئيبة.

لم يحتفظ والدي، في مكتبة المنزل لماركيز سوى برواية (مئة عام من العزلة) وهي من المرجح الرواية الوحيدة في مكتبة العائلة، قرأتها مرات كثيرة كما قلت، كنت أعتقد أنها الأولى والأخيرة التي كتبها روائي ساحر عاش في قرون بعيدة، لم أكن قد سمعت بماركيز من قبل.

مئة عام من العزلة، رواية مكتوبة ضد النسيان والذاكرة في الوقت نفسه، لأنها تؤسس عالمًا جديدًا لم نعرفه، كأنها وصفة روحية تساعد على الهروب من التعاسة، أنقذتني فعلًا من العيش في ظروف بغداد ٢٠٠٣، حولتني إلى مواطنة شرف في قرية ماكوندو، صرت أعرف أبناء القرية جميعهم، ربطتني بهم علاقات طيبة وصداقات عابرة مع ضيوفها من الغجر وأبناء المستنقعات المجاورة، لما استؤنف العام الدراسي، اخترت بيني وبين نفسي أسماء جديدة لأساتذتي في الجامعة حورتها عن أسماء سكان قريتي الماركيزية.

خوسيه أركاديو بويندیا

الدكتور أورليانو

الدكتورة آمارنتا

البروفيسور أورليانو خوسيه

الأستاذة أورسولا

الدكتور أورليانو الثاني

الدكتورة ريبيكا

أعادت إليّ نادية الرواية في المرة الثانية وكانت هناك إشارة عبر ثني نهايتها العليا من جهة اليمين، توضح أنها توقفت في قراءتها عند الصفحة ٦٢ منها، على أحداث هذه الصفحات القليلة نسبيًّا من حجم الرواية الكبير، الذي يتجاوز الخمسمئة صفحة، كانت تدور قصص أحلامها حتى نهاية عام ٢٠٠٣.

في كل مرة يبدأ حلمها بمشهد سينمائي تتحرك فيه الكاميرا فجرًا، لتبدأ بتصوير مشهد لعشرين بيتًا من الطين والقصب مشيدة على ضفة نهر ذي مياه صافية ثم ينتهي حلمها بمشهد خوسيه أركاديو بويندينا، وهو يشرح لزعماء الأسر في القرية، كل ما يعرفه عن الأرق.

ظلّ هذا المشهد يحتل ذاكرتي طويلًا وقد اختلط عليّ ما إذا كان واحدًا من أحلام نادية أم أنه فعلًا من نتاج مخيلة ماركيز! حتى وصل بي الأمر في بعض الأحيان، إلى أن أحسبه مشهدًا من اختراعات خيالي.

(٣١)

سأفكر في هذا الوقت بالطيار الأمريكي، وهو يحلق بطائرة الأباتشي فجرًا فوق سماء مدينة بغداد، اعتاد هذا الطيار المرور فوق محلتنا والدوران مرات عدة قريبًا من سطوح بيوتها.

سأفترض أنه قادم من لوس أنجلوس، أو من نيويورك نفسها التي تدفع لسبب غير منطقي ثمن انهيار برجيها، سأفترض أنه قادم من أيّ ولاية أمريكية، فإن ذلك لا يهمني شخصيًا.

سيفكر في زوجته وأطفاله كلما وقعت عيناه على شبح امرأة رشيقة، أو طفل نحيف يمشيان في الشارع، سيتذكر بيتهم البعيد، عندما يراقب سطوح منازلنا بخزانات المياه الحديدية، وحبل تجفيف ملابسنا، وأسرّة نومنا الحديدية المتروكة في انتظار صيف جديد.

سيفكر في السماء الصافية في مدينته، عندما يمنعه غبارنا من رؤية الأشياء بوضوح، سيفكر في كل ذلك حتمًا، سيرصد حركة الناس، السيارات، والأشياء الغريبة التي تتحرك على الأرض، سيمرر تقاريره إلى مركز القيادة:

- لاشيء يحدث في هذا المكان الذي يشبه سفينة، هناك هدوء وحركة طبيعية، لاشيء يثير الانتباه.

سيرد عليه أحدهم من مركز العمليات:

- امسح المنطقة جيدًا وصوّرها من كل زاوية بدقة شديدة، من المرجح أن يكون الهدف مختبئًا في بيت مهجور من بيوت هذه المحلة.

يدور الطيار من جديد وتتباطأ حركة طائرته في الزوايا الأربع للمحلة، يتوقف في السماء مثل نسر حدد هدفه وينتظر لحظة الانقضاض عليه، يصورنا واحدًا واحدًا ثم يستدير باتجاه الشرق مبتعدًا عن سمائنا، تاركًا صوت محرك طائرته يطنُّ في الفراغ.

سأتخيل جهازًا متطورًا، من تلك الأجهزة التي كنا نعتقد أن أمريكا قادرة على اختراعها، لنفترض أنه جهاز عملاق يصور حركة الزمن في الأمكنة، ماضيها البعيد يأتي بطيئًا ويتحرك على شاشة هائلة بحجم سماء مدينتنا، على هذه الشاشة يمر شريط محلتنا بالأبيض والأسود.

يبدأ الشريط من هناك، منذ أن وضعت أول طابوقة في هذا المكان، حتى الساعة التي استدار فيها الطيار وعاد إلى قاعدته.

أجلس أمام هذه الشاشة لمشاهدة الماضي، الذي كان يستعد لولادتي في هذا الزقاق، تلك الطفولة العذبة وهي تتقافز على مربعات لعبة (التوكي)، شاهدوا معي من لطفكم، هذه أول حفلة زفاف في الدربونة، هذه أنا في الثانية من عمري تحملني أمي الشابة وتنطلق نحو مصدر الموسيقى الشعبية في بيت أم نبيل، تزوجت ابنتهم أميرة وجاؤوا بسيارة جديدة مزينة بشرائط ملونة، وباقة كبيرة من الورد، لأخذ العروس بعيدًا من المحلة، أخذوها وسط كرنفال من ألوان الملابس الزاهية ترتديها فتيات جميلات يتراقصن أمام سيارة العروس.

انظـروا، هـؤلاء شبـاب بالملابس العسكريـة، يتوجهون فجرًا إلى معسكراتهم البعيدة على الحدود حيث تجري الحرب العراقية - الإيرانية، هؤلاء شباب المحلة، أسمع وقع أحذيتهم الثقيلة على أسفلت الليل.

هذا بائع الغاز، وهذا بائع الخضار يدور بسيارته من فرع إلى آخر، هؤلاء أطفال يخرجون إلى المدرسة على ظهورهم حقائب صغيرة، هذا علم البلاد يمشي فوق سيارة أجرة، إنه عادل، أول شهيد ترسله الحرب إلينا بتابوت خشبي، اسمعوا معي هذا البكاء، بكاء زوجته أم أحمد وهي تندبه بدموع ليس لها نهاية.

هذا الحريق في بيت أم علي، انفجرت في بيتهم قنينة الغاز وتدافع الجيران لإنقاذ البيت وإخماد النيران، هذه الحديقة الصغيرة، هي حديقة بيت أم ريتا، هذا هو زوجها الذي يجلس تحت شجرة البرتقال وأمامه طاولة صغيرة عليها بعض المقبلات وقناني البيرة، هذه أم نزار تجلس

في باب بيتها طوال النهار وهي ملفعة بالسواد، إنها في انتظار وحيدها الذي تتوسل إلى السماء من أجل أن يأتيها سالمًا من الحرب.

هذا دكان (أبي نبيل) وهؤلاء الصغار هم نحن في طريقنا إليه، هؤلاء الصبية هم أول فريق كرة قدم لمحلتنا، وهذه الصفائح القديمة في وسط الشارع هي المرمى الذي يتبارون للوصول إليه، تلك الفتاة التي فوق سطح البيت هي نجاة، وذلك الشاب الذي يؤشر إليها من سطح بيتهم المجاور هو علي، وقوس قزح الذي بينهما هو قصة سرية عن الحب الذي جمع قلبيهما.

أشياء كثيرة يمكنني مشاهدتها من على شاشة الطيار الأمريكي، أشياء هي في واقع الأمر موجودة في رأسي أنا، في ذاكرتي، لقطات صغيرة، وحكايات غير منتظمة، وأصوات متداخلة، أستطيع أن أستدعيها أمامي الآن، من هذه الأشياء جميعها، تشكلت علاقتي بهذا المكان.

هنا ولدت ذاتي، وتبلورت شخصيتي، في هذا المكان نبتت روحي مثل شجرة بلا تاريخ، في هذا المربع الذي صوّره الطيار من زواياه الأربع أصبحت أنا تلك الفكرة الملقاة في الزمن.

عندما توفي جد بيداء، كنت صغيرة، ربما طرحت حينها أول سؤال في حياتي عن معنى وجودنا، إلى أين يذهب الموتى؟!

لماذا نحن موجودون في الأساس؟

كان الموت إصغاءً جماعيًا لصوت عبد الباسط عبد الصمد وهو

يرتل (ألف، لام، ميم)، كان صوته السماوي يرسم مستقيمًا حادًا بين وجودنا في هذا العالم والغياب الأبدي.

ما لا يعرفه الطيار الأمريكي أن هذا المكان هو أول كوكب هبطت عليه أنا من اللاشيء وأسست فيه حضارتي الشخصية، في هذا المكان نمت أكثر من ٧٣٠٠ ليلة، وصحوت أكثر من ٧٣٠٠ مرة، وسمعت اسمي يتردد فيه أكثر من ٧٣٠٠ مليون مرة.

أيها الطيار، من لطفك لا تحلق فوق الماضي، إنك تصور خطواتي في الطريق وتحصي أنفاسي في الهواء، وتعرقل ظلي عن ممارسة هوايته في ملاحقتي.

عندما تغيب الشمس في محلتنا، يتكفل الليل بحماية ظلالنا التي طبعها النهار على الرصيف، ظلالنا المتعرجة، المستقيمة، المكثفة، الممطوطة، ظلالنا الشبيحة أمام مصباح الشارع في الليل.

حتى الذين غادرونا، هذه آثار ظلالهم تتمشى على الجدران بعد أن ننام، هذه المحلة كوكب من الظلال الحزينة، أرجوك لا تجرحها.

عندما تنزل بمروحيتك قريبًا من حافات بيوتنا، ينتفض غبار أرواحنا، وتفز العصافير، والفخاتي، والفراشات، تفز الذكريات، وتشهق أنفاسها نحو سماء هي حصة محلتنا من الرحمة.

أيها الطيار كن رحيمًا بنا، لا تخدش هذه السماء، لقد ربيناها بالأحلام، والأدعية، والتنهدات، والضحكات، والأغاني، وولولة الأمهات.

(٣٢)

في ظهيرة أحد الأيام، كنا أنا ونادية وبيداء في حديقة بيتنا، نقتل الوقت ونستمع إلى أغانٍ من أشرطة جديدة، حملتها إلينا بيداء من بيتهم، في هذه الأثناء، سمعنا صوت سيارة تتوقف عند باب بيت عمو شوكت استقبلها برياد بنباح عنيف، دفعنا الفضول للوقوف خلف باب البيت لنعرف من خلال الفتحات الواسعة ماذا يجري هناك.

ترجل السائق من السيارة وهو يرتدي الزي الكردي التقليدي وأخذ يطرق باب البيت بينما ينش الكلب بقدمه اليسرى بعيدًا منه، ولما لم يرد عليه أحد من داخل البيت، نزلت من السيارة سيدة طويلة ونحيفة ترتدي ملابس زاهية وعلى رأسها شال أحمر شفاف، عندما شاهدها الكلب كف عن النباح كما لو أنه يعرفها من قبل.

نحن لم نتعرف عليها في بداية الأمر، ولكن عندما أصبح وجهها أمامنا مباشرة، عرفناها وصحنا بصوت واحد:

- باجي نادرة.

فتحنا الباب وخرجنا لتحيتها وتقبيلها بحرارة.

باجي نادرة نفحة روحية من الماضي تهب الآن فجأة من طفولتنا، أخذتنا بالأحضان وهي تسألنا عن أسمائنا، لتتعرف علينا أو لتتذكرنا، انحنت بطولها الفارع على رؤوسنا تمسدها وتقبلها بحنان مرة بعد مرة، حنانها وقبلاتها التي افتقدناها منذ وقت طويل عادت تلامس أرواحنا.

ـ لقد كبرتن يا بنات.

أخبرتها بيداء عن قصة عمو شوكت باختصار، أمرت باجي السائق بالبقاء عند باب البيت، وأسرعت معنا نحو بيت أم ريتا، سبقنا برياد الذي بدا مسرورًا لقدومها على الرغم من أنه لم يرها في حياته.

كان زوجها بلحيته الطويلة وملابسه المهدلة، يجلس عند حافة الحديقة على كرسي قديم، يترنح به يمينًا ويسارًا، صعقت باجي نادرة لهذا المشهد غير المتوقع لرفيق قصة حياتها، أكثر الرجال الذين عرفتهم أناقة وحيوية وثقة بالنفس.

أطلقت صرخة مكتومة وهبت نحوه لتحتضنه، نظر إليها من جانبه نظرة عمرها قصة ثلاثة أجيال، في جين أنها راحت هي تمطر وجهه ويده وقدمه قبلات حارة، وتمرر يديها على وجهه لتتأكد مما ترسله إليها عيناها من مشهد حزين لم يكن في وارد خيالها.

تلمست جبهته بكف من حنين السنوات، حاولت أن تحركه من مكانه لتصحبه إلى بيته، كان يعض على شفتيه بقوة وهو يتمسك بالكرسي بعناد طفولي، جلست تحت قدميه وهي تبكي بكاء مريرًا، ترافقه كلمات كردية مشحونة بالأسى، والمرارة، واللوعة.

كان برياد يهز رأسه مع كل كلمة من كلماتها، كأنه يفهم معناها، ويذرف مع كل كلمة دمعة واحدة تستقر على خده طويلًا ثم تسقط على الأرض.

حاول بعض الفضوليين التجمع في باحة البيت، غير أن برياد نبح

عليهم، وأسرعت نادية نحو الباب وأغلقته بوجوههم، إنه موضوع عائلي يخص المحلة وتأريخها، ليس من حق الغرباء التطفل عليه.

بعد قليل، انضم إلينا أهلي وأهل نادية، أخذتهم باجي نادرة بالأحضان وهي تنوح، تبادلت معهم دموعًا تشبه صخورًا صغيرة، تتدحرج من جبل أصم، دموعًا لم يشهدها تاريخ الحزن في هذا المكان.

تقدم أبي نحو عمو شوكت ببطء، همس في أذنه بضع كلمات تهدلت معها يداه وعدل من جلسته وصار أكثر استرخاء، أخذ بيده بهدوء وقاده نحو منزلنا، انضم أهل بيداء إلينا في ما بعد.

في تلك الساعة، انعقد آخر اجتماع لبقايا المحلة في حديقة بيتنا، أعدت أمي الغداء على الفور، وذهبت أنا بصينية الطعام إلى السائق الكردي، الذي ينتظر باجي عند باب بيتها.

انتهى الغداء وشربنا الشاي، همس أبي مرة ثانية في أذن عمو شوكت، الذي ظل ساكتًا طوال الوقت، فنهض ووضع يده بيد زوجته، التي أرهقها النحيب وسارا نحو بيتهما المهجور، مشيا خطوات أليفة نعرفها جيدًا، ونحفظها عن ظهر قلب خطوة خطوة، دخلا بيتهما، بينما بقي الكلب عند الباب يراقب السائق.

قبل حلول المساء، خرج عمو شوكت إلى الشارع بكامل أناقته يتبعه برياد حزينًا واجمًا تترقرق في عينيه دمعة ساخنة، تخلص من لحيته الكثة وشاربيه ومشط شعره بتسريحته المعروفة، كما استعاد قدرته على الكلام، ولكن باللغة التركمانية هذه المرة وجاء ليودعنا، أصبحت

باجي نادرة تترجم بعربيتها المتواضعة مشاعره الودودة تجاه جيران العمر، وشكره لهم على حسن اهتمامهم به طوال مدة وجوده بينهم.

أخرج من جيبه صورة قديمة تخص بيت أم سالي، قبلها سبع قبلات وسلمني إياها، نظر إلى كلبه نظرة عميقة وانهمرت من عينيه دموع كثيفة من دون أن يقول له كلمة واحدة، أمر الكلب بالجلوس في إشارة من يده، فجلس برياد وهو ينظر إلى صاحبه نظرة تفطرت معها قلوبنا، هذه أول مرة نشاهده فيها ذليلًا ساكنًا مستسلمًا للقدر.

عاد عمو شوكت إلى بيته وكتب على بابه بالتركمانية:

الدار ليست للبيع ولا للإيجار.

صعد مع زوجته في السيارة وغادرا المكان، بقي برياد في مكانه يلوي رقبته غير مصدق لما جرى، جلست أنا قربه أربت على رأسه وكتفه، لكنه لم يتحرك من مكانه، أحاط به الجميع يراقبونه بصمت، كأنه كومة من الحزن.

رفع بصره نحو السماء فسال منها لون غروب أرجواني كئيب، نهض من مكانه وتمشى بتثاقل نحو رأس الشارع، ينظر إلى الجهة التي ذهبت منها السيارة، ثم عاد إلى بابنا وعيناه تتوسلان بألّا نتخلى عنه، أدخلته بيتنا، فتمدد ونام في الحديقة ثلاثة أيام متواصلة.

هكذا انكشفت محلتنا على المجهول، وأصبحت بيوتها الخالية مباحة، لقد تركنا عمو شوكت، حارس مقبرة الغياب، نواجه حياة بلا ذكريات تهب علينا من ماضٍ تشاركناه ضحكة ضحكة، ودمعة دمعة،

بتنا ليلتنا تلك بصفتها واحدة من أطول الليالي في التاريخ، تأكد لنا بعد رحيله أن موعدنا مع غربة أبدية قد بدأ منذ اللحظة التي استدارت فيها سيارة باجي نادرة عند منعطف الشارع وفقدنا التواصل معها، سفينتنا توشك أن تطلق صفارة الرحيل.

من دون وجود عمو شوكت، لا يمكن أن يحمل هذا المكان الكئيب اسم محلة بعد الآن. لقد جاءت باجي وسائقها وسلبا الماضي من تحت أقدامنا، لقد سقطنا فجأة في بئر النسيان، لولا (ساعة بغداد-سجل المحلة) الذي كتبنا سطوره بقلم الذكرى، لكانت المحلة بكل تاريخها مجرد حلم طويل في ليلة شتائية ننساه عند الصباح.

بعد أيام احتل ناس غرباء بيت أم ريتا، ورموا تمثال العذراء خارج المنزل، وأعادوا ترميم البيت ولونوا جدرانه بألوان فاقعة وكتبوا على الواجهة:

هذا من فضل ربي.

لقد وهبهم الرب بيتًا واسعًا بحديقة جميلة، إن هذا الرب الذي تفضل عليهم بهذه النعمة العظيمة بالتأكيد ليس هو نفسه الرب الذي كانت تصلي له أم ريتا، وتوقد شموعها طلبًا لمغفرته ورحمته، وليس هو الرب نفسه الذي كانت جدتي تتوسل إليه بأن يحمينا من الصواريخ، وليس هو الرب نفسه الذي كانت أم علي تخرج إلى باحة بيتها وتدعوه كل مساء، إن ربهم الذي وهبهم من فضله بيتًا جاهزًا حتى بذكرياته، لم يملكوا فيه طابوقة واحدة، هو في الحقيقة إبليسهم.

في هذا البيت الواسع، الذي منحه الرب للغرباء، كنا عشية رأس كل سنة ميلادية، نحتفل بشجرة الميلاد وهي تضاء في الزاوية البعيدة من الصالة، تحت صورة العذراء وابنها الرضيع تصعد الابتهالات، والأدعية، والتسابيح والأناشيد والتراتيل، كنا نجتمع أمامها في انتظار هدايا بابا نويل، تمتلئ جيوبنا بالحلوى، ونخرج إلى برد شارعنا نردد الأغاني ونمشي في ضوء المصابيح اليدوية، التي تنيرها الشموع النحيفة.

السنوات الجديدة كانت تولد من هذا المكان، من هنا في هذه الزاوية كان يسقط رأس السنة الميلادية، هنا تحديدًا، في بيت أم ريتا، كانت السنوات تولد طفلة ثم تنمو.

هل كانت السنوات تنمو؟ أم أنها كانت تتكدس في هذا البيت؟ تستقر إلى الأبد في ذلك الشيء الواضح الذي يسمونه الماضي؟ كيف يكون الماضي غيابًا ونحن نعرفه كما نعرف أسماءنا؟

نحن لا نتذكر المستقبل، الحياة في الأساس هي ماضٍ يتقدم، يتقدم خلفنا في حين أننا نحن نهرول إلى الأمام، أما المستقبل فهو بيت اللاوجود.

في الليلة الماضية لرحيل عمو شوكت، كانت نادية قد حلمت بالفصل الأخير من رواية ماركيز.

«في ليلة العيد، ماتت بيلار تيرنيرا في كرسي الخيزران الهزاز، وهي تراقب فردوسها، ووفقًا لمشيئتها الأخيرة، لم يجر دفنها في تابوت، بل جالسة على كرسيها الهزاز الذي أنزله ثمانية رجال، بحبال من ألياف إلى حفرة هائلة..»

(٣٣)

حملت بيداء حقيبة صغيرة لملابسها وبعض أغراضها وجاءت تنام عندنا في البيت، كانت نادية قد أقنعتها بالفكرة لنسهر نحن الثلاث معًا هذه الليلة الحزينة التي خلّفها غياب عمو شوكت، عثرت بيداء على الطاولة في غرفتي على سجل أزرق مكتوب على غلافه (ساعة بغداد ـ تاريخ المحلة) وراحت تقلب صفحاته باهتمام وشغف شديدين وتجاهلت وجودنا معها في الغرفة نفسها.

اندهشت لهذه الفكرة المجنونة، وضعت أصبعها في وسط السجل ونظرت في وجوهنا من دون أن تنطق كلمة واحدة، عادت وفتحته من جديد، تقرأ صفحاته صفحة صفحة، وسطرًا سطرًا، وكلمة كلمة.

من دون أن تستأذننا بالكتابة، تناولت من طاولتي قلمًا أسود وأخذت تكتب من دون توقف، كما لو أنها تنهل الكلمات من غيمة تمطر في ذاكرتها، كتبت كل ما تعرفه وتتذكره عن البيوت، والناس، والحوادث، والمناسبات، تذكرت أنواع السيارات في المحلة وموديلاتها وأصحابها وتاريخ دخولها لأول مرة في شارعنا، دونت ملخصًا عن القطط، والكلاب، والطيور، والفراشات، التي تركت أنفاسها فيها، صنفت النخيل، وأشجار الحدائق، والنباتات، مشيرة إلى أعمارها، وأطوالها، ومواقعها، سجلت أصناف الورود والحدائق التي نبتت فيها، وضعت مخططًا لأعمدة الكهرباء وأعمدة التلفون، وأحصت خزانات المياه فوق السطوح وأحجامها، صنفت أطيب المأكولات التي تعودنا

على تناولها، والنساء اللواتي اشتهرن بكل طبخة، وضعت جدولًا للمهن
والوظائف، التي يمارسها أعضاء كل أسرة في المحلة، وجدولًا
للمراحل الدراسية في كل عائلة، أحصت الولادات الحديثة والقديمة
وتاريخ كل ولادة واسم المولود وبعض التفاصيل عن ملامحه، ذكرت
أسماء الجدات والأجداد الأحياء في كل عائلة، لم تنس الزيجات،
وعلاقات الحب، والخطوبة، والطلاق، التي شهدتها عوائل المحلة في
تاريخها، رسمت جدولًا لأكثر الشباب وسامة، وأكثر البنات جمالًا،
كتبت ملخصًا عن المشاهير التي أنجبتهم المحلة، تطرقت إلى أسماء
المحال، والدكاكين، وأصحابها، وصفت أثاث البيوت التي دخلتها في
حياتها، وألوان الستائر وشكل البلاط والسجاد، تناولت في التفاصيل
أسماء ربات البيوت وألقابهن في المحلة.

قدمت تقويمًا لأكثر العوائل سعادة، وأكثرها مرحًا ولطفًا، وكذلك
أكثرها شعورًا بالتعاسة، كتبت ملخصًا عن مزاج كل شخص تعرفه
جيدًا، عن ذوقه في اللبس، ومظهره الخارجي، والأغاني التي اعتاد
سماعها، نبشت في تفاصيل منسية هنا وهناك، رتبت جداول عن أكثر
الكلمات المستخدمة في قاموس المحلة، نظمت صفحة خاصة بالأمثال
والنكات الشعبية، التي يتم تداولها وتطرقت إلى المواقف المحرجة
وظروفها وتاريخها، صنفت ألعاب الطفولة، ووقت ظهورها واختفائها،
وتحدثت عن أمهر اللاعبين في كل لعبة.

سهرت بيداء حتى ساعة متأخرة من الفجر وهي تكتب وتكتب
من دون ملل، غلبنا النعاس أنا ونادية وتركناها منهمكة بالكتابة، كما لو
أنها تجيب عن أسئلة ورقة امتحانية حفظت أجوبتها عن ظهر الغيب،

ولما استيقظنا صباحًا كانت بيداء قد استسلمت للنوم، روت لي نادية حلمها عن رواية ماركيز، وقبل أن تنتهي منه تبسمت لها كي أذكرها بأنني شاهدته معها.

كانت بيداء حتى وقت الضحى لم تزل نائمة والسجل مفتوح قريبًا من وسادتها، وبقي القلم الأسود مركزًا بين أصابعها كأنه لم ينه مهمته بعد.

تناولنا السجل بهدوء، ورحنا نقلب إضافاتها، انبهرنا لكمية المعلومات التي دونتها من ذاكرتها العجيبة، التي لم تترك شيئًا يخص محلتنا من دون أن تدونه بتفصيل ممل، وهكذا أصبحت لدينا ذاكرة شبه مكتملة، أصبح تاريخنا الوافي بين أيدينا.

في (ساعة بغداد ـ سجل المحلة) ينام الزمن الجميل كله، بين صفحاته تعيش حكاية كاملة بذاكرة حية غير قابلة للنسيان، انتقلت الحياة كاملة من الواقع إلى الكلمات، وعندما استيقظت بيداء من نومتها، وقبل أن تتناول إفطارها، التقطت من على رف مكتبتي رواية (مائة عام من العزلة) وطلبت مني بتوسل وإلحاح أن تأخذ السجل والرواية معها إلى البيت، استسلمت لإلحاحها على أن تعيد السجل في اليوم التالي، وتحتفظ بالرواية هدية مني لذكرى صداقتنا.

«صفحة ١٩ من السجل بخط بيداء»

تزوج أسامة بعد أن تخرج في كلية العلوم زميلة له في الجامعة، وجاء بها يعيشان في بيت والده في المحلة، كانت هيفاء شابة جميلة

سمراء وطويلة، أنجبت له ابنتين هما ملائكة ونيران، بعد ولادة ابنتها الأولى، تركت وظيفتها الحكومية لتهتم ببيتها، لكن أسامة تحول تحت ضغط الأيام المريرة للحصار إلى شخص غريب الأطوار، ترك وظيفته هو الآخر وراح يتعامل في السوق، يشتري ويبيع الأثاث المستعمل.

صار من النادر أن يعود إلى البيت قبل حلول الليل، ونادرًا ما كان أحدنا يصادفه في شوارع المحلة، لكن الجيران في الدربونة وخصوصًا البيوت الملاصقة لبيتهم، يسمعون عند منتصف كل ليلة صوت عراكه المتواصل مع زوجته التي يعيش معها في الطابق الثاني المفتوح على سطح البيت.

كانت هيفاء تستسلم لنوبات جنونه اليومي، وتتحمل نوبات الهستيريا التي تنتابه بشكل مفاجئ حال صعوده درجات السلّم نحو غرفة نومه وهو يتمايل من شدة السكر، تدخل والده المريض كثيرًا لثنيه عن تحطيم أثاث بيته، وتدخلت الأم التعبة كثيرًا في إعادته إلى صوابه، لكن الأمور أخذت تزداد تدهورًا بمرور الوقت، لم يكن لزوجته المسكينة أهل تلجأ إليهم من هذا الجحيم، لقد هاجروا خارج البلاد منذ سنوات.

في أحد الصباحات، كانت هيفاء في طريقها إلى السوق، اقترب منها شاب وسيم وطلب منها أن تساعده على العثور على عنوان أحد البيوت كان مكتوبًا على ورقة يحملها بيده وضعها أمام عينيها، اعتذرت له هيفاء بعدم معرفتها بهذا العنوان، وأدارت له وجهها، لكن هذا الشاب ظل يلاحقها.

في كل صباح، صار ينتظرها في المكان نفسه، الذي التقاها فيه لأول مرة، ويسمعها كلمات غزل ثقيلة، كلمات تخص إغراءات جسدها، صدرها وخصرها وشفتيها تحديدًا، قاومت هيفاء كل تلك النداءات، وغيرت طريقها غير مرة لتتحاشى لقاءه، لكنها صارت هذه الأيام تتلمس جسدها بباطن كفها وتكتشفه أمام المرآة، كما لو أنه جسد امرأة لا تعرفها، لقد طال إهمالها لهذا الجسد المكتنز بالإثارة، بعد أن أهمله زوجها من جانبه، عاشت صراعًا عميقًا مع نفسها بين نداءات جسدها الذي أخذ يلح عليها من كل مكان، والتاريخ الشخصي البريء لهذا الجسد المستفز على الدوام، أخيرًا انتصرت الرغبة في داخلها، وصارت هيفاء عشيقة سرية لرجل وسيم، تكرر ظهوره في المحلة في الأيام الأخيرة.

في أحد الصباحات، وجدت ملائكة أمها على غير عادتها، تغني مع نفسها وهي تضع المساحيق على وجهها، وترش العطور بكثافة حول رقبتها وترتدي ثوبًا مكشوفًا من جهة صدرها ويضغط بقوة على خصرها ومؤخرتها.

خرجت الأم وهي تحمل حقيبة حشرت فيها من دون ترتيب بعضًا من ملابسها، تبعتها ابنتها الصغيرة من دون أن تلاحظ أمها ذلك، شاهدتها بعينين مندهشتين وهي تختفي مع شاب خلف بناية السوق، وتصعد معه سيارة أجرة كانت في انتظارهما لتنطلق بهما بعيدًا ويغيب أثرهما.

بعد هذه الحادثة اختفت هيفاء من دون أن يعرف أحد مصيرها، وتركت ابنتها المدرسة وراحت تهتم بأمر أختها وأبيها.

كتبت بيداء هذه القصة في الصفحات المخصصة لبيت أبي أسامة، التي لا يعرفها أحد سواها، كما لم نتأكد أنا ونادية من صحتها، لكننا حافظنا عليها في السجل، لأن بيداء لا تكذب أبدًا، وأن هذا السجل هو تاريخ المحلة الشامل، ويجب ألّا نجامل فيه أحدًا، ففي نهاية الأمر لسنا محلة من الملائكة.

في هذه الصفحات، هناك وصف ممل للبيت وغرفه وجدرانه وأثاثه الذي أصبح يتغيّر كثيرًا بعد أن امتهن أسامة بيع الأثاث المستعمل، وهناك وصف لحديقتهم ونباتاتها، وصف لملائكة وأختها وجدها وجدتها وظهورهم الأول في المحلة وطبيعة علاقتهم بالجيران، وطريقة حديث كل منهم وملبسه ومشيته، كما خصصت سطورًا طويلة، تصف فيها مداعبات هيفاء لجسدها وغرامها به، تحاشت فيها التركيز بشكل مباشر في مناطق الإثارة فيه، لكنها وبطريقة ساحرة رسمت لهذا الجسد صورة حسية بالكلمات.

بيداء لا تمتلك صوتًا ساحرًا في الغناء فحسب، لقد اكتشفنا من خلال كتابتها في السجل، أن موهبتها الحقيقية تتجلى في الأدب، لقد استطاعت وبليلة واحدة أن تكتب المحلة على هيئة رواية مكثفة من الأحداث، ترسم فيها الأمكنة والشخصيات والوقائع بطريقة ساحرة، لو كان لدي متسع من الوقت، لقرأت عليكم بعضًا من صفحاتها، التي تخص بها حوادث منسية من تاريخ محلتنا، كاد يطويها النسيان لكنها بلمسة عبقرية أعادتها إلى الوجود.

(٣٤)

توقف الباص، الذي كان يقلنا إلى الجامعة فجأة في منتصف الشارع، قبل أن توشك إطاراته على دهس رجل مسنّ يجر عربة حمل خشبية، رفض أن يفسح لها الطريق:

ـ ادهسني وخلصني من هذه الحياة، لا أريد بعد هذا اليوم أن أعيش في هذا الزمن الحقير، أريد أن أموت.

نزل إليه السائق يتوسل إليه كي يتنحى عن الطريق، كان الرجل يائسًا ويتمنى الموت من كل قلبه، لكنه بعد قليل انتبه إلى حاله وشعر بالخجل من نفسه، استجاب للسائق وسحب عربته إلى الرصيف وجلس يبكي بمرارة.

كيف يمكن لرجل يريد أن يموت ويشعر بالخجل في الوقت نفسه؟ ظل هذا السؤال يشغل بالي طوال الطريق إلى الجامعة، أليس الموت يعني نهاية كل شيء؟ ولكن... لماذا بقي مع هذا الرجل شيء من الخجل؟ هل كان يريد أن يأخذه معه في موته؟ هل يخجل الموتى أيضًا؟ ماذا يستفيدون من خجلهم في العالم الآخر؟ لقد أحببت هذا الرجل وتمنيت أن أعود إليه وأستمع إلى قصته، بطبيعتي أحب الناس الذين يخجلون، فهؤلاء وحدهم يمكن التفاهم معهم من دون خسائر، لأن الخجل صفة عظيمة تجعل من الإنسان إنسانًا، كنا في محلتنا نصفُ الناس الجيدين بأنهم طيبون وخجلون، كلما صادفت شخصًا لا يخجل أدركت مع نفسي أنه إنسان خطر وشرير، الخجل ليس صفة دينية أو

تربوية أو مبدأ أخلاقي، إنه من هبات الوجود التي تمنعنا من ارتكاب الفظائع بحق غيرنا، أحببت (فاروق) لأنه يخجل كثيرًا ويحمر وجهه عندما يتعرض لموقف محرج، أحبه عندما ينظر إلى الأرض وهو يتحدث عن والده، أحب حياءه من الناس عندما يكون وحيدًا ويتحاشى المعجبين به لكونه لاعبًا معروفًا.

ماذا لو فقد فاروق هذا الخجل، فهل سيبقى هو نفسه؟ ماذا لو تبخر الخجل من حياتنا فجأة، فهل نتحول إلى غابة؟ هذه الغابة التي نعيش فيها هذه الأيام هي بمعنى من المعاني غياب الخجل الذي نزل علينا بغتة.

وصلت إلى الجامعة ووجدت (فاروق) ينتظرني وحيدًا عند مكتب للطباعة في الجانب الثاني من الشارع، تمشيت معه حتى مكان سيارته الجديدة التي ركنها في فرع بعيد من الشارع العام، وقبل أن يصعد إليها ويودعني قال لي ما كان يريد أن يقوله لكن الخجل كان يمنعه:

- أمي وخالتي غدًا في بيتكم راح يخطبوك من أهلك.

- فاروق شنو هاي المفاجأة؟

- ليش مو خوش مفاجأة؟!

- لا، بس آني ما مستعدة لهذا الخبر.

- فكري بالموضوع وعندك يوم كامل، قال ذلك وهو ينظر إلى الأرض.

ـ مو قضية أفكر بالموضوع، أنت تعرفني كلش زين شكد أحبك، بس هاي الظروف مو مال خطوبة وزواج.

ـ ليش؟

ـ ما أعرف، أهلي يمكن يهاجرون.

ـ آني موافق أتزوجك بأي مكان وبأي دولة وبأي قارة، وين مترحين أروح وراك.

ـ حبيبي مو هذا الموضوع، خلي نفكر زين قبل أن نتخذ قرار مو صحيح.

ـ على راحتك ولكن أمي وخالتي راح يجوكم باجر.

أدار ظهره عني وهو غير سعيد بردّي، صعد إلى سيارته وانطلق، تجمدت في مكاني وتلفت حولي لأتنفس الهواء من كل الاتجاهات، يا إلهي ماذا يحدث بالضبط؟!

لم أكن من الناحية النفسية مستعدة لهذا الخبر، لم أفكر فيه من الأساس، كنت أحسب أننا مازلنا نلهو، لماذا يتحول الحب إلى شرط اجتماعي، والتزام مثل واجب دراسي؟

في الوقت نفسه نمت في داخلي بهجة غامضة، لا تعرف كيف تشق طريقها وتعبر عن نفسها، فرح سري مخنوق بالوساوس، الزواج من حبيبها هو حلم كل فتاة، لكنه من ناحية أخرى تضييق لمساحة عالمها، تضييق لمديات الحلم ونهاية لقصة لم تكتمل فصولها.

الحب في المراهقة مثل تدخين الأولاد الصغار، هو رغبة في الانتقال إلى عالم الكبار بفم طفل وسيجارة بالغة، كيف يتخلى الطفل عن فمه لصالح سيجارة تحترق بين شفتيه؟

هل أنا مراهقة؟ لقد تجاوزت ذلك العبث الطفولي منذ زمن، ليست لدي الرغبة في تكرار أخطاء الماضي الجميلة، هل أنا امرأة ناضجة؟ لا أدري.

كيف يمكن أن أقول لفاروق إنني غير مستعدة نفسيًّا؟! هل يعد ذلك رفضًا صريحًا؟ كيف سيفهم هذا الشاب الوسيم والنجم الرياضي الموهوب أن إحداهن ترده وترفض الاقتران به؟ أنا لست إحداهن، أنا حبيبته.

أنا أحبه، بل أموت عليه، هذا الطائر الأبيض الوحيد في السماء الأرجوانية الكئيبة، هو الشيء الوحيد الذي معه اسمّي الحياة حياة وليست سجنًا كبيرًا، أحب فاروق المراهق الرياضي في فريق المحلة، أحب (فاروق) الذي تتعرق يداي بين يديه ويرتعش قلبي معه، ذلك الشاب الطيب الخجل، الذي يحررني من خجلي، ويطلق حريتي في الغناء، ولكن كيف سيكون هو نفسه زوجي؟!

هل الحب والزواج عالمان مختلفان؟ نهران يجريان باتجاهين متعاكسين؟ هل يمكننا السباحة فيهما بوقت واحد من دون أن نغرق في أحدهما؟ فاروق... هل أخطأت الهدف هذه المرة وسددت الكرة إلى خارج الملعب حبيبي؟

في ذلك اليوم نفسه، من دون مقدمات، تقدم نحوي منذر الذي يدرس معي في القسم نفسه، وقال لي بأنني أعجبه، تلعثمت كما لو أنني أسمعها لأول مرة في حياتي، لا أعرف كيف أرد على هذا الشاب المؤدب والخجِل أيضًا، ليس لدي القدرة على أن أمنحه يومًا كئيبًا، استجمعت طاقتي الإيجابية، وقلت له بكل هدوء:

ـ أنا مخطوبة يا منذر.

من هـذه الجملـة المباغتـة، انتقلت من الحياة واحتمالاتها إلى عالم فاروق وحده، لقد رسمت دائرة ضيقة حول نفسي، دائرة تشبه (فاروق).

(٣٥)

نعم.... نحن لا نعبر النهر مرتين، لكننا بقوة الخيال نستطيع أن نجعل من نهر الذكريات يعبرنا آلاف المرات.

لم تعد هناك في محلتنا محلة، محلتنا انتقلت إلى السجل الأزرق الكبير، الذي امتلأ بالقصص والحكايات والخيالات، مرة بخط نادية، ومرة بخطي أنا، ومرة بخط بيداء، كتبنا عليه كل ما يمكن كتابته.

نحن الآن ثلاثتنا في انتظار لحظة أن تهاجر عائلة إحدانا كي نغلق هذا السجل وإلى الأبد، فمن صفحاته تخرج أحيانًا قصص واقعية، وأحداث حقيقية عشناها بكل قوة زمنها، أوراقه أصبحت مدينتنا السياحية، التي نتجول فيها من دون خوف، لقد وقع في الماضي كل ما

يمكن أن يحدث، وليس مهمًّا بالنسبة إليّ ما حدث بالضبط، بل المهم هو ما في رأسي الآن.

يبدأ القلق عندما أفكر أكثر مما يجب في الاقتراب من الحاضر، الحاضر يتحرك على أرض من الخوف والحذر والترقب.

تركت بيداء الجامعة، جملة فعلية كتبناها أنا ونادية في صفحة عائلة بيداء في سجلنا، تستعد عائلة بيداء للهجرة، جملة فعلية أخرى، جاءت السيارة الشوفرليه السوداء التي ستحمل عائلة بيداء بعيدًا، جملة فعلية جديدة، صعدت بيداء وأهلها من دون أن تودعنا، تحركت السيارة، سقطت منا دموع كثيرة، انطلقت السيارة، سقطت دموع أكثر، وصلت السيارة إلى رأس الشارع، تسابقت الدموع على أسفلت الطريق، تبع برياد السيارة مذهولًا، استدارت السيارة، اختفت عن الأنظار، عاد برياد منكسرًا، دخلنا البيت وأغلقنا الباب.

دخلت هذه الجمل الفعلية سجلنا دفعة واحدة، لكنها لم تقل لنا كل ما حدث بالضبط، كيف كان مشهد بيداء من وراء زجاج السيارة وهي تلوّح لنا بيدٍ كتبت كل قصة حياتنا؟

هل شاهدتم في هذه الجمل الفعلية وجهها؟ هل رأيتم الفزع في عينيها وهي تتلفت مثل طائر حبيس في علبة مظلمة يتنفس ذكريات عشه البعيد؟ هل خرجت بيداء من حياتي ودخلت سجل الماضي الذي دونت تفاصيله بنفسها؟ هل سألت روحها على الطريق الطويل نحو الحدود؟ على طريق الدموع والوداعات أخذت مني بيداء ضحكتها واختفت.

بيداء أين ذهبتِ؟ هل هذا هو وقتك؟ تعالي أريد أن أقبلك، أن أشبع منك، أن أحضنك، أن أبكي، أن أموت من الحزن بين أحضانك، هل صحيح أنني لن أراك بعد الآن؟ ماذا سأسمي حياتي من دون وجودك فيها؟

ما لم أكتبه في السجل، ما نسيت أن أكتبه في السجل، هو ما تبقى لنا من أيام في هذا المكان، أنا ونادية أقدم طفلتين في المحلة، ذاكرتنا، أفراحنا، حزننا، مسراتنا، آلامنا، نحن كل ما تبقى من زمن يذوب أمامنا مثل قطعة جليد على أرض ساخنة.

تركت نادية الجامعة، تركت أنا الجامعة، هي تجلس في البيت، وأنا أجلس في البيت، هي تحصي الأيام على جمر الخوف، على عدد ضحايا المفخخات والكواتم، على عدد الغرباء وهم يلونون بيوت محلتنا بالألوان الفاقعة، هذا كله من فضل ربهم، أما ربنا فقد أمرنا بالهجرة، وأنا أحصي الأيام مثلها.

أي السيارتين ستصل قبل الثانية؟ سيارتنا أم سيارة أهل نادية؟ هذا هو آخر الأسئلة في ورقة الامتحان، التي ستبقى آخر واحدة في قاعة الامتحان، هي حتمًا من ستجيب عن هذا السؤال المر.

هذه الليلة، قررت نادية أن تبيت عندي في غرفتي، تمددت على سريري. تلمست كل شيء من حولها، قلبت كل دفاتري، استمعت إلى كل أشرطة الأغاني دفعة واحدة، رقصت كل الرقصات التي تعرفها، قبلتني ألف قبلة داعبت برياد الذي بات معنا في الغرفة وأطلقت عليه اسما جديدًا بقي سرًّا بيننا نحن الثلاثة، ظلت تثرثر طوال الوقت،

تتحدث بلا انقطاع، كانت تريد أن تقول كل شيء، لكن الشمس أشرقت من النافذة وكان عليها أن تذهب إلى بيتهم.

ذرفت آخر دموعها عند باب غرفتي، خرجت معها حتى باب البيت، أخذت معها أصابعي ومشت، بعد ساعة جاءت سيارتهم الشوفرليه السوداء، صعدت إليها مع أهلها، وقفت وراء الباب أنظر إليها بصمت وذهول، نادية تتركني وحيدة.

هل تركتني وحيدة؟! الأصح أنها تركتني شيئًا من الماضي يتهشم خلف باب بيتنا، تركتني كوخًا متهالكًا يلتهمه حريق في غابة مظلمة، شبحًا من الحزن بأعين مندهشة، وقلبًا يتفطر ألمًا ويصدر طقطقات حارة.

ما الحياة، ما المحلة، ما الشارع، ما الذكريات ونادية تتلاشى في الطريق الطويل نحو الحدود، أيها الطريق الطويل ألا تتعب؟

أتخيلها في هذه اللحظات، تجلس في مقعدها الخلفي وتستسلم للذكريات، أتخيل أنها تبدأ من الليلة الأولى التي التقينا فيها في الملجأ، لا، ستبدأ من أيام الابتدائية، ستفكر في أحمد، ثم ستفكر في مروة، ثم تعود لتتذكرني وتبكي، تتفقد هاتفها النقال، تحاول أن تتصل بي، لكنها تكتشف أن شبكة الاتصالات مفقودة، وبطارية تلفونها في طريقها إلى النهاية، تضع تلفونها جانبًا وتتكأ على زجاج السيارة، تحاول أن تحصي التلال الرملية في صحراء الطريق، ثم تتذكرني وتبكي، ثم تنام، إنها الآن تحلم، أنني أشاهد أحلامها، الأحلام ليست كالتليفونات، أحلامنا المشتركة دائمًا متصلة بالشبكة، وبطاريتها لا تموت.

أريد أن أستأذنكم، وأشطب على الأيام الباقية لي في بغداد، أنا خجلانة منكم، لقد حاولت أن أكتب لكم عن زمن جميل، ولكن من أين أقترح لكم زمنًا جميلًا؟

أنا ونادية ولدنا في حرب السنوات الثماني، تعارفنا في عاصفة الصحراء، كبرنا في سنوات الحصار وحرب الخليج الثانية، تناوب على طفولتنا بالصواريخ والأسلحة المحرمة جورج بوش، وابنه جورج دبليو بوش، في حين أن بيل كلنتون والعجوز مادلين أولبرايت تكفّلا بتجويعنا، وعندما كبرنا كان الجحيم يجلس في انتظارنا.

سأراوغكم بالكلمات، وأتملص من الذكريات، سأغني، وأبكي، وأحلم مع نادية، سأتسلى بالحديث مع الطيار الأمريكي، سأفتح سجل المحلة وأختار الأيام السعيدة، سأفعل كل هذا، حتى تأتي سيارة الشوفرليه السوداء وتحملنا إلى خارج الحدود.

نحن آخر دمعة على ظهر السفينة، آخر ابتسامة، آخر شهقة، آخر وقع أحذية على أسفلتها القديم، نحن آخر من تكحلت أعينهم بغبارها، نحن الذين سنروي كامل قصتها، نرويها لأبناء الجيران الذين ولدوا في البلاد الغريبة، لأحفادهم الذين لم يولدوا بعد، نحن شهود أحياء على كل ما جرى.

على الزجاج الخلفي للسيارة السوداء التي توقفت عند بابنا فجر هذا اليوم، كتب بخط أبيض (هذا من فضل ربي).

صعدنا إليها، وانطلقت بنا، ليس في الشارع أحد يذرف دموعه علينا سوى برياد، الذي خذلناه وتركناه وحيدًا، ينظر في وجوهنا واحدًا

واحدًا، وهو غير مصدق عينيه، قفز مثل المجنون فوق سياجنا وتمدد عليه مثل تمثال من الجبس.

لم يبق أحد نلوح له بأيدينا سواه، نحن آخر الغرباء وبيتنا آخر البيوت التي منحها الرب من فضله للآخرين.

لوح قلبي لتمثال برياد الأسود وهو يرفع ذيله الأبيض حزنًا على وحشته، لوح قلبي لبيتنا، لحديقتنا، لسياجنا، لنوافذنا، لقطة صغيرة تقفز الآن من الجدار نحو البيوت المهجورة، هذا هو برج المأمون، تلك هي ساعة بغداد المهدمة، هذا هو برج الزوراء، السفينة جاهزة لاستقبال مسافرين جدد على متنها. الأرض لا تنتقل مع الذين أحبوها وعاشوا عليها سنواتهم، هي تتألم بصمت، وتحتفظ لهم بالذكرى.

الكتاب الثاني

المستقبل

المستقبل؛ ليس كل ما هو جديد وقادم من ماكنة الزمن، بل هو كل ما لا نعرفه.

(٣٦)

قبل سنتين اكتشفت نادية على الانستغرام مصادفة، كدت ساعتها أموت من شدة الفرح، لكنه كان للأسف فرحًا افتراضيًّا، فرح يشبه صورنا الجامدة على مواقع التواصل الاجتماعي، يشبه كلماتنا الباردة على هذه المواقع، هذه ليست نادية، هذه المرأة تشبهها، نادية ليست متزوجة وليست لديها طفلة صغيرة، هذه امرأة من عالم آخر، من زمن آخر.

ليست هي نفسها التي التقيتها في ملجأ محصن ضد الغارات الجوية، ليست هي نفسها التي عشت معها أغلب سنوات حياتي، هذا الرجل الذي معها في الصورة ليس أحمد، تحدثنا بعد أيام في التلفون، وكان صوتها أيضًا ليس صوت نادية، وهمومها ليست هموم نادية كما عرفتها وحفظتها في قلبي وروحي.

في العالم الافتراضي، في مواقع التواصل الاجتماعي، يكون اكتشاف صديق قديم يشبه لحظة واقعية صادمة بكل تيارها العاطفي، يذوي ضوء فتيلها مع مرور الوقت لتعود تدريجيًا إلى افتراضيتها.

العالم الافتراضي ليس وسيلة للتواصل فقط، إنه أداة لفحص الماضي وتصفية حساباتنا معه.

يومًا بعد يوم صرت أتهرب منها، من نادية الافتراضية، ابتعد بذكرياتي عنها، أخاف من حضورها الوهمي على قصتنا الواقعية.

فتحت سجل المحلة وقلبت أوراقه، كنت أبحث عن مساحة لأكتب فيها أن نادية لم تعد موجودة، لكنني ترددت وأغلقت السجل.

عندما نستعد لاستئناف الذكريات القديمة، نحتاج إلى قلوب جديدة غير مستعملة، قلوب طرية نشيّد في داخلها حضارات جديدة من الصداقة، نكتب عليها تاريخًا جديدًا، قصة غير مروية من قبل، ندخل عالمها لأول مرة ونتعرف على أبطالها لأول مرة أيضًا.

هل أصبحت قصتنا مجرد قصة قديمة يجب أن نطويها ونكتب عن حياتنا رواية جديدة تبدأ من حيث توقفت روايتنا القديمة؟

تلاشت علاقتنا الافتراضية تدريجيًا وبقيت الذكريات متجمدة في مكانها، وعندما تلح على رأسي ذكرى قديمة، كنت أتجاهل وجودها على الانستغرام، وأذهب إلى سجل الماضي لأغرف من عوالمه لحظات عشناها سويًا بكل ذلك الدفء.

عندما غادرنا بغداد، حملت معي في حقيبتي اليدوية (ساعة بغداد- سجل المحلة)، وأبقيته قريبًا مني في بيتنا في الأردن، مثل كنز سري أخفيه عن العيون المتطفلة، أفتحه بين حين وآخر، أقرأ فيه بعض الصفحات التي دونتها بيداء سطرًا سطرًا، وأتذكر من خلال كلماتها وجوه الجيران وبيوتهم وتفاصيل حياتهم، أتذكر الأغاني التي أحبوها،

ألهو مع أطفالهم وأثرثر مع الجدات، أتذوق طعم غدائهم وأشم عطر الورود في حدائقهم.

في إحدى الليالي، فتحت السجل ورحت أقرأ بنهم، أدقق في الحروف وأسمع الأصوات القادمة من البعيد، فجأة عثرت على مجموعة من الأوراق الغريبة مثنيّة إلى الداخل بعناية، ومكتوب فوقها وبخط أسود عريض وغامق كلمة:

«المستقبل»

اندهشت من وجود هذه الصفحات الغريبة في سجل الماضي، التي لم أكتشف وجودها من قبل، راودتني شكوك في أن يدًا خفية امتدت لتعبث بكل ذكرياتي، غير أن كلمة «المستقبل» هذه كانت مكتوبة بخط يشبه خط بيداء الذي أعرفه، ومكتوبة بالقلم نفسه، الذي سهرت تدون فيه الأحداث من ذاكرتها ولكن بحبر غامق، كما لو أنها مررت عليه القلم غير مرة.

- من أين جاء «المستقبل» إذن؟ وما الذي يفعله هنا في سجل الماضي؟

ارتجفت يداي وأنا أحاول لمس الصفحة الأولى، ترددت كثيرًا، ونشف الدم في عروقي، تصاعدت دقات قلبي وكدت أختنق من هول هذه المفاجأة المباغتة، فأنا لا أثق كثيرًا ولا حتى قليلًا بهذا «المستقبل».

كيف تسلل هذا الغريب إلى سجل الماضي، ما الذي يفعله هذا المجهول هنا، استمرت يداي ترتجفان بشدة وتعرق جبيني، تيبست شفتاي ونشف ريقي.

تركت السجل على حاله مفتوحًا، ونزلت أتوكأ على حافة الجدار الجانبي للسلم نحو الدور الأول من البيت، شعرت حينها بظمأ شديد ونزلت أشرب جرعة ماء، كما لو أنني قطعت صحراء بطولها في ظهيرات قائظة متصل بعضها ببعض، فتحت الثلاجة وتناولت ثلاثة أكواب متتالية من الماء البارد وارتويت، عدت بخطى ثقيلة إلى غرفتي.

كان شبح «المستقبل» قد أغلق الستائر، وأطفأ الأنوار، وراح يتجول في المكان، ثمة يد غريبة تدق عليّ نافذتي من الظلام، اختنقت وحاولت أن أقفز نحو سريري وأتدثر في فراشي وأنام، لكن الخوف حرم رأسي حتى من القدرة على ملامسة حافة الوسادة، يا إلهي ما الذي يجري في هذا العالم؟

فتحت الضوء من جديد، تحركت المروحية السقفية ودارت ببطء من تلقاء نفسها، وهي ترسم بأجنحتها الثلاثة خيالات غريبة على الجدران، استجمعت قواي وعدت أخطو على أطراف أصابعي نحو السجل، الذي صارت صفحاته تتقلب مع هواء المروحة بهدوء، كان شبح المستقبل يقلب أوراق الماضي أمامي وهو يبتسم لنفسه من دون أن أراه، تراجعت على الفور إلى الوراء، وتجمدت على بعد خطوتين في مكاني.

يد خفية تمتد إلى صفحات السجل المطوية وتفتحها مرة أخرى، ويد أخرى تمسكني من رقبتي وتأتي برأسي قريبًا من الكلمات، أتراجع الخطوتين مرة أخرى وجسدي يرتعش لكنها تعيدني إليها ثانية بقوة، بأصابع ذابلة من الذعر قلبت الصفحة الأولى، قربت عيني من الكلمات التي دونت بحروف صغيرة ومائلة ورحت أقرأ.

كتاب المستقبل

الفصل الأول

أنا «المستقبل» أعيش الآن ولادة متواصلة من رحم الماضي، وها أنا في طريقي إليكِ، اهدئي ولا تخافي، ليس فقط كل ما حصل في الماضي قد استقر فيه، لا تكرري ذلك أرجوكِ، ما يحدث في الزمن القادم سيستقر هناك كذلك، الماضي يطوي الحاضر ويبتلع الآتي وهو يتقدم نحو الأمام مثل عاصفة ترابية تتدافع طياتها نحو السماء وتسد الأفق، لا أحد يمكنه عرقلة عاصفة الماضي من الاندفاع نحو نهايتها، كما ليس في وسع أحد أن يدفع المستقبل إلى الأمام ويبقيه بعيدًا في مكانه.

أنا هنا من أجلك، من أجل اختصار حكايتك، من أجل تنظيف السنوات ومنعها من السقوط في الملل، لا تخافي مني، هناك نهايات مفتوحة على كل الاحتمالات، سأتركك تنعمين بفوضاها، بمفاجأتها، بأحداثها المشوقة، «المستقبل» هو مسرح التشويق والمصنع السري لإنتاج كل ما هو غير متوقع.

ليس في رغبتي إفساد حياتك، لدي بعض الأخبار السارة، الأخبار التي تعدينها سعيدة، ولدي أيضًا وقائع مؤلمة، أنا آسف لوجودها معي، لكنها من ناحية أخرى ضرورية جدًّا من أجل أن تكون الأخبار السعيدة سعيدة.

ما جدوى السعادة إذا لم تنبثق من ليل الألم الطويل، ما أجمل المطر حين يأتي بلا توقع من قلب العاصفة وينظف الهواء من الغبار، من أجل أن تنعمي بمستقبل جيد تجاوزي معي قراءة الصفحة رقم (٢) وباشري القراءة من الصفحة رقم (٣)، وعندما تبلغين الصفحة رقم (٦) اتركيها مطوية على حالها هي والصفحة رقم (٧) أيضًا، وباشري من الصفحة التي بعدهما، وأقصد الصفحة رقم (٨)، استمري بالقراءة حتى بداية الصفحات العشرين ما قبل الأخيرة وتوقفي هناك فورًا، لا تقرئي الصفحات الأخيرة، اتركيها مطوية كما هي، أنا أحذرك من الاقتراب منها، أرجو أن تلتزمي بهذه التعليمات حرفيًا، كما أحب أن أنبهك إلى أنني لا أشبه الماضي في صلابته وحكمه النهائي على الأشياء والوقائع والأحداث، أنا «المستقبل» محكوم بطبيعتي بنوبات من حدة المزاج والتقلب السريع من حال إلى حال.

ما يكتب في صفحاتي لم يكتب بحبر نهائي، صفحاتي مكتوبة بالضوء والظلمة، وأحدهما يمحو الآخر، بحسب الظروف وطبقًا لقدرته ورغبته ومزاجه.

هل أنت مطمئنة إلـيّ الآن؟

هل ذهب عنك الخوف والتردد والهلع؟

أنصحك بالذهاب إلى السرير في هذه اللحظة، سأتركك تنامين بسلام وهناء وطمأنينة وراحة، غدًا في الصباح حين تشرق الشمس ويدخل الضوء من النافذة، تناولي فطورك واشربي كوبًا من الشاي، افتحي السجل من جديد وباشري القراءة بشكل طبيعي من دون تشنج

وانفعال، كما لو أنك تقرئين رواية مشوقة جديدة، أبدعها خيال كاتب مجنون، وليست تتمة للماضي الذي توقف عنده كتابك القديم (ساعة بغداد - سجل المحلة).

ولأنك لا تحلمين، فإنني لا أستطيع أن أتمنى لك أحلامًا سعيدة، سأكتفي بالقول تصبحين على خير أيتها الحسناء النقية.

بعد أن انتهيت من قراءة رسالة «المستقبل» نهضت بهدوء وتوجهت إلى سريري على الفور ونمت.

في الصباح استيقظت بمزاج جديد، أخذت حمامًا مريحًا، أدرت صوت المسجل على موسيقى كلاسيكية، فتحت نوافذي للشمس، تناولت فطوري وجلست أقلب الصفحات التي سمح لي بتقليبها بهدوء وانسجام نفسي ومن دون خوف.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (٣)

عمو شوكت وباجي نادرة.

يصر عمو شوكت على الرغم من الإلحاح الشديد لباجي نادرة على عدم بيع بيته القديم في المحلة. قالت له مرات عدة:

ـ يا زوجي الطيب، لم يعد هناك أحد نعرفه، الأمور تغيرت، الحياة تبدلت، وصار كل شيء في يد الخراب.

لكنه وبعد كل هذه التوسلات، يصر أمامها من جانبه على أن كل شيء سيعود إلى طبيعته في ما بعد، ولما كان يجلس معها عند كل مساء ربيعي في حديقة بيتهما في مركز مدينة السليمانية، يستعيد معها الذكريات الجميلة التي عاشاها في المحلة، يحدثها عن بغداد وجمالها وسحرها وأيامها الذهبية، يحكي لها عن شارع الرشيد وأورزدي باگ، عن شـارع النهـر وكيف أنه اشترى لها بدلة زفافها من هناك، حدثها عن دجلة وأبي نؤاس، عن المنصور والمأمون والمسبح والكرادة والأعظمية، عن طفولته العذبة في زمن الملوك، ودراسته في إعدادية التجارة، ثم في كلية الاقتصاد.

حدثها عن وظيفته في البنك المركزي، عن دورة حياة الدينار العراقي، حدثها عن أشياء تعرفها هي جيدًا وعاشتها معه بالتفصيل،

لكنه يحب أن يرويها لها، كما لو أنه يتعرف عليها لأول مرة، في كل مرة يذهب فيها خياله في البعيد يأخذ يدها اليسرى ويطبع عليها أثر ساعة يدوية بأسنانه القلقة وبلطف شديد.

وعندما تقول له:

- لقد كبرنا يا زوجي وليس هناك أمل في حياة جديدة نعيشها في بغداد ثانية، دعنا نبيع البيت ونشتري بثمنه قبرًا كبيرًا على قمة الجبل، نطلب في وصيتنا أن تبنى عليه حجرة صغيرة، تكتب على جدرانها قصة حبنا منذ أول يوم التقينا فيه حتى آخر يوم في حياتنا.

يرد عليها بعد تأمل طويل في الفراغ:

- كل شيء سيعود إلى طبيعته.

تأخذه باجي نادرة من يده وتدخله البيت بعد أن تشعر أن برد المساء قد نزل في الحديقة وأن زوجها مريض ولم يعد يحتمل حتى نسمات الربيع العليلة، تجلس معه أقل من ساعة يشاهدان فيها التلفزيون، وعندما يغمض عينيه تغطيه وتذهب إلى سريرها.

في أحلامه يأتي برياد مهرولًا من على سفح جبل شاهق ثم يتدحرج أمامه مثل صخرة سوداء تصطدم بمقدمة حذائه وتتوقف عن الحركة.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (٤)

حسام شقيق ميادة!

بعد تنفيذه جريمة قتل شقيقته قبل سنوات وهروبه إلى الأردن، غادرها حسام بعد سنة تقريبًا إلى دولة حدودية أخرى، وأصبح فيها معارضًا سياسيًّا للنظام الديكتاتوري في العراق، بدل اسمه إلى (أبوسيف) وبعد السقوط مباشرة، عاد إلى بغداد بلحية كثيفة ونظارات شمسية سوداء يرتديها طوال الوقت.

أصبح عضوًا في أول برلمان تشكل بعد الاحتلال، ثم مسؤولًا كبيرًا في جهة حكومية نافذة، خرج في ليلة مظلمة، ودخل المحلة بموكب طويل من السيارات السوداء المصفحة، أمر أتباعه بإغلاق طرقاتها بالكتل الكونكريتية وسيج مداخلها بالأسلاك الشائكة، ووضع على كل البيوت المهجورة علامة باللون الأسود، ثم راح يبيعها بيتًا بيتًا على أنها من ممتلكات عائلته القديمة.

عندما دخل بيتهم القديم يتفقد ذكرياته، نهضت شقيقته ميادة من نومتها في الظلام، تقدمت نحوه وهي تطبع آثار أقدامها على غبار البلاطات:

- لماذا قتلتني؟!

تراجع خطوات إلى الوراء وهو مذعور غير مصدق عينيه، بعد لحظات من الشرود والهلع، ولما تأكد أن هذه الشابة التي أمامه هي أخته ميادة بدمها ولحمها وبملابسها نفسها، التي تلطخت بالدم يوم الجريمة، بتسريحة شعرها نفسها، وهذا الذي يسمعه هو نفس صوتها، جمد في مكانه برهة من الزمن لا أحد يعرف مداها، في حين راحت عيناها تنغرس في روحه مثل سكين حاد يخترق تمثالاً من الطين، حاول أن يفرَّ من المكان، وينادي على حرسه الشخصي، لكنه فقد صوته في الحال، حاول أن يتحرك من مكانه، لكن قدميه التصقتا بالبلاط كأنهما قدما تمثال ثبتتا بالحديد والإسمنت على قاعدته الصلبة.

بقيت هي ساكنة في مكانها تنظر إليه، وبقي هو يتهشم أمام نظراتها من الرعب، عندما وجد حراسه أنه تأخر أكثر مما يجب في بيت مهجور ومظلم، شعروا بالقلق، دخلوا عليه بمصابيحهم اليدوية ووجدوه ميتًا مثل قصبة.

حاولوا حمله لكن قدميه بقيتا عالقتين بقوة على بلاط الصالة، جاؤوا بالمطارق والمعاول وهشموا أقدامه ونصف ساقه على الأرض حتى سقط كما تسقط شجرة خاوية في الفراغ، حملوه ومضوا به على ظهر سيارة حمل مكشوفة، ودفنوه في حفرة عميقة خلفها صاروخ أمريكي سقط سهوًا في العراء، كانت هذه الحفرة أقرب الأمكنة المهجورة التي صادفتهم في الطريق، انهالت على قبره في الحال دقائق وساعات وأيام، هي بعدد الدقائق والساعات والأيام منذ ارتكابه جريمة قتل ميادة حتى اللحظة التي ووري فيها التراب.

بعد أن أطمأنت ميادة إلى أن الزمن أنصفها، تمددت في مخدعها الأبدي، وعادت تحلم بالزواج من الدكتور توفيق، الذي ظلّ عازباً حتى الآن، تحلم حلمها القديم نفسه، بيت صغير، وستائر ملونة، وأثاث بسيط، وصغار يضعون حقائبهم على ظهورهم ويتوجهون في الصباحات إلى المدرسة، تقف هي بباب البيت وتودعهم بابتسامة وقبلة في الهواء.

باع (أبو سيف) قبل أن يموت كل البيوت، باع المحلة كلها حتى مدارسها ومستوصفها وملجأها ودكاكينها وفرنها وصيدليتها، وبقي بيت أهله القديم تتخاطف فيه الأشباح، ويسمع في غرفه الفارغة صوت أغنية قديمة كانت ميادة ترقص على إيقاعها.

توفي أبو حسام وتوفيت أمه في حادث إرهابي، بعد أن تركا المحلة قبل سقوط بغداد بشهرين وقتلا وهما في طريقهما للعودة إليها من محافظة بعيدة.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (٥)

فاروق ومروة!

ولدت مروة في اليوم الأول من شهر شباط، وهو اليوم نفسه الذي ولد فيه فاروق أيضًا، والذي ولدت فيه أنت ونادية، وهذا اليوم بالمناسبة هو يوم ولادة عظيم شهدت فيه المحلة استقبال الجيل الثاني من أبنائها.

هاجرت مروة وعائلتها إلى أمريكا بعد أن حصلوا على اللجوء هناك، بسبب عملها مترجمة مع المارينز، وبعد أن تعرضت حياة أهلها للخطر في بغداد غير مرة.

في طريقهم إلى بلد اللجوء أقاموا في الأردن أسابيع عدة، صادفت فيها مروة فاروق وراحا يلتقيان، كانت تريد منه أن يوصل منها رسالة إلى أحمد، وكان هو بدوره يريد منها أن تبعث لكِ رقم هاتفه، بعد مغادرتها الأردن أخذت تتصل به من أمريكا، ونمت بينهما علاقة جديدة، تحولت إلى نوع من الحب.

تعرض فاروق لإصابة شديدة في ساقه، منعته من استعادة مستواه السابق والالتحاق بالفريق الوطني، قرر وهو على هذه الحال أن يخطبها ويتزوجها ويستقر معها في بلدها الجديد، بعد مدة ليست طويلة من

الزواج انفصلا، وعاد إلى بغداد ليعمل مدربًا في النادي الذي لمع فيه نجمه في بداياته، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى عاد وهاجر مرة أخرى إلى أمريكا التي أصبح يحمل جنسيتها، لكنه اختار هذه المرة أن يعيش في ولاية بعيدة من الولاية التي تعيش فيها مروة، وتعيش معه حاليًّا صديقة عربية ولدت في أمريكا، ويعمل بصفة مساعد مدرب في فريق نادٍ أمريكي غير مشهور، في حين أن مروة تزوجت من ابن سياسي عراقي معروف وأنجبت منه ولدًا، فاروق لم ينس حبه لكِ لكنه كان محرجًا من ردك المتهور على خطوبته لكِ، وإحراجه كان أكبر أمام أمه وخالته اللتين امتنعتا عن الذهاب إلى أهلك، بعد أن أخبرهما بأنك غير مستعدة.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (٨)

بيداء بعد لحظة مغادرتها.

ولدت بيداء في اليوم الأول من شهر شباط، وهي الأولى لأمها وأبيها، اللذين تعرف بعضهما على بعض في القطار القادم من البصرة إلى بغداد، كان أبوها ضابطًا شابًا في الجيش، نزل ذات يوم في إجازة من الجبهة، وكانت أمها طبيبة تخرجت حديثًا وتم تنسيبها إلى العمل في مستوصف قروي قريب من ميناء أم قصر، وبعد علاقة حب تطورت بينهما تزوجا.

لبيداء شقيق واحد يعيش مع جدته لأمه، التي تعلقت به منذ يوم ولادته، وبقي في بيتها حتى الساعة.

كبرت بيداء في المحلة، دخلت معك في المدرسة نفسها، وأنت تعرفين بقية القصة ولا داعي لإعادتها، لأن مهمتي هي ليست الماضي كما تعرفين، بل المستقبل، والمستقبل لا يعني ما هو قادم من الزمن، بل الأشياء التي حصلت في الماضي أيضًا، لكننا لا نعرفها.

تذكري معي دائمًا أن كل شيء لا نتذكره هو من رصيد المستقبل.

بعد أن تجاوزت السيارة التي أقلت عائلة بيداء الحدود، انفرجت أسارير عائلتها وتنفسوا الصعداء، لأن والدها كان يسافر بأوراق مزورة،

غيّر فيها اسمه ومهنته، واستخرج جواز سفر يحمل صورته تحتها اسم شخص آخر.

فتحت بيداء رواية (مائة عام من العزلة) التي أهديتِها إياها وراحت تقرؤها:

«لقد قلبوا القرية في لحظة واحدة، ووجد أهالي ماكاندو أنفسهم فجأة ضائعين في شوارع قريتهم، مشدوهين بذلك المهرجان الحاشد».

نزلت من عينيها دمعة، تدحرجت سريعًا على خدها وهي تتذكر المحلة، تتذكركما أنت ونادية، وكيف تركتكما وحيدتين تنهشكما الوحشة، ويتكور حولكما المكان ليحبس الهواء القديم في الصدور.

أكملت بيداء دراستها في المدينة الجديدة، التي وصلتها بعد مغادرتها بغداد، وتقدم إليها شاب هو ابن لطبيب زميل أمها في المستشفى، التي صارت تعمل فيه بعد سفرها، وهاجرت بيداء مع زوجها بعد إتمام مراسم الزواج بشهرين إلى كندا، وولدت هناك بنتًا جميلة اسمتها على اسمك أنتِ وفاء لصداقتكما، وولدت صبيًّا اسمته شوكت وفاء لذكرى عمو شوكت، الذي تحبه وتتلمس من حين إلى آخر موضع الساعة التي طبعتها أسنانه على رسغها.

هي الآن متفرغة للبيت والأولاد، وكانت لديها رغبة كبيرة في أن يتحقق حلمها لتتمكن من أن تؤسس موقعًا إلكترونيًّا على شبكة الإنترنت، يحمل كل تاريخ المحلة الموجود في هذا السنجل، حاولت الاتصال بك أو بنادية، لكنها لم تحصل على عنوانكما، بعد أن يئست أرجأت فكرتها إلى بعد حين ثم نسيتها.

في فجر أحد الأيام الكندية الشديدة البرد، نهضت بيداء من فراشها، وقررت أن تكتب رواية طويلة عن المدينة الكندية الصغيرة، التي تعيش فيها مع زوجها وطفليها، من دون سابق تفكير، أو تخطيط، جلست عند كومبيوترها الجديد وراحت تكتب:

لا أعرف شكل هذه الأرض، التي يكسوها الجليد، ولا لون العشب الذي كان يغطيها، لكنني أعرف أنني أولد من جديد على أرض هذه القارة البيضاء البعيدة وراء المحيط، لا أتذكر كيف وصلت إليها، ولا البلد الذي قدمت منه إليها، هكذا استيقظت ذات صباح ووجدت نفسي محاصرة بالبياض الشاسع، هذه الممحاة العظيمة التي تغطي وجه الحياة، وتمسح كل أثر في الروح للذكريات القديمة.

أن يولد الإنسان بعد ربع قرن من حياته، ويجد نفسه في جغرافية غريبة، وهواء غريب، ولغة غريبة، فإن عليه أن ينسى على الفور حبله السري، والرحم التي مكث فيها كل السنوات السابقة على ولادته الجديدة، كما ينسى الرضيع الرحم التي عاش فيها قبل ولادته، الإنسان بطبيعته ومنذ وجوده في هذا العالم، لا يتذكر الرحم الأولى التي عاش فيها، هو دائمًا يستقبل الدنيا بلا ذاكرة، كما لو أنه جاء من العدم، أنا الطفلة الجديدة في هذا العالم، القادمة من العدم، سأروي لكم حكاية يومي الأول.

أكملت بيداء روايتها، وتركتها تنام على رف صغير في صالة شقتها، تعود بين مدة وأخرى لقراءتها وتستمتع بها، هي المؤلفة وهي القارئة الوحيدة في الوقت نفسه، أن يكتب الإنسان لنفسه فقط فإنه

يكتب بحرية تامة، لا يعرف طعمها الكتّاب المحترفون، بيداء كتبت رواية لنفسها، وتركتها على رف صغير في صالة شقتها.

هذه هي أهم أخبارها، وفي الصفحات المطوية، التي حذرتك من قراءتها، ثمة أمور أخرى، ليس مهمًّا الاطلاع عليها، أحذرك مرة ثانية من المغامرة في فتحها، أو حتى التفكير في ذلك، إن رؤية ما لم يحدث بعد، ستجعل من حياتك جحيمـًا حقيقـيًّا.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (٩)

نادية بعد لحظة المغادرة.

ولدت نادية في اليوم الأول من شهر شباط، وهي الابنة الثانية للعائلة بعد شقيقها مؤيد، تزوج أبوها أمها التي هي ابنة خالته زواجًا عائليًا تقليديًا ليس مسبوقًا بقصة حب.

أنت تعرفين قصة طفولتها من الملجأ المحصن ضد الحروب، حتى آخر دمعة نزلت من عينيك وأنت تلوحين لها في لحظة الوداع.

وصلت نادية مع أهلها إلى دمشق، في الليلة نفسها التي نزل فيها الثلج لأول مرة في ذلك العام على هذه المدينة، البياض الشاسع المهيب هو الشيء الوحيد الذي منعها من نوبات البكاء، واستعادة ذكرياتكما التي هيمنت عليها طوال ساعات الطريق.

كانت نادية، وكحال أغلب الفتيات، وعبر كل الأزمان التي نعرفها، تربط بشكل تلقائي بين كل ما هو أبيض ناصع وليلة الزفاف، منذ لحظة الثلج هذه وهي تحلم بالزواج من أحمد، فهو لم يعد مجرد الشاب الذي أحبته، وعاشت معه أول قصة غرام في حياتها، إنه الآن يمثل بالنسبة إليها كل سماء الماضي وطيورها الأليفة، كل الأشياء الجميلة التي تركتها في المحلة هو بالنسبة إليها إنتِ وفاروق وبيداء

وعمو شوكت ودكان أبي نبيل ومتنزه الزوراء وساعة بغداد، هو الشوارع والأزقة، وواجهات المحال، والحدائق والأشجار، والطيور، والأبـواب، والشبابيـك، أحمـد هـو الماضـي كلـه، والحاضـر الـذي تبحث عنه.

في الأيام الأولى لوصولها مع عائلتها إلى دمشق، واستئجارهم شقة صغيرة في حي شعبي، تجلس نادية عند شرفة صغيرة تبرز من واجهة البناية، تراقب الحياة في الشارع، لعلها تصادف ظله يخطو في المكان، كانت الأيام تمضي وهي لا تعرف عنه شيئًا، لكنها كانت متأكدة من وجوده معها في المدينة نفسها، قلبها يحدثها عن وجوده قريبًا منها لكنها لا تراه.

فتحت صفحة في الفيس بوك، وصفحة أخرى في الانستغرام وراحت تبحث عن اسمه، مرة بحروف عربية، ومرة أخرى بحروف إنكليزية، ولما يئست من العالم الافتراضي، قررت الذهاب إلى الجامعة لاستئناف دراستها، لعلها في طريقها تعثر عليه مصادفة، أو على من يدلها عليه، أو في القليل تسمع عنه خبرًا يبدد قلقها، بالفعل جاء إليها من ينقل هذا الخبر:

- تزوج أحمد قبل أيام من صديقته التي كانت معه في جامعة الموصل، صديقته نفسها التي ظهرت معه في الصورة التي أرسلها إليك يوم كان في تلك الجامعة.

في البداية، لم تصدق نادية البنت التي حملت هذا الخبر، والذي نزل على رأسها كالصاعقة، وهذه البنت هي بالمناسبة نفسها التي أرسل معها أحمد رسالته المرفقة مع الصورة، يوم كانت نادية تدرس في جامعة

بغداد، وكانت هذه البنت تدرس معها، في حين أن أختها كانت تدرس مع أحمد في جامعة الموصل.

لم تتمكن نادية من السيطرة على دموعها أمام ساعية بريد الأخبار التعِسة، التي وظفها القدر لتحمل إليها ولمرتين متتاليتين أسوأ خبرين في حياتها، مرة في بغداد ومرة في دمشق.

من دون أن تنظر في عينيها، أو تودعها أدارت لها نادية ظهرها وانصرفت تخنقها العبرات.

تركت دراستها الجامعية، وعاشت عزلة قاسية في الشقة الصغيرة مع أهلها وهي تقضي النهارات بسماع الأغاني القديمة، التي تهب على روحها من الذكريات وتبكي.

بعد سنة من هذه الحادثة، تقدم لطلب يدها شاب وسيم، يعمل مهندسًا مدنيًّا في شركة معروفة في مدينة دبي، وافقت على الزواج وسافرت معه بعد الانتهاء من مراسم الزفاف ببضعة أسابيع، عاشت معه أيامًا جميلة، تزيدها حلاوة ابنة حلوة سمتها بيداء وفاء لذكرى صديقتها، لكنها أصبحت في الآونة الأخيرة تتقطع من الغيرة عليه، وصار لديها خوف مزمن من فقدان زوجها، لدرجة بات ينزعج منها بشكل كبير.

تحولت نادية إلى مدمنة على فحص تلفونه في اليوم عشر مرات، وطورت حاسة شم فظيعة للبحث عن أثر عطر أي امرأة في ملابسه، كانت تراقبه بعين لا تهدأ حتى وهو يشاهد التلفزيون، هذا عدا الاتصالات التي تجريها معه في أثناء عمله بمناسبة ومن دونها لتتأكد من أنه لها وحدها.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (١٠)

حياة برياد.

هل كان برياد شيئًا ما في حلم من أحلام نادية؟

ربما كان دراجة هوائية ملت الدوران في الحلم وخرجت منه، أو ليكن الساعة التي بقيت في حلمها القديم توقف الوقت لتخرج منه، البقرة، الخروف، الشجرة، الوسادة، أو أي شيء، ولكن من المرجح أنه كان شيئًا ما في أحد أحلامها وخرج منه بإرادته، فوجد نفسه داخل بيت مغلق من كل الجهات، استطاع أن يخرج ببساطة من حلم لكنه تورط في متاهة، تورط في بيت واسع جميع أبوابه ونوافذه مغلقة، هو بيت أم علي بعد هجرتهم.

كاد يهلكه العطش والجوع، استسلم لمصيره وتمدد على الأرض في انتظار نهايته، حتى تفاجأ بدخول رجل غريب، يحمل إليه الماء والطعام ويهتم بأمره ويطلق عليه اسمًا جديدًا، كان ذلك الرجل هو عمو شوكت.

في الدقيقة التي استدارت فيها السيارة التي أقلتكم إلى الأردن، قفز برياد كما تتذكرين على سياج بيتكم، وبات ليلته هناك، ليست لديه رغبة في إتيان أي فعل، قرر أن يضرب عن الماء والطعام ليموت فوق السياج.

تحدث مع نفسه طويلًا تلك الليلة، تساءل عن مصيره، عن ماضيه

ومستقبله، عن حياته بعد الموت، وهل سيلتقيكم هناك، تذكركم كلكم، تذكر المحلة كلها منذ اليوم الذي ظهر فيه حتى بقائه وحيدًا فيها.

بقي وحيدًا بالفعل، لا تقترب منه القطط الصديقة ولا تفزعه الخفافيش المرحة.

كيف دخلت الحلم؟ سأل نفسه، لماذا خرجت منه؟ لماذا وجدت نفسي في بيت أبوابه موصدة؟

نهض في الصباح، وقفز إلى الأرض، ودار على البيوت يتذكر أهلها، كان الغرباء من ساكنيها الجدد يطردونه ويغلقون الأبواب بوجهه، حتى أطفالهم لا يحبونه ويرشقونه بالحجارة والأشياء الثقيلة الموجعة، تشقق رأسه بأكثر من جرح عميق، ونزف ظهره من أثر الضربات المؤلمة بالعصي التي يهشه بها بعضهم من دون شفقة.

قرر أخيرًا أن يموت، لكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك، امتنع عن الماء والطعام، لكن ذلك بات أمرًا طبيعيًّا، إنه في الحقيقة لا يشعر بالعطش، ولا يشعر بالجوع، لديه شعور عميق بفقدان الكرامة، بالذل، بالمهانة، إنه لا يحب أن تشفق عليه القطط، والخفافيش، وصار يتجنب نظراتها إليه.

تعرض إلى ضربة قاسية في عينه اليمنى، ونزف منها دمًا ثقيلًا راح يلعقه، لقد رماه طفل بحصى كبيرة، دارت لحظتها من تحته الأرض وشعر بدوخة شديدة منعته من الوقوف على قدميه، زحف بجسده المنهك، وتمدد عند جدار بيتكم يتابعه بعض الصغار ويرشقونه بالحصى الناعم، نهض متثاقلًا، سحل أقدامه المنهكة نحو الشارع العام، وقف قليلًا يراقب السيارات المسرعة، ولما اقتربت منه شاحنة كبيرة دحرج نفسه تحت إطاراتها وأنهى حياته.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (١١)

الأخبار السعيدة...

بعد أقل من عام من الآن، ستتزوجين أنت الأخرى من شاب غاية في اللطف، تخرج في جامعة عالمية مرموقة، يظهر فجأة في حياتك، يأتي في زيارة لأهله الذين يقيمون إلى جوار أهلك في الأردن ويصادفك في الطريق، يقول في نفسه على الفور... هذه هي البنت التي حلمت بها كل حياتي، سيتقدم نحوك بعد نهاية عطلة الأسبوع بوردة حمراء ويقول لك أنا معجب بك، وعندما تتلعثمين أمامه يقول لك: أنا أحبك.

تتزوجان وتغادران للعيش في مدينة دبي أيضًا.

هل كانت هذه الأخبار بالنسبة إليك أخبارًا سعيدة؟!

لا تستعجلي، هناك أخبار أكثر سعادة في الطريق، انهضي الآن، وارتاحي قليلًا، أشربي كوبًا من الشاي أو القهوة، اسمعي أغنية من الماضي القريب، أغنية من أيام المحلة، تجولي بذكرياتك معها ثم تعالي:

«المستقبل» ينظم أوراقه جيدًا، يضيف ويختصر ويمحو ويعدل ويقص ويلصق، المستقبل أكثر مرونة من الماضي، الماضي الذي تحبينه ليس مرنًا على الإطلاق، لا تكرري مرة ثانية «كل ما يمكن أن

يحدث في الماضي قد حدث بالفعل»، هذا أمر غير صحيح على الإطلاق، ما معنى أن نعيش في ما نعرفه وتعودنا عليه فقط من دون المباغتة والمفاجأة وغياب التوقع، فإن الحياة ستغدو سجنًا من الذكرى تدور حول نفسها إلى ما لا نهاية.

أطبقتُ السجل بيدٍ ناعمة، ونهضت أزيح الستارة عن نافذتي لتدخل الشمس إلى غرفتي، أعددت كوبًا من الشاي، استمعت إلى أغنية أحبها لهيثم يوسف وهي تبدأ بمقدمة موسيقية طويلة بالأورغن التسعيني، بأنغامه العذبة التي تطرب لها الروح.

وقفت أمام المرآة وتأملت وجهي، ورأيته في العمق يقف خلفي، شابًا وسيمًا وأنيقًا يحمل وردة حمراء، يتقدم نحوي ويقولها بكل دفء العالم.. أنا أحبك.

ـ أنا أحبك.

لا تقولي لي إن هذا هو آخر همومي، لا، إنه أول همومك يا جميلتي، لا تهربي من أنوثتك، لا تحطميها بالأكاذيب، لا تقمعي صوت المرأة التي في داخلك، لا تصفعي رغباتها لأنك مجرد متحررة ومثقفة، لا تخادعي نفسك، ولا تجرحي حاجاتك المؤجلة، لا تذهبي بعيدًا من جسدك، لا تبتعدي عن أغنية الأنثى التي تريد أن تعبر عن ذاتها.

الحلم بالفستان الأبيض، لا يمنع من أن تكوني مثقفة ومتحررة وقوية، أحلمي من أجل النعومة التي في داخل روحك، بليلة الزفاف، بالموسيقى، والرقصة الأولى، تناولي من يده قطعة الكيك، وناوليه قطعة منها، اشبكيه بيديك وارقصي معه مثل أميرة من قصص الخيال.

كوني مثقفة ومتحررة وقوية، ولكن دعي الحب يـأتي من المكان الصحيح، في الوقت الصحيح، يأتي مع وردة حمراء ولمسة يد وقبلة.

لا تحبسي النهر في الساقية، ولا تضعي الإسمنت فوق عش العصافير، ولا تمنعي الشمس من التسلل إلى غرفتك المعتمة.

أنهيت ثرثرتي مع مرآتي، عدت إلى مكاني، جلست على الطاولة من جديد، وفتحت سجل «المستقبل» من حيث انتهيت ورحت أقرأ:

حفلة زفافك ستكون ليلة تاريخية لا يمكن نسيانها، لا في حياتك، ولا في حياة أهلك، ولا في حياة كل من يحبك وعاشها معك، هو يحبك، ومن أجلك يعد لك مفاجآت لم تتخيليها، ولم تخطر على بالك، ولم تحلمي بها لأنك في الأصل لا تحلمين.

بعد أن تقطعا كيكة العرس، وترقصا على أنغام أغنية جميلة تحبينها، قبل أن تعودا لتجلسا في مكانكما، تصدح في القاعة موسيقى جديدة، تنطلق فجأة معها الزغاريد والهتافات، والأصوات المتداخلة، وتعم فوضى الصفير والتصفيق المتواصل بحرارة، في لحظة مذهلة تلتفتين إلى منصة الغناء، ويداهمك الضوء بشدة، فتغمضين عينيك ثم تفتحينها على كاظم الساهر.

فركت عيني ورحت أقرأ من جديد، تلمست صفحة الكتاب جيدًا، قلبت أوراقه لأتأكد أنني أقرأ فصل «المستقبل»، ثم نهضت من مكاني درت على نفسي دورات عدة، فتحت النوافذ وتحدثت إلى الطيور والأشجار والهواء.

ـ كاظم الساهر؟!!

توقف يا كتاب «المستقبل»، توقف قليلًا، دعني أنا أتحدث إليك بضع دقائق، اتركني أقل ما لا تعرفه من لطفك، وما لا تفكر فيه، وما لم يخطر على بالك.

لم يكن كاظم الساهر مجرد مطرب ناجح وملحن موهوب وشاعر عذب، ليس هذه هي كل قصة كاظم الساهر، بالنسبة إلينا، إلى جيلنا الذي داهمه الحزن والإحباط والفشل من كل اتجاه، كان كاظم ضوءًا ساطعًا في سماء معتمة، قصة نجاح فريدة تشبه المعجزة في زمن الفشل الجماعي العام.

كاظم الساهر، سؤال عميق في دفتر امتحاننا، وإجابة مربكة على ورقة الأسئلة، كيف أفلت هذا الفنان من قبضة الأيام المريرة؟ من الزمن المعكوس؟ كيف أبحر بقاربه الصغير في محيط الأهوال والعواصف التي تجتاح حياتنا من كل مكان؟ كان العالم كله يقف على باب بيتنا، ويمنعنا من النجاح، كانت الأرض كلها تدور بنا في هواء الفشل، وكان كاظم الساهر في تلك السنوات المريرة يكتب قصة ناجحة، كانت الحياة تدفعنا نحو الغياب، وكان كاظم يأتي بنا على مسرح الضوء.

أنا لا أتحدث هنا عن كاظم الفنان الرومانسي الذي تسعد أغانيه الملايين من الناس، وتحلم به ملايين الفتيات، أنا أتحدث عن قصة النجاح نفسها، هل تعرف أيها «المستقبل» ماذا يعني أن تنجح وأنت ممنوع حتى من دخول قاعة الامتحان؟!. هل تعرف ماذا يعني أن يراك الناس في أغنية وتصير هي هويتك كلها؟

أعود إلى السجل، وأعيد قراءة سطوره الأخيرة، أسمع أغنية كاظم الساهر في حفل زفافي:

ضمني على صدرك وأبعدني عن الناس.

أتقدم خطوتين نحو وسط القاعة وأغيب في رقصة طويلة، بيدي أحمل باقة ورد ملونة، وثوبي الأبيض يتحول إلى سرب نوارس بيض صغيرة، تحلق في القاعة ثم تخرج من نوافذها نحو سماء بعيدة.

كتاب «المستقبل»: صفحة رقم (١٢)

ساعة بغداد!

توقفت الساعة عند الخامسة وست دقائق وأربعين ثانية فجرًا، بعد أن قصفها الأمريكان ودمروا المبنى الذي تقف شاخصة فوقه، نهبت محتويات متاحفها الداخلية كلها بعد شهر من تدميرها، سالت الدقائق من عقاربها على الأرض وتعطل الزمن تمامًا.

بعد سنوات، تقرر الحكومة إصلاحها، لتقف الساعة من جديد بوجوهها الأربعة، وصارت كل واحدة من هذه الساعات الأربع في واجهاتها، تشير إلى وقت مختلف، فمثلًا يمكنك أن تقولي: إنها الساعة السابعة صباحًا بحسب توقيت بغداد المحلي، في حين أن شخصًا ما يقف من الجهة الثانية المقابلة ويقول: إنها الخامسة عصرًا بتوقيت بغداد المحلي، في الجهة الثالثة في إمكان شخص ما مر مصادفة في هذه المدينة أن يقول: نحن الآن في الساعة الثانية ظهرًا من يوم الأربعاء الموافق ٩ نيسان عام ٢٠٠٣، في حين أن شخصًا آخر يقف في الجهة المقابلة له وليس بعيدًا منه يقول من دون أن يرتكب خطأ ما: إن الوقت الآن هو الساعة الرابعة من فجر يوم الأحد الموافق للعاشر من شهر شباط عام ١٢٥٨.

هكذا اضطرب التوقيت المحلي في مدينة واحدة، يتقاسم أهلها الوقت بحسب أمكنتهم التي ينظرون منها إلى ساعتها، ففي هذه المدينة الغرائبية أصبحت أجيال مختلفة تتعايش فيها وليس لديها إحساس طبيعي بالزمن الذي تعيش في داخله.

صار الناس يسبحون في فراغ زمني، تختلط فيه قرون سحيقة مع سنوات حديثة، صار في الإمكان رؤية نبوخذ نصر وسمير أميس يجلسان في مطعم يعمل فيه يزدجرد كسرى نادلًا.

هارون الرشيد بملابس عسكرية يهدي شارلمان ساعة رملية تسقط على الأرض وتتهشم، يأتي منظف القمامة ويكنسها بعيدًا، في حين أن الخليفة العباسي المعتضد بالله، يحمل قاذفة ويهرول من أمام زجاج هذا المطعم من أجل تدمير تمثال الجنرال مود، وعندما مر الرحالة العربي الشهير ابن جبير في المكان كتب في (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) هذه الأسطر:

وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة القرشية، فقد ذهب رسمها، ولم يبق إلا اسمها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر، إلا دجلتها التي هي بين كرخها ورصافتها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين، فهي نردها ولا نظمأ ونتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ.

دون ابن جبير هذه الكلمات، وراح يحصي الحرائق في شارع

الرشيد، وشارع السعدون، وشارع أبي نؤاس، ثم جلس عند تمثال علي بابا والأربعين حرامي وراح يكتب:

لما كان الزمن هو الوعاء الذي تنساب فيه الحياة بمرونة، وتتدفق بتعاقبية تقطعها الدقائق والساعات، أصبح الناس في مدينة بغداد مختلفين اختلافًا شديدًا في العقائد والآراء، والأزياء، والتسريحات، والأذواق في الطعام، والشراب، والمنام، والجلوس، والمسير، والوقوف.

بعضهم عندما وجد صعوبة في التأقلم مع هذه الفوضى الزمنية، قرر أن يذهب بإرادته ليعيش في التاريخ، فتح (تاريخ الطبري) ودس نفسه بين السطور، صار فردًا تاريخيًّا، يلبس الخرق البالية ويعتمر أغطية الرأس القديمة، ويطلق لحيته لتتدلى على صدره، مرة يذبح البشر الذين لا يشبهونه، أو يفجر نفسه داخل تجمعاتهم وهو ينادي (الله أكبر) ومرة يسحلهم إلى المجزرة لينحرهم مثل الدجاج.

على جانبي ساعة بغداد، تجددت المعارك التاريخية نفسها ومات فيها بشر كثيرون، ظهر (خليفة الموت) على ظهر دابة حديدية في قافلة دواب تمتد من رقة الشام حتى آثار النمرود، يرتدي ساعة عاطلة نوع روليكس تعمد إظهارها في معصمه ليعلن أن الزمن زمنه، يقتل في طريق مسيرته كل من يصادفه من الرجال والنساء والأطفال ويهدم الأسوار ويجفف الأنهار ويقتلع الأشجار ويطمر البساتين، أصبح الخليفة والجريمة شيئًا واحدًا، وصار الموت أغنية الزمن البذيء، زمن (الله أكبر) التي تنطقها الدماء البريئة وهي تنحر على أرض السواد.

خاتمة....

أعرف أنني كنت حلمًا في رأس أحدهم. وأعرف أنني سأعيش في دبي، أعرف أنني سأعمل هنا في هذه المدينة، وأؤسس فيها حياة جديدة بماض مستعمل، أعرف أن نادية تعيش في دبي أيضًا، وأعرف أننا سنعيد صداقتنا كلها، بجذورها العميقة، وذكرياتها، ستبيت عندي وأبيت عندها، سأذهب إليها يوميًا وتأتي هي إليّ يوميًا، أعرف أن حياتي وحياتها ارتبطتا بقدر لا فكاك منه، يبعثرنا جنون التاريخ وتجمعنا الجغرافية.

ها أنا في طريقي إليها، عالقة في الزحام وأتذكر، سأكون عندها بعد دقائق من الآن، ستستقبلني ابنتها عند باب البيت، وتلتصق بي تمامًا كما كانت تفعل أمها يوم كنا صغيرتين في الملجأ، نحتمي من الموت ونتقاسم الأحلام.

أعرف كل هذا من دون الحاجة إلى كتاب «المستقبل»، ولكن ما لا أعرفه هو ما دونته يد الأيام في الصفحات الممنوعة، الوقائع النائمة في السطور التي حذرني «المستقبل» من الاقتراب منها.

هل أقترب منها وأتجاهل هذه التحذيرات؟

لماذا نخاف من مصائرنا الحتمية؟

ماذا لو عرفنا ما يخبئه الغيب لنا؟ ما الذي سيتغير فينا ما دمنا نمشي إليه من دون أن ندري؟

لست أدري!!

انتهت.........

أحداث هذه الرواية، المحلة وشخصياتها، الراوية وصديقاتها وحياتها، كلها خرجت من الأحلام والخيالات وحاولت أن تتحرك على أرض الواقع.

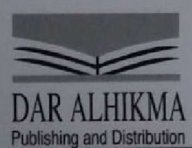
المحتويات

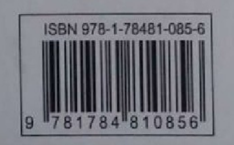


فمثلاً، يمكنك أن تقول: «إنها الساعة السابعة صباحاً بحسب توقيت بغداد المحلي»، في حين أن شخصاً ما يقف من الجهة الثانية المقابلة يقول: «إنها الخامسة عصراً بتوقيف بغداد المحلي». وفي الجهة الثالثة في إمكان شخص ما مرَّ مصادفة في هذه المدينة أن يقول: «الساعة الآن الثانية ظهراً من يوم الأربعاء الموافق 9 نيسان 2013»، في حين أن شخصاً آخر يقف في الجهة المقابلة له وليس بعيداً منه، يقول دون أن يرتكب خطأ ما: «إن الوقت الآن هو الساعة الرابعة من فجر يوم الأحد الموافق للعاشر من شهر شباط 1258».

هكذا اضطرب التوقيت المحلي في مدينة واحدة، يتقاسم أهلها الوقت بحسب أمكنتهم التي ينظرون منها الى ساعتها، ففي هذه المدينة الغرائبية أصبحت أجيال مختلفة تتعايش فيها وليس لديها إحساس طبيعي بالزمن الذي تعيش في داخله.

صار الناس يسبحون في فراغ زمني، تختلط فيه قرون سحيقة مع سنوات حديث، صار في الإمكان رؤية نبوخذ نصر وسميراميس يجلسان في مطعم يعمل فيها يزدجرد كسرى نادلاً.







88 Chalton Street, London NW1 1HJ - Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk